إدريس هاني

حزب الله
البعد الاستراتيجي

مكتبة
مؤمن قريش

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

حـــزب اللّه

البعـد الإستراتيجي

حـــزب اللّه

البعـد الإستراتيجي

مقاومة بحجم الخيال... نصر بحجم الخيال
فهل كنا في حجم النصر؟

تأليف
د. إدريس هاني

الناشر
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

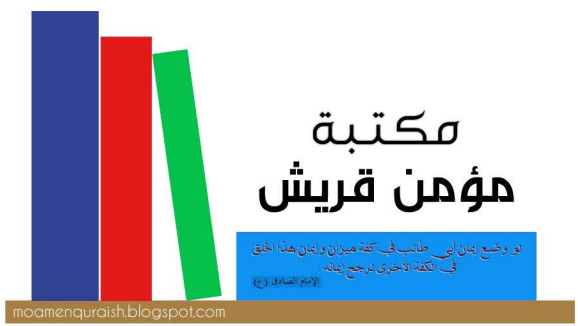

THE ARABIC HISTORY
Publishing & Distributing

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٠١/٥٤٠٠٠٠ - ٠١/٤٥٥٥٥٩ - فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/540000 - 01/455559 - Fax: 850717 - p.o.box 7957/11

إهـــداء

إيه أبا هادي .. فخر السادة المكرم
ألجمت وأسرجت وانتصرت
ذلك لأنك آمنت ووعدت فوفيت
يا تاجا فوق رؤوس العرب
خليك فوق الرؤوس!

مقدمة

أكتب هذه الكلمات، و العالم العربي والإسلامي يعيش وضعا استثنائيا و لحظة تاريخية أليمة. لم ننتظر طويلا ونحن نحتفل بأعظم انتصار وأجمل انتصار حتى عادت الأوضاع إلى حالتها الأولى؛ وهن الداخل، وغدر جواني يتكامل مع تربص براني، ليحولوا نصرنا الجميل لجاجا سياسيا ويشغلوا الإنسان العربي بفتنه وتناقضاته الداخلية. ومع أن الأبطال يكفيهم أنهم انتصروا، حيث ليس المطلوب منهم إلا أن يقدموا النموذج الحسن، وقد فعلوا وزيادة، فما تبقى فهو للسياسة العربية وللجيوش العربية وللإرادة السياسية العربية. كأنه قدر العرب أن لا يحتفلوا بانتصاراتهم حتى النهاية. فالمقاومة التي شمخت كالجبل، تواجه اليوم تردي السياسة الداخلية بصمود هو أطول مما تطلبته مقاومة العدو الصهيوني وهو يحاول أن يتقدم عبثا إلى أرض كتب عليه، منذ الاندحار الأول، أن لا يعود إليها أبدا ما دام ثمة بقية مقاومة بحجم لبنان الأكبر؛ لبنان الأكبر بمقاومته. فالصبر على الداخل مدد أمد الممانعة السياسية لامتدادات الحرب إلى الداخل، وقد نجحت المقاومة في مقاومة آثار الاحتلال والتآمر في الداخل بتصعيد خيار السياسة والحكمة، فكانت نموذجا آخر لا يقل أهمية عن درس المقاومة إبان الحرب الغاشمة على لبنان، بل نموذجا آخر من حيث استطاعت أن تؤمن السلم الأهلي وتقضي على أسباب التناقض الطائفي والفتن التي كانت آخر الأوراق التي لعبت بها أمريكا وإسرائيل في المنطقة.

لم يكن غريبا على هذا البلد الذي لا يوزن في ميزان الجغرافيا أن يعلم

العرب جميعا كيف يكون الوطن مهزوما فينتصر. لبنان درس لأولئك الذي باتوا يفكرون في تجزئة العالم العربي والإسلامي. لقد علمنا نحن العرب أن فعل التقسيم لن يجدي نفعا، طالما أن الأوطان برسم الصمود والمقاومة لها حد تنتهي عنده القسمة. فالجزء الذي لا يتجزأ من الأوطان يفجر أكبر انتفاضة ويصنع معجزة النصر. فلبنان هو أصغر حقا من أن يجزأ، لكنه أكبر من أن يخضع ويهضم ويبتلع. درس لبنان يؤكد على حتمية النصر بالأولوية القطعية وهي أبلغ طريق للتأكيد على أن ما لا يقهر في تقدير صناع الأوهام والمرجفين قابل أن يقهر شر قهر. وأن ما لا ينتصر في تقديرهم قابل أن ينتصر أعظم انتصار. لم تنتصر المقاومة اللبنانية أي انتصار فحسب، بل لقد سطرت جملة نصر لم نقرأها في تاريخ المقاومة منذ فجر تاريخ الصراع بين الحق والباطل. إنها صنعت أجمل انتصار. بل لنقل إنها رغم ما شهدته لبنان من تدمير طال الإنسان اللبناني والبنى التحتية اللبنانية، وهو شاهد على جبن الحربية الصهيونية، فإن ساحة المقاومة كانت قد قدمت مفهوما جديدا للمقاومة النظيفة. حاول العدو أن يلحق المقاومة بالصورة النمطية للإرهاب. فكانت المقاومة اللبنانية قدمت أروع نموذج للمقاومة التي قدمت إسرائيل كأكبر دولة إرهابية في العالم وحافظت على نظافتها. لم تكن المفاجأة في ملحمة النصر اللبنانية بالنسبة للعرب فقط، بل كانت مفاجأة للعدو نفسه وراعيته الولايات المتحدة الأمريكية. ليس مرد ذلك إلى كون سكر الاستكبار قد تمكن منهم فحسب، بل لأن المقاومة بلغت حدا من الجدية والتفنن في رد العدوان لم يوجد له مثيل أو نموذج في كل تاريخ التدخل الأمريكي والصهيوني. لم يكن ينتظر من المقاومة أن تحرر العرب من الهيمنة وتعيد لهم الحرية والاستقلال. لكنها مع ذلك قدمت أكثر مما هو في وسعها بحسابات الاستراتيجيا، لأنها حررت الوجدان العربي المهزوم من شر هزيمة نكراء لم تبرح ذاكرة العرب منذ ١٩٦٧م. والغريب أن هذا القدر من الاعتراف بقوة المقاومة مما سلم به العدو، لم يكد يقنع الكثير من الأطراف

التي نظرت إليها كمجلبة للدمار، وكأنهم لم يقرؤوا على صفحة النصر معاني الإنجازات العظيمة التي لم تنجزها جيوش عربية جرارة. مما وضع هذه الأطراف في وضعية حرجة لا تزال تداعياتها مشخصة في التعاطي مع نتائج النصر، ابتداء من الداخل وانتهاء بالخارج.

كان الكثير من المراقبين خلال الثمانينيات من القرن المنصرم يتوجسون خيفة من تنظيم فتي يحمل إسم: حزب الله. لا يدركون من أمره شيئا سوى أنه ذلك التنظيم المرتبط بالمصالح الإيرانية لا يملك من رؤية استراتيجية أو سياسية ما يملك به ضمان موقعيته أو واستمراريته كفاعل سياسي في لبنان والمنطقة. غير أن صيرورة الأحداث أظهرت خطأ كل التوقعات بما فيها تلك القراءات المغرضة. فحزب الله بات الحزب الأول في العالم العربي الذي استطاع أن يحقق حلم الشعوب العربية. بل قام بما عجزت عنه دول عربية. وبينما كانت القراءات المغرضة تحاول اختزال حزب الله في مجرد جسم إيراني دخيل على لبنان وخادم للمصالح الإيرانية على حساب المصالح العربية، تبين أن هذا الحزب قدم أكبر هدية للعرب وكان صمام أمان المصالح العربية. لا يحتاج المراقب أن يذكر بأن حزب الله أصبح معادلة صعبة في المنطقة، وأنها آخر ركن من أركان قلاع الصمود المتبقية في زمن الاندحارات بالجملة. وهو اليوم آخر أمل لاستقرار لبنان على خيار سياسي يضمن موقعية للبنان بحجم مواقفه ومكتسباته السياسية. إذا كانت المقاومة استطاعت أن توقف التعسف الاحتلالي المهدد لترابها الوطني، فإنها قادرة أيضا أن تؤمن استقرارا للوطن، على أرضية سيادية وخيار سياسي مستقل. صيرورة الأحداث علمت الجميع أن المقاومة لم تعد صمام أمان للحدود الوطنية السيادية فحسب، بل صمام أمان قراره السياسي بامتياز. إن الطريقة التي أدارت بها المقاومة اللبنانية المعركة مع قوات المحتل، واللغة السياسية التي تمتعت بها قيادته وكوادره، طوت صفحة التجهيل بأن المقاومة مجرد فوضى

أو حدث دخيل على المعادلة اللبنانية. التطور الكبير الذي ميز المقاومة جعلها لا تستحق أن تكون طليعة القرار اللبناني فحسب، بل عملت على إكبار لبنان في وجدان الأحرار في العالم، وكذا أكبرت الفعل المقاوم في نظر العدو نفسه، لما بات يدرك أنه لم يعد يملك قرار الحرب وحده. لم تعد المقاومة ملكا للبنان وحده ولا ملكا لنفسها، بل هي رمز عربي وإسلامي وإنساني، سوف يقرؤها التاريخ بصورة أكثر إجلالا في المستقبل.

أجل، لم تكن الملامح واضحة يوم حاولت ثلة من مناضلي المقاومة أن تحتل مكانتها داخل المشهد اللبناني الذي كان حتى ذلك الحين مؤثثا بصورة تحمل بعضا من بصمات الحرب الأهلية المريرة التي كانت محطة أليمة على اللبنانيين، لكنها كانت درسا تعلم منه اللبنانيون أن الحرب الأهلية ليست مستحيلة الوقوع لكنها مستحيلة البقاء. . وهي حينما تطول لن تتحقق معها مصلحة أي طرف من الأطراف. هذا الدرس اللبناني هو الذي جعل الصمود في ساحتي الشهداء ورياض الصلح يستغرق زمنا لم تستغرقه المقاومة في دحر أكبر جيش في المنطقة. إنه درس آخر في نظافة العصيان المدني والاحتجاج والتظاهر. وسوف يتضح بعد كل هذه الحقب أن عنوان حزب الله، لم يعد مخيفا للأطراف الأخرى، بل كان عنوانا لمسمى حقيقي، ارتقى بالعمل المقاوم إلى ما فوق حسابات السياسة وتقدير المصالح الضيقة، فلقد كان حقا حزبا لله؛ وذلك هو أكبر ضمانة لأن يكون حزبا لكل لبنان ولكل العرب ولكل المسلمين، لأن أجندته أعادت إنتاج العلاقة المفقودة مع القيم الوطنية والإنسانية والعربية والإسلامية؛ إنه ضمير الأمة ولسانها مهما حاول العدو عبثا أن يعيدها إلى مربع الاصطفافات الضيقة والحسابات المحدودة. فهو حزب الله يتخلق بأخلاق الله في الرحمة ويمارس أبوته السياسية، لأنه كبير ينأى عن التفاصيل ويسمح ويغفر ويبادر ويتواضع. . .

صمدت المقاومة عسكريا في مقارعة العدو وصمدت ديمقراطيا في

الاحتجاج والرفض لخيار الهزيمة، وهي اليوم تواجه أكبر تحدي للمقاومة : الفتنة. لو أن العالم العربي استطاع أن يكبر مع مقاومته لأدرك بأن الهزيمة المنكرة للسياسة الأمريكية وبالتالي المشروع الصهيوني في المنطقة، لم يكن له من مخرج سوى الانزلاق بالعالم العربي والإسلامي إلى حافة الفتنة الداخلية وملهياتها التي جلبت على عالمنا كل دمار وكل استبداد وكل احتلال، فهي حقا مداخل القابلية للاستعمار كما لا يخفى. إنها ليست سوى سياسة الفوضى الخلاقة. فما أن طرح هذا المفهوم وأصبح جاهزا للتنفيذ حتى اهتزت الأوضاع في العالمين العربي والإسلامي، تحت عناوين تحمل في طياتها كل معاني التجزئة والفتنة الداخلية، عرقيا وطائفيا ومذهبيا. ومع أن العرب أدركوا حكاية الفوضى الخلاقة وكتبوا حولها الكثير إلا أن مشكلة العرب تكمن في آفة النسيان. فالذاكرة العربية شبيهة بذاكرة الفيل، وهي لعمري مفارقة كبرى، حيث الفيل ليس حيوانا عربيا. بينما الجمل العربي يتمتع بأكبر ذاكرة. أجل؛ إن مشكلة العرب أنهم يتفاعلون مع الأحداث لكنهم سرعان ما ينسون.. وربما قاوموا لكن قلما يصمدون. والحق أن ما يجري اليوم هو نتيجة تدبير السياسة القذرة للمشروع الأمريكي والصهيوني للوقيعة بين أبناء الأمة الواحدة والوطن الواحد. فعبر قرون من الزمان كان المجال العربي والإسلامي يعيش على سبيل التعددية العرقية والدينية والمذهبية، فما الذي جعل الفوضى الخلاقة اليوم تدخل بيتنا من المنفذ الطائفي والمذهبي؟! غير أن المسألة محسوبة سلفا، فمتى ابتعدت من المجال الذي يشهد تعددا طائفيا إلى مجال آخر خالص من التعدد الطائفي، نفذت سياسة الفوضى من منافذ أخرى واستندت إلى أي عامل آخر، ولو كان حزبيا، كما هو الحال في الأراضي الفلسطينية المحتلة. لقد قدمت المقاومة كل ما تملك وأنجزت ما لم يكن في الحسبان.. لكن يفترض في النظم والشعوب العربية أن تكون في مستوى هذا النصر. أن تكون حذرة من شتى صنوف الانزلاقات التي تبغي زرع الفتنة وإضعاف العالم العربي والإسلامي

وإشغاله عن مخططات العدو. هذا مع أننا نعتقد أن ما يحدث الآن هو آخر سلاح تبقى في يد العدو، بل إنهم يريدون أن ينسحبوا لكن بعد حرق المنطقة وتخريبها؛ فكان لا بد أن نحذر!

ينقسم هذا الكتاب إلى فصلين:

الفصل الأول: مخصص لآراء تكشف عن السياق الاستراتيجي لحتمية المقاومة وضرورة الحفاظ على جهوزيتها، وبالتالي هذا يطرح ضرورة أن تظل المقاومة محتفظة بسلاحها، والتنسيق للضرورة التي يفرضها وجودها كفاعل سياسي في الوطن اللبناني مع الجهات المعنية. وهذا أمر فعلته المقاومة وصرحت به مرارا. بل يتطلب الوضع أن يكون الشعب والدولة حاميين طبيعيين للمقاومة، لأن المقاومة هي مصدر قوة لبنان كدولة وشعب. وهذا ما يتطلبه وجود حكومة في حجم النصر وفي حجم المقاومة. وهذا هو المطلب الرئيسي للجماهير اللبنانية الصامدة اليوم في ساحتي الشهداء ورياض الصلح. يضم هذا الفصل مقالات وأوراق كتبت قبل اندلاع الحرب العدوانية على لبنان الشقيق الأكبر ـ وهو من الآن يجب أن نتعامل معه على أنه لبنان الأكبر ـ، تطرقت لفعل التغليط والتآمر والتربص وطرحت يومها سؤالا: هل حقا إن إسرائيل دولة لا تقهر ولا تزول؟ سؤال طالما طرح من دون جواب. لكن المقاومة أجابت عنه بصورة قطعية مشهودة. إنه سؤال الإمكان. لكننا نعتقد أن إسرائيل لا تملك أن تبقى من دون حرب. ولقد علمتها المقاومة اللبنانية أن الحرب لم يعد قرارا إسرائيليا ولا نزهة سريعة. وإذن تلك هي البداية. إن الحرب متى انتهت مع اسرائيل فحتما ستسقط. لأنها ستكتشف أنها نبتة غريبة عن المجال. وبأن السلم من شأنه أن يمنح فرصة لتناقضات المشهد الإسرائيلي وصراعاته الداخلية نتيجة تناقض الاجتماع الصهيوني ثقافيا وسياسيا واقتصاديا. إن إسرائيل ستنتحر بنفسها، ولا حاجة أن تسقطها دول عربية وليس المطلوب من المقاومة أن تزيل إسرائيل. إن وظيفة المقاومة أن لا

تسمح لاسرائيل بترحيل الأزمة إلى لبنان والبلاد العربية، لأنها كيان لا يمكن أن يعيش من دون حرب، لذا وجب أن تحتفظ المقاومة بسلاحها.

الفصل الثاني: يضم بعضا من المقالات التي كتب معظمها خلال الحرب على لبنان. ولذا كان لا بد أن نؤكد بأن ما تحمله من حرارة أحيانا يجب وضعه في مرحلته. إنها الحرب، ولا بد من أن تنعكس على المقالة. فلنقل إنها مقالات زمن الحرب وليست مقالات زمن السلم. كتبت تباعا في دوريات ومواقع عربية مختلفة، أولها : "الحرب الجبانة على لبنان" نشر في مواقع مختلفة منها موقع مجلة الانتقاد اللبنانية لعله في اليوم الثاني من الحرب وآخرها "لبنان فارس قصير" المنشور في مواقع مختلفة ومنها موقع صدى الشرق.

لقد غدا لبنان الشقيق العربي الأكبر.. أكبر بمقاومته التي هي مفخرة العرب. وكان حري بلبنان أن يفتخر بمعالمه ورموزه الكبرى.. وإذا كان الكثير من العرب يشعرون وكأنهم طرفا إزاء الوضع اللبناني ويخوضون مع أبنائه في همومهم واهتماماتهم، فذلك لأن لبنان في الوجدان العربي لم يعد شأنا لبنانيا، وسيد المقاومين بات رمزا لشرفهم.

* * *

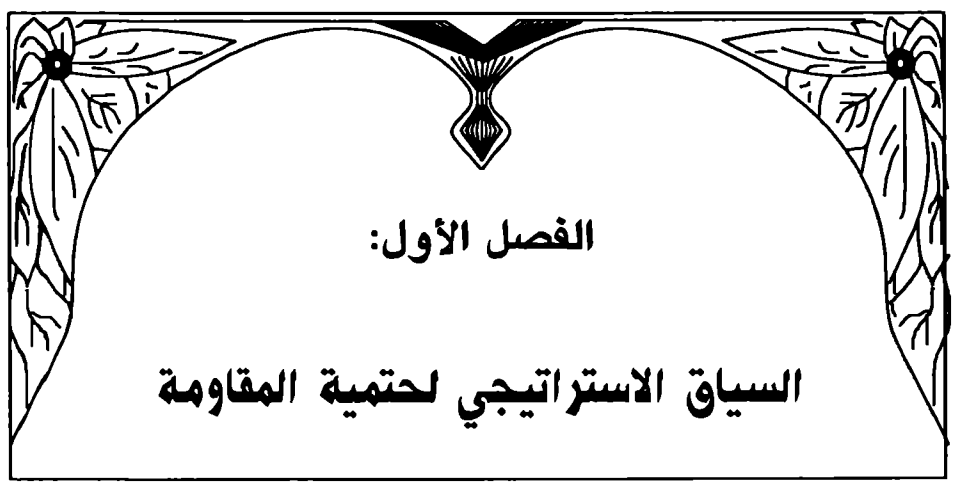

الفصل الأول:

السياق الاستراتيجي لحتمية المقاومة

(١)
نحو استراتيجيا للأمن العربي والإسلامي

يتحدث وليام بلوم - كاتب أمريكي و موظف سابق في قطاع الدولة - صاحب الكتاب الشهير «Rogue state» قائلا: " لو كنت أنا الرئيس، لأوقفت الهجمات الإرهابية ضد الولايات المتحدة الأمريكية نهائيا، في غضون بضعة أسابيع. في البداية سوف أقدم اعتذاراتي لكافة الأرامل، و اليتامى، و المعذبين، و الغارقين في البؤس، و إلى ملايين آخرين من ضحايا الإمبريالية الأمريكية. بعد ذلك، سأعلن للجهات الأربع في العالم، بأن التدخلات الأمريكية في العالم قد توقفت نهائيا. و سأخبر إسرائيل بأنها ليست الولاية ال"٥١" للولايات المتحدة الأمريكية، بل هي من الآن فصاعدا - و هو أمر جدير بالذكر - بلد أجنبي. بعد ذلك، سأعمل على تخفيض الميزانية العسكرية بنسبة ٩٠٪ على الأقل، و سوف أستعمل الفائض في تعويض الضحايا. سيكون ذلك كافيا جدا. فالميزان العسكري لسنة واحدة يقدر ب ٣٣٠ مليار دولار. و هو ما يعادل أكثر من ١٨٠٠٠ دولار للساعة منذ ميلاد المسيح.

هو ذا ما سأفعله في الثلاثة أيام الأولى.

في اليوم الرابع، سأقتل"

الفقرة المذكورة أعلاه، شهادة حية حاكية عن ضمير كاتب أمريكي خارج دائرة تأثير السياسة الخارجية التصنيفية للولايات المتحدة الأمريكية. و

من ها هنا خطورة الموقف. إنه مجرد نموذج عن سرب من الحمائم التي غاضها أن يكون مصير دولتهم، بيد صقور تقودهم نحو الانتحار الجماعي. و هي فقرة تؤكد على أن أمن العالم لن يكون معافى في أفق هذيان التعسكر غير المعقول، لا سيما في زمن ما بعد الحرب الباردة. أي ذلك الهذيان أو الذهان العسكري الذي كان مبررا - بحسب كيسنجر في مذكراته - لأن غايته لم تكن إحراز النصر في حرب لم تكن ممكنة و لا حتى مقبولة من القطبين، بل كانت بمثابة لي ذراع كل منهما، و اقتياده للتنازل و الاستسلام. لقد تحققت نبوءة كيسنجر إذن، حيث مشروع حرب النجوم نفسه لم يكن سوى خطوة لإنهاك الميزان العسكري السوفياتي و الوصول به إلى حافة الأزمة الاقتصادية الكبرى. لكن ما لم يتحقق هنا، هو أن الولايات المتحدة الأمريكية باتت تفتش لها عن عدو جديد لتبرير استمرارية تدفق السلاح، و تعاظم النزعة إلى الهيمنة. لا أحد ينكر بأن مشروع الدرع الواقي لم يكن سوى إلتفاف على هذه الحقيقة.

ما يقوله وليام بلوم، هو منطقي للغاية. لكنه منطقي فقط بلحاظ الصورة التي يحملها "بلوم" عن أمريكا، يفترض أن يعاد إدماجها مجددا في المنظومة الدولية، وفق منطق السياسة الدولية القائمة على استبعاد القوة و سياسة التدخل. لكن هذه الصورة لا زالت لم تجد طريقها إلى أذهان شرذمة من الصقور و اللوبيات التي تريد بالولايات المتحدة الأمريكية أمرا آخر غير أن تكون دولة في منتظم دولي، بل دولة أمبراطورية تحقق غايات غامضة.

* * *

العالم الإسلامي في ظل صعود الإمبراطورية الأمريكية

لقد كان من المفترض لو قلبنا السيناريو الافتراضي لوليام بلوم، و قلنا، ماذا لو أفلح هذا الأخير و كان رئيسا بالفعل و استطاع أن يحقق حلمه؛ ذلك الحلم المقموع في وجدان شريحة واسعة من الشعب الأمريكي تجهل كل شيء عن السياسة الخارجية لبلادها. سوف يكون الجواب إذن، أن رفع اليد عن إسرائيل، هو بداية فعلية لسلام عادل في منطقة الشرق الأوسط، و رفع اليد عن نمو هذه المنطقة، و اعترافا بحق العالم الإسلامي في نمو طبيعي غير معاق. قبل ذلك كان هينتنغتون قد نصح الولايات المتحدة الأمريكية بأن تهتم بتقوية جبهتها الداخلية و أن تعود إلى حدودها الطبيعي و أن تكف عن التدخل في الشؤون الخارجية أو في سياسات الدول. و مع أن البعض قد قرأ أطروحة صدام الحضارات من وجه واحد، ليجعل من هينتنغتون كاهنا للصراع، فإن إمعانا في الوجه الآخر لهذه الأطروحة - على الرغم من إحساسها التقليدي الأمريكي بالانزواء - سيجعلنا نقف على تحريض هينتنغتوني لأمريكا بأن تكف عن التدخل و عن فرض قيمها على الآخر بالعنف. إن أطروحة " صدام الحضارات " هي أطروحة تحمل دلالة خطيرة فيها حرج على الغرب أكثر منه حرجا على عوالم ما وراء البحار. ففي حثها الولايات المتحدة الأمريكية على أن تهتم بجبهتها الداخلية، إشارة - غير مباشرة - للتخلي عن دعم إسرائيل. و بالتالي أيا كانت المسوغات الإيديولوجية لهذه الأطروحة الانزوائية، فإن نتيجتها تخدم السلام في المنطقة و ترهص إلى إمكانية استعادة التحكم بالأمن في العالم الإسلامي. أما ما يتعلق بوجهة نظر هينتنغتون المعرفية من الثقافة بوصفها وجهة نظر بنيوية غارقة في الإنغلاق، فهذا شأن آخر قابل للنقاش. على أنه قصاراه أن يخلق إحساسا بالعزلة و الانطواء.

* * *

الأمن العربي والإسلامي ومستقبل الأمة

لو أننا أمعنا النظر في الأحداث التي ألمت بالعالم الإسلامي خلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، و أعني تحديدا، يوم أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية الوريث الشرعي للإنجليز في هذه المنطقة، سنجد أن كل المشكلات و التعقيدات التي عاشتها المنطقة ترجع إلى طريقة التحكم و سياسات التدخل الأمريكي في المنطقة. و هذا يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية - و تحديدا بسبب وجود إسرائيل - أصبحت خطرا حقيقيا على الأمن الإسلامي. و هي لذلك تسعى بكافة الطرق إلى إجهاض مفهوم الأمن الإسلامي عبر سلسلة من الإجراءات يمكن تلخيصها فيما يلي:

لماذا رفضت الولايات المتحدة الأمريكية و إسرائيل الاهتمام بفكرة صراع الحضارات للخبير الأمريكي صامويل هينتنغتون؟

أعتقد أن ثمة ما هو محرج للغاية في صلب هذه الأطروحة. إن صامويل هينتنغتون لم يحرض أمريكا على أن تخوض حروبا ثقافية ضد الكيانات الثقافية الأخرى. بل لعله اعتبر تلك النزعة الإمبريالية أمرا لا أخلاقيا. إن دعوته في واقع الأمر دفاعية محض. إنه اعتبر أي احتكاك أمريكي أو غربي بالكيانات الثقافية المختلفة هو مدعاة للعنف و الصدام. و الحل إذن هو في انزواء الثقافات ضمن حدودها الطبيعية. و نفهم من ذلك، أن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتراجع إلى حدودها الطبيعية و أن لا تحشر أنفها في الدول الأخرى. إذا كان هينتنغتون يرى بأن للإسلام حدودا دموية، فهو يشير إلى أن الجغرافيا الإسلامية محاطة بمخاطر الكيانات الثقافية المختلفة. فكيف إذا ما كان في قلب هذا العالم، كيان ناشز حضاريا و ثقافيا عن العالم الإسلامي أفلا يكون ذلك أخطر من كونها مجرد حدود دموية؟! إن الولايات المتحدة الأمريكية لن ترضخ لهذه الدعوة، و إن كانت ترى فيها ما يؤكد على تميزها الثقافي. فهينتنغتون يرى أن الغرب فريد و ليس عالميا. و

هذا لا يعني أن فرادة القيم الغربية تبرر تعديها لحدودها الطبيعية. فأهم القيم عند الغرب قد تكون أقل أهمية عند الأغيار - حسب هينتنغتون -. إن أطروحة هينتنغتون تحرض أمريكا على أن تتبنى موقف وليام بلوم، كما رأيناه سابقا. و بالتأكيد فهي أطروحة تناقض الإستراتيجية الأمريكية التقليدية القائمة على التدخل و السيطرة و النزعة الإمبراطورية، و أيضا هي مناقضة للسياسة الصهيونية القائمة على نزعة السيطرة و التوسع، و ذلك لسبب بسيط، كون الكيان الصهيوني، لا يمكن بحسب النموذج الحضاري الهينتنغتوني، أن ينعم بسلام في منطقة تختلف عنه ثقافيا. بهذا يكون هينتنغتون قد أكد بصورة غير مباشرة، على أن لإسرائيل حدودا دموية بامتياز!

إنه لا يخفى أن إسرائيل لا تهدد الأمن الإسلامي عسكريا فحسب، من خلال حيازتها لأسلحة الدمار الشامل. بل هي عنصر تهديد للأمن الحضاري الإسلامي بكافة أبعاده الإنمائية، الاقتصادية، الاجتماعية، الصحية و الثقافية. فسياسة الاختراق الصهيوني، هي سياسة شمولية و ليست عسكرية أو استخبارية فحسب. إن مجرد وجود إسرائيل حسب هذا المنظور الاستراتيجي - و هذا يتأكد أكثر في إطار مفهوم الشرق أوسطية - يفرض على العالم الإسلامي وتيرة و كيفية في النمو يجب أن تقاس حسب المقاييس الاستراتيجية الصهيونية. إذ أن وجود إسرائيل و دوامها ينهض على شرط استراتيجي موضوعي، هو أن تضمن إسرائيل تفوقها على جيرانها. هذا التفوق معناه، أن ثمة سقفا يحدد طبيعة نمو العالم الإسلامي. و هذا يفرض أيضا أن تكون إسرائيل رقيبا على نمونا؛ أي بتعبير آخر؛ حارسة لتخلفنا. الأمر الذي يعزز المنظور الاستراتيجي الآخر الذي يرى بأن لا حل إلا بأن تزول إسرائيل من الوجود. ذلك لأن كيانا يسوس مصيره على حساب مصائر المنطقة، و يفرض عقدته التاريخية و تعقيداته السياسية على العالم الإسلامي، هو نفسه يفرض على العالم الإسلامي بأن يقف موقفا حاسما من

وجود إسرائيل. و مع أن شعارا كهذا لم يعد يجد له أنصارا أو حتى من يجرؤ على النطق به منذ كامب دايفد و مرورا بمدريد و أوسلو و وادي عربة وانتهاءا بشرم الشيخ و خارطة الطريق. لكن حقيقة الوضع لن تتغير.

إذا كانت الاستراتيجية الصهيونية و السياسة الخارجية الأمريكية تعمل على تقويض حقنا في النمو الطبيعي بلا رقيب شرق أوسطي أو شروط تخليفية بما يقوض أمننا الاقتصادي و السياسي و الثقافي، فإن فكرة الأمن الإسلامي نفسها تظل موضع إشكال في مقاييس الأمن الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية و إسرائيل. فإذا كانا هذان يمانعان ضد قيام أي شكل من أشكال التضامن العربي، حتى من المنظور القومي، فكيف سيقبلون بوجود استراتيجيا للأمن الإسلامي. من هنا، فإن مشروع الشرق أوسطية التي دعى إليها بيريز، هو واقع في سياق هذا الاختراق للأمن القومي و للأمن الإسلامي. و هو المشروع الذي برزت ملامحه في اجتماع شرم الشيخ، متزامنا مع الدعوة إلى التطبيع و إقرار خارطة الطريق. ففي أفق الدعوة إلى تعاون اقتصادي شرق أوسطي يسمح لإسرائيل بأن تكون نواة هذا المشروع، ثمة من يعمل على مستويين:

- تقويض فكرة الأمن العربي والإسلامي

- التأكيد على نشازية الكيان الصهيوني

في كتابه " الهويات المتعددة للشرق الأوسط"، يستنكر برنار لويس، المستشرق الإنجليزي اليهودي الأصل و الصهيوني الهوى، أن تتحدد هوية المنطقة على أساس الجامعة الإسلامية. حتى أنه رأى في ذلك استثناءا فيما جرت به العادة بالنسبة لكيانات أخرى قامت على روابط إقليمية أو قومية و بالنسبة إليه، فقط تكون هذه الأقطار من تؤسس لنفسها كيانات و مؤسسات على أساس ديني، كمنظمة المؤتمر الإسلامي. و في أفق هذا الانتقاد، غير البريء، نفاجأ بخطاب شارون في شرم الشيخ، يؤكدا على يهودية الدولة

العبرية. و هو التأكيد الذي يحمل أكثر من دلالة. قد يكون بمثابة إرهاص لسياسة الترنسفير، و أيضا تذكيرا، بأن الشرق الأوسط عليه أن يقوم على الشرق أوسطية لا على الرابطة القومية العربية و لا الرابطة الإسلامية؛ فثمة دولة يهودية ناشزة عن هذا العالم. الشرق أوسطية هنا، كبديل عن رابطة الوطن العربي أو رابطة العالم الإسلامي؛ قوامها اقتصادي بحت. فتجريد المنطقة عن هويتها الثقافية و السياسية، مدخل للتهويد، بوصفه تقويضا للأمن الثقافي الإسلامي.

* * *

الأمن العربي والإسلامي و فقدان الرادع الاستراتيجي

لا يخفى أن إسرائيل كانت قد أدخلت المنطقة في المشكلة النووية، بعد أن كانت - و يفترض فيها أن تكون - منطقة خالية من هذا السلاح. و يعد هذا السلاح - إجمالا- أحد أكبر التحديات التي تواجه الأمن العربي والإسلامي. لاسيما في إطار الرعاية الأمريكية للتفوق العسكري الإسرائيلي. و بما أن الخطر النووي في الشرق الأوسط يمثل تهديدا بيئيا و أخلاقيا أكثر منه تهديدا عسكريا. إذ أن الشروط الجغرافية و التوبوغرافية لإسرائيل، سوف تجعل من سلاحها النووي عبئا على كيانها. فالتهديد يأتي من التفوق التقني فيما يتصل بسلاح الجو و الرادارات المتطورة و الأسلحة الأوتوماتيكية التي يضمنها اللوجستيك الأمريكي اللامحدود. و في هذا الإطار، فإن السباق النووي في هذه المنطقة أصبح بمثابة ذهان بالنسبة لإسرائيل و للولايات المتحدة الأمريكية التي دخلت حربا لأجل نزع أسلحة العراق، و التي تبين أنها محض أكذوبة استخباراتية أمريكية و بريطانية.. و عليه، فإن العالم الإسلامي لا سيما البلدان العربية هي في حاجة إلى إيجاد رادع بديل عن النووي و هذا أمر ممكن جدا. و قد قدمت الجمهورية الإسلامية في إيران دليلا على أن ما من أمة أرادت أن تقوي جبهتها الداخلية والدفاعية، إلا ووجدت منافذ لذلك. إن الحملة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية اليوم و إسرائيل ضد المفاعل النووي الإيراني، واقع في سياق رهاب سياسي من اختلال ميزان التفوق الإسرائيلي العسكري. و إن إدخال صاروخ شهاب ٣ للخدمة العسكرية، لهو أقوى رسالة في اتجاه خلق الرادع المنطقي للاستراتيجية الصهيونية. بل إن سياسة تطوير الدفاعات الصاروخية هي أهم وسيلة لخدمة الأمن الإسلامي؛ بل قد يكون ذلك جزءا من الأمل المتبقى. إن الولايات المتحدة الأمريكية و إسرائيل لن تقدر على محو العالم الإسلامي من الخريطة. فهو عالم قائم بنفسه لا بها. و من هنا فإن البحث عن منافذ

للقوة أمر سيظل مفتوحا دائما. فالمضايقات على الجمهورية الإسلامية الإيرانية، هي بهدف تقويض " النموذج". و عليه، يتعين على الأمة بكاملها أن تدرك بأن اجتهادها في بلورة استراتيجية للأمن العربي و الإسلامي، هي مسألة نكون أو لا نكون. و في كل الأحوال، فإن على العالم أن يدرك - و في مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية و إسرائيل - بأن لا أمن و لا سلام لعالم، إلا بأمن و سلام العالم الإسلامي!

* * *

من أجل مخطط استراتيجي لأمن عربي و إسلامي فعال

أثبتت غالبية الأنظمة العربية و الإسلامية خلال عقود من تعاطيها مع التحديات السياسية و الأمنية و التنموية، على أنها لا تملك رؤية استراتيجية؛ لا، بل على أنها تخشى أن تبني لنفسها خطة استراتيجية تحمي بها وجودها في ظل التهديدات الصهيونية التوسعية و أيضا التهديدات الأمريكية الراهنة و الفاضحة بالتدخل. و لعل أهم عامل سلبي ساهم في إعاقة مثل هذا المخطط، هو هذا " الاستئناس" اللا مسؤول بواقع التجزئة؛ حيث فشل قوميا و إسلاميا في إيجاد أرضية تضامنية لخلق هذا الرادع الاستراتيجي، بعد أن اقنعوا أنفسهم، بأن الدولة القطرية أصبحت واقعا، لا بل غاية. و ذلك قبل أن تقلب الأوضاع السياسية و الإقليمية الطاولة على هذا المفهوم الخاطئ لكي تصحوا هذه الأقطار على حقيقة مفادها، أن العصر، هو عصر التكتلات العظمى و الاستراتيجيات الكبرى. لم يعد التضامن الإسلامي الذي قامت في طريقه منظمة المؤتمر الإسلامي، " يوتوبيا" سياسية، بل حاجة و ضرورة استراتيجية في عالم يتجه نحو النمط التكتلي. و يمكننا هنا وضع تصور إطار لما يتعين على العالم الإسلامي اتخاذه من تدابير قصد استعادة مسؤوليته في حماية نفسه و تحقيق القدر الممكن من أمنه الاستراتيجي:

لتعلم الأقطار العربية و الإسلامية، بأن حيازة أسلحة الدمار الشامل، فضلا عن أنها اليوم أمر صعب في ظل الرقابة الأمريكية و اتفاقية الحذر التي وافقت عليها جل هذه الأقطار، فهي - مع فرض امتلاكها - لن تفيد في تحقيق الأمن الاستراتيجي الإسلامي. بل قد تكون مصدر تهديد لأمنها القومي إذا تم امتلاكها في ظروف التشتت و التجزئة. و قد رأينا كيف أن امتلاك باكستان لهذا السلاح لم يفد شيئا أمنها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بقدر ما أفادتها مناورتها السياسية. بل إن حيازة إيران على صواريخ متطورة كان أكثر تأثيرا من الناحية الأستراتيجية من امتلاكها للنووي.

إن غياب التفكير في خلق جسور التواصل و التعاون الاقتصادي و التجاري و الثقافي بين أقطار العالم الإسلامي، له تأثير سلبي على تضامنها السياسي و الاستراتيجي. و بما أن العالم اليوم لا يقبل الفراغ على صعيد التكتلات الاقتصادية و التجارية، فإن غياب اتحاد عربي - إسلامي أو سوق إسلامية مشتركة، سيفتح الطريق أمام نجاح شرق أوسطية، ما يجعل الأمن العربي و الإسلامي، في منتهى الحرج!

تصحيح الأوضاع الداخلية، و إيجاد هامش حقيقي للحريات و تقويض الاستبداد و الشمولية، لأنها هي العنصر الأكثر تهديدا للأمن العربي و الإسلامي. و قد قدم النظام العراقي الشمولي المخلوع، درسا حقيقيا إلى الرأي العام العربي و الإسلامي و إلى نظمهم أيضا، على أن مآل الديكتاتورية و الاستبداد و سياسة القمع و التسلط و المقابر الجماعية، لا يحمي هذه النظم من دورة التغيير. لقد تبين أن نظام صدام حسين الوحشي، بافتقاره إلى الرصيد الجماهيري، عجز عن الدفاع عن أمنه الوطني أو القومي أو الإسلامي. فوجود هكذا نظام ناشز في دمويته و إرهابه سبب إرباكا للمنطقة و للجيران و للشعب العراقي. فكانت الديكتاتورية العراقية سببا في سقوط بغداد تحت جزمات المحتل الأمريكي.

ليعلم العالم العربي الإسلامي، بأنه يملك من المقومات ما من شأنه إيقاف أو دحض التآمر الأجنبي. إن الدعم الأمريكي لإسرائيل لن يدوم طويلا. وإن زهو الإمبراطورية الأمريكية وشهر عسل الإستكبار، لن يدوم طويلا. و بأن إسرائيل لا تملك مؤهلات خوض حرب نووية مهما كدست من أسلحة الدمار الشامل. فذلك مدعاة لإنهاك ميزانها العسكري و أيضا تهديدا لأمنها البيئي و الاقتصادي. و حتى لو دعى الأمر إلى إقدامها على ذلك، فهذا يعني نهايتها وانتحارها، لأن خطة عسكرية لدول المواجهة، يمكنها من الإجهاز على منابع هذا التهديد النووي قبل أن تأتي على دولة

عربية واحدة. و هذا كفيل بأن يعيد الثقة إلى العالمين العربي و الإسلامي، بأن قدرته و قوته، هي في جغرافيته و ديموغرافيته و في تقوية جبهته الداخلية و العسكرية التقليدية؛ فهذا من شأنه تحييد التهديد النووي.

في ضوء هذا التصور الإطار يمكن أن تندرج جملة من التفاصيل التي قد تجعل الأقطار العربية و الإسلامية، على عتبة القناعة التامة باستئناف مشروعها النهضوي و التنموي؛ ذلك المشروع الذي لا ينفك بأي حال من الأحول عن أمنها الإستراتيجي !

(٢)
من تداعيات الانتصار
نهاية عهد استراتيجيا المغامرة بالحرب..

"إذا كنا نريد أن تستجيب دول العالم لسياستنا، فلا بد أن تختار السياسة التي يريدونها. هذه المعادلة تفرض على الولايات المتحدة القيام بدور متفرد: أن تربط نفسها بما هو في صالح العالم. وسوف نكون الرابح الأكبر إذا فعلنا ذلك".

جورج سوروس

يتعين على المراقب للأحدث العاصفة بمنطقة الشرق الأوسط أن لا يقع في فخ التجزيئية المغرضة. تلك كما لا يخفى هي الأسلوب المفضل لدى صانعي الأوهام السياسية التي يراد لها تخدير عقول أبناء المنطقة لتمرير أقصى حد ممكن من مشاريع السيطرة. ندرك أن مجال السياسات والاستراتيجيات لا يستجيب لسؤال الأخلاق. وسيكون الأمر واضحا إذا وضعنا في الحسبان أن منطقة، كمنطقة الشرق الأوسط، خضعت لأبشع أشكال التدخل والاحتلال، يجب أن يعدم فيها هذا السؤال مرتين. غير أن هذا لا يمنع أن يسلب من العقل السياسي القدرة على رؤية الأشياء في شموليتها وسياقاتها، حيث هناك فقط نستطيع ضبط إيقاع التبادل الوظيفي بين عناصر الحدث وكذا امتلاك الرؤية الحقيقية والقدرة التفسيرية التي تجنب الرأي العام الغفلة عن تدبير مصيرهم السياسي. إذا كانت تداعيات هزيمة حزيران أن أكسبت الأمة وعيا سياسيا هزيلا واستسلاما منقطع النظير لكل الأوهام التي شكلت العقل السياسي لما بعد النكسة، فإن بوادر وعي سياسي جديد كان هو أهم حدث

لما بعد انتصار حرب تموز. إنه حتما وفي شروط تاريخية لا يهم أن نستعيد كل الحقوق في هذه الحرب العدوانية. لكن ثمة ما هو أهم وضروري استعادته: إنه العقل العربي.

لم تكن حرب تموز حربا غير مخطط لها مسبقا، ولا هي مفصولة عن استراتيجيا شاملة توافق عليها طرفا المؤامرة. فالولايات المتحدة هذه المرة زجت بإسرائيل في مغامرة غير مضمونة العواقب. ولأول مرة تم اصطياد العقل الصهيوني واستدراجه في فخ سياسة أمريكية حمقاء. ليس عدم اكتمال مخطط الغزو والعدوان هو المسؤول عن هزيمة إسرائيل، هذا الكيان الذي قام على عقيدة قتالية منذ نشأ وسيظل كذلك حتى نهايته، بل إن مصدر الهزيمة هو الحساب الخاطئ للوعي المقاوم باعتباره خرج عن حدود تلك الفرضية التي فرضت على المنطقة : هو أن العقل العربي مهزوم إلى الأبد. إنها بالنتيجة حربا سيكولوجية انتصرت فيها المقاومة، ويجب أن ننظر إلى حجم الخسائر والأرباح في هذا المربع السيكو ـ حربي الذي جعلنا نجزم بأن اسرائيل وإن كانت لا تزال تتمادى في عدوانها الجبان، فإنها من الناحية السيكولوجية هزمت شر هزيمة.

إن الحرب وتداعياتها هي تجلي لسياسة أكبر من إسرائيل وأكبر من لبنان، بل هي حرب على نظام دولي وعلى مضادات المشروع الشرق أوسط الكبير. وإذا كانت المقاومة قد هزمت إسرائيل بوصفها رأس حربة المشروع، فلا نغفل تداعيات ذلك الانتصار على المستوى الدولي وعلى المدى البعيد. إن الانتصار الأخير يجب النظر إليه بحجم المشروع الذي تم إحباطه، لذا لا زلنا نرى أن المقاومة كانت أكبر بحجم ما أحبطت لا بحجم ما هزمت. إنها وضعت سياسة التدخل الأمريكي في وضعية حرجة. وفي العالم العربي لا يتطلب الأمر منا معجزة لفهم ما جرى. يتطلب الأمر ـ وإلا فهو عمى الألوان ـ حدا أدنى من البصر لرؤية الأشياء كما هي. كما يتطلب منا ـ وإلا فهي الوقاحة ـ حدا أدنى من البصيرة حتى لانقع في تفاهة العناد.

تفكيك النموذج الإرشادي لسياسة التدخل الأمريكي

ليس أيسر على القوى المهددة للسيادة والخارقة لقواعد المنتظم الدولي في مواجهة خيار المقاومة إلا التذرع بورقة الإرهاب التي أكسبتها الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام منزلة النموذج الإرشادي لتفسير كل الأحداث والسياسات التي تشهدها اليوم العلاقات الدولية. ذلك لأن جل النماذج التي قدمها خبراء أمريكيون طيلة العقدين الأخيرين على رجع صدى التحدي الكاسر لصمت الفراغ الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، لم تكن كافية لتفي بالغرض، من حيث أنها لم تقدم مخارج واقعية وعملية لهذه اللعبة الاستبدالية لملأ مكان المنافس السوفياتي. إن أطروحتين من طراز نهاية التاريخ للخبير الأمريكي فرنسيس فوكوياما أو صدام الحضارات للخبير الأمريكي هينتنغتون، قدمت أفكارا فلسفية وثقافية وأحيانا حقائق لا تصلح إلا للتحليل لا إلى أفكار قابلة للأجرأة دونما تحدي حقيقي من المنتظم الدولي. إن اختبار ردات الفعل بعد طرح الفكرتين، أكدتا بما فيه الكفاية على أن لا جديد تحت الشمس قابلا لإحداث هزات في النظام الدولي. فنهاية التاريخ وصدام الحضارات، أثارت ردود فعل من داحل الكتلة الغربية نفسها ـ نذكر الرأي العام الأوربي وجزء مهم من الرأي العام الأمريكي وكذلك دولا وهيئات سياسية في أوربا بالاضافة إلى الاتجاه العام للسياسة الأممية ـ أكثر منها في العالم الثالث وتحديدا العالم العربي والإسلامي. وهي فضلا عن أنها عصية الأجرأة في إطار السياسة الدولية، توحي للبعض بالكثير من هواجس النزعة العرقية والتفاضلية التي تهيمن على الثقافة السياسية الأمريكية. ومثل هذا البارادِيغم يصلح للتفسير لا لإحداث التحول المطلوب في منظور العلاقات الدولية وعلى صعيد صناعة الحدث. الإرهاب، هذا المفهوم الذي سعت القوى العظمى اليوم على طرحه على غموضه ليبتلع بوقاحة وبتعسف مفهوم المقاومة نفسها مهما بدت شريفة ومشروعة، كان هو البارادِيغم الأنجع

الذي إن لم نقل أنها كانت ضالعة في رسم سيناريوهاته واستثماره أيما استثمار. فجأة وجدت الأمم المتحدة والهيئات الدولية والقوى التحررية في العالم نفسها أمام انزياح خطير يسعى إلى إحداث القطيعة التاريخية مع كل قيم التحرر الوطني التي كانت هي المؤسس الرئيس للوضع الدولي الراهن قبل حدوث الردة الدولية، ليصبح الإستعمار أمرا يجري به العمل في صمت و تحت رعاية واعتراف الأمم المتحدة، ولا يزال اليوم يهدد الكيانات السياسية ويمارس ضعوطه الامبريالية والمزايدة على استقلالها وسيادتها. وقد ظهر على إثر هذا التحول الكبير في حسابات وموازين العلاقات الدولية التي جعلت الشرق الأوسط استثناء لكل أشكال الانتهاكات السافرة للقانون الدولي والأعراف الدولية، ظاهرة أخرى شكلت ثنائيا في لعبة يتجادل فيها عنصر الحصار والتبشيع للمقاومة، أعني ظاهرة الإرهاب التي باتت تكمل فصول مسرحية جديدة لتسديد أكبر ضربة قيمية لشرعية المقاومة وأخلاقياتها. من هنا باتت المقاومة المشروعة تواجه هذا التحدي المزدوج الذي لا يزال يشد الخناق عليها في تكامل أدوار تفضحه الحسابات الموضوعية المشتركة بين الإمبريالية والإرهاب، حيث باتت المواجهة اليوم لوجهين من التحدي المحدق بالعالمين العربي والإسلامي.

فماذا نعني بالإمبريالية الجديدة والإرهاب والمقاومة.. وما الذي يجعل المقاومة مشروعة أو غير مشروعة.. وما الحد الفاصل بين المقاومة والإرهاب.. وما هي آفاق المقاومة في ظل تحديات الامبريالية الجديدة.. وما المطلوب من المقاومة لكي تستجيب لهذا التحدي في عالم متغير.. وهل بإمكان المقاومة أن تساهم في محاصرة الإرهاب.. وهل بمقدور المقاومة أن تغير من الحسابات الدولية وتؤثر في القانون الدولي والعلاقات الدولية.. وهل ثمة من يستطيع القول أن للمقاومة تاريخها النموذجي وأنها اليوم لم تعد ناجعة مع التحولات التي شهدها العالم لا سيما بعد انهيار الاتحاد

السوفياتي.. ما مستقبل المقاومة، وما هي مجالاتها .. وماذا بعد المقاومة؟

علينا أن لا ننكر هذا التناقض الكبير الجاثم على صدر المنطقة العربية والإسلامية، لا سيما في الشرق الأوسط. فهذه المنطقة كانت قد اتسعت إلى أبعد من الثنائية الحصرية لمنطق الاستعمار والمقاومة. بل إننا نعيش اليوم لحظة عارمة من التشويش بفعل تعقد المجال وتشعب مشكلاته وتقاطع المصالح والنفوذ في هذه المنطقة التي لم تعد تتحمل ثقل هذا السباق الدولي الخفي على المحاصصة النفطية التي لا ندري هل هي حقا نعمة أم أنها نقمة على شعوب هذه المنطقة. ولعله من المفارقة أن نتيجة التهديد للمنطقة يكون في صالح زيادة برميل النفط، ما يفيض على خزينة هذه الدول .. فالتهديد يكون تهديدا سياسيا لكنه يشكل طفرة نفطية جديدة[1] !؟ إنها منطقة تتسع اليوم لتفاعل ثلاثية الاستعمار والإرهاب والمقاومة. وكل واحدة من هذه المشاريع تحمل بين طياتها أجندة خاصة ورهانات مختلفة، كما أنها تستند إلى مسوغات سياسية وأخلاقية وأيديولوجية في إحراز مشروعيتها أمام الرأي العام، سواء المحلي أو الدولي. وهاهنا تحديدا تدور رحى المعركة الإعلامية الحادة، والتنافس في إحراز الشرعية. ومن هنا سوف يتأطر حديثنا عن تفاعل الثلاثية المذكورة.

هل تملك القوى العظمى منطقا يسوغ أمام الرأي العام المحلي والدولي لا جدوائية المقاومة؟

* * *

(١) كان من المفترض أن يخصص جزء من مداخيل الريع النفطي الذي شهد ارتفاعا ملحوظا إبان العدوان الصهيوني على لبنان، ليس لدعم المقاومة التي وفرت عناء التموقف العربي الرسمي إلى جانب المقاومة بدعوى استغنائها وتفردها التاريخي بمواجهة العدوان، بل لإعادة إعمار لبنان والنهوض ببنيته التحتية. ذلك لأن المقاومة لم تفعل فقط أنها منحت للموقف الرسمي العربي هامشا لاستعادة دوره الذي تم إلغاؤه نهائيا قبل الحرب، بل سببت انتعاشا اقتصاديا من خلال ارتفاعا مداخيل الريع النفطي!

المسوغ السياسي

في كل حروبها، لم تبدل الولايات المتحدة الأمريكية ولا حليفتها إسرائيل كبير جهد لإقناع الرأي العام الدولي ومؤسساته المعنية، بتمام مشروعية ما تقدم في سياق سياسة التدخل. ولكنها في الوقت ذاته تبقي على شعرة معاوية مع المنتظم الدولي، ولو على أساس: صدق أو لا تصدق. تدرك الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، بأن خرقها للقوانين والأعراف الدولية واحتقار الارادة الدولية قد يؤدي إلى نتائج تعود سلبا على مصداقيتها ومصالحها. ومن هنا فإنها تلجأ إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي متى لم يعد في جعبتها ما تقدم عليه على أساس التجاوز السافر للشرعية الدولية[١]. هذه المناورات المفضوحة والالتفاف على الشرعية الدولية لعبة قديمة/ جديدة، وستظل كذلك ما بقيت القوة جابرة لهذا الخرق المستدام للقوانيين الدولية. إن قوى الاحتلال اليوم تسلك من خلال القناة الدولية وبفعل المناورات التي ترهن الأمم الفقيرة لبيع أصواتها للدولة العظمى لانتزاع قرارات تعزز سلطة الفيتو واحتكار القرار الأممي، حتى وإن لم تكتمل الشروط القانونية لمشاريعها العدوانية. ترمي الولايات المتحدة الأمريكية برزم كبيرة من المعطيات والحقائق المضللة، وتخلق في المجال المستهدف وبفعل مناوراتها وسلطة إعلامها الواسع الانتشار، نوعا من الفوضى والاضطراب، لبلبلة الرأي العام، وإدخال العالم في ضرب من الخاووس الإعلامي

(١) وقد بات ذلك واضحا اليوم بعد الهزيمة التي منيت بها الحربية الصهيونية وكذا الهزيمة التي منيت بها الاستراتيجيا الأمريكية في المنطقة. فلقد عاد إلى الواجهة دور الوسائط السياسية لأوربا المستبعدة قبل الحرب، وسوف ننتظر مزيدا من الدور الأممي الذي كان حتى قبل العدوان الصهيوني على لبنان محايدا وأحيانا سلبيا. إن عودة الدور الامممي والوسائط الاوربية هو مؤشر تراجع في الاستراتيجية الأمريكية والصهيونية، وعلامة على إخفاق سيعقبه نوع من التعليق للحلول خلال الفترة القليلة القادمة، إلى حين إحلال خطة جديدة محل مشروع الشرق الاوسط الجديد. الكبير، واستراتيجيا الغزو العسكري.

واللامعنى السياسي. ما يسهل عليها فرض قناعاتها باسم الشرعية الدولية. وتستعمل القوة المحتلة جملة من الشعارات السياسية لتبرير سلوكها العدواني، نظير: الدفاع المشروع عن المصالح القومية الأمريكية، حماية إسرائيل من خطر التهديد بإزالتها من الخريطة، محاربة الإرهاب، وجود أسلحة الدمار الشامل.

والحق، إنه لم يعد في وسع القوة العظمى إقناع العالم بمصداقية هذه الأحجية المكرورة والمملة، بعد أن فقدت سمعتها و مصداقيتها أمام العالم وأمام الرأي العام الأمريكي الذي لا يزال يعيش صراعا حادا بين قواه الحية أمام نفوذ وتحت تحكم اللوبي الصهيوني بقراره السياسي. إننا أمام هذا الواقع الذي صنعته الولايات المتحدة الأمريكية نلاحظ أنها تتراجع يوما بعد يوم، وتكاد تحاصر على الأقل شعوبيا، بأنها دولة شريرة أو شيطان أكبر ما زال العالم يدفع فاتورة كل الحروب التي فرضتها على الأمم الضعيفة منذ أصبحت لاعبا بارزا في المجال الدولي. وهذا يعني أن القوة الامبريالية تتراجع ولا تتقدم في مسوغاتها السياسية. لقد أصبح للولايات المتحدة الأمريكية ثلاث شعارات سياسية نموذجية لفرض اختياراتها العسكرية على المنتظم الدولي: الإرهاب، أسلحة الدمار الشامل، الديمقراطية. وهي كما ترى كلمة حق يراد بها باطل:

* * *

الإرهاب

كان من المفترض بالنسبة للدولة التي واجهت تحديات الإرهاب، أن تكون هي المبادر الأكبر لتعريفه وخلق ثقافة داخلية وخارجية موجهة ضد الإرهاب. ولكن سوف نفاجأ ويا للمفارقة؛ بأنها كانت أكبر معترض على فكرة قيام مؤتمر دولي للتعريف بالإرهاب بما يميزه عن حركة التحرر الوطني. ولا شك أن مؤتمرا كهذا لو قدر له أن يتحقق، فستكون الولايات المتحدة هي المدان الأول بجريمة إرهاب الدولة. لقد خاضت الولايات المتحدة الأمريكية حربها على الإرهاب، أو لنقل تحديدا توظيفها لورقة الإرهاب، بإرهاب شامل نشر الرعب في العالم، بما في ذلك الدول النائية والتي لا تقع في منطقة النفوذ والمصالح الأمريكية. إنها لغة البلطجة في عرائها ووقاحتها التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا. فلقد أبدعت الولايات المتحدة ضربا من الإرهاب الاستباقي الذي يحاكم النوايا ويردم الهوة بين المجرم والبريء. ناشرة الفوضى في الداخل والخارج على السواء، معززة كل مخاوف الداخل من العدو المفترض، والطوفان الذي يتهدد دولة العم سام. تظهر وقائع الأحداث بأن ما سمي بالإرهاب، هو ظاهرة أمريكية بامتياز. فهؤلاء الانتحاريون العرب الذين شكلوا فائض القيمة في أفغانستان، لم يكسبوا كل هذه المهارة على التفجير والتدمير إلا تحت تأطير وكالة الاستخبارات الأمريكية ـ CIA ـ إبان الحرب الباردة. وربما لا يحتاج اليوم أن يتعلم الإنسان فنون الإرهاب والعنف بطبقاته الجهنمية التي جعلت الكائن يلفظ ما هو أبعد من الدم القرمزي ؛ بل أصبح بدله طيفا من الصديد وأحيانا يتبخر الكائن من شدة التدمير، لأنه يموت ملايين المرات في هذا الاختزال الموتى الذي يعبر عنه انقلاب الدم، وتحول الأجسام وانمساخها. تراجيديا الموت الجديد كما تفننت في استعراضه مؤسسة هوليوود، جعلت العقل المعاصر برسم تراجيديا الاستقتال المستدام، إنما هو هو عقل أمريكي

بامتياز. تعلم هؤلاء كما يمكن أن يتعلم كل كائن ينتمي إلى العصر الأمريكي ويدمن ثقافته الإرهابية أن يعتلوا وسائل التدمير، بعنف القتل ومفارقة "جمالية" التدمير بالمعنى الهوليوودي الذي تتيحه الثقافة الأمريكية، لتكون أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي حصدت ألوفا من الأبرياء الأمريكيين والأجانب، رجع صدى صرخة العنف الأمريكي، بملامحه وصورته أيضا. ما حدث اليوم ولا يزال، هو أن الإرهاب يتكرس في ثقافتنا ويجرف معه كل القيم والأعراف الدولية باسم الحرب على الإرهاب. فهل يا ترى الإرهاب هو القتل بغير حق . . وهل الإرهاب هو قتل الأبرياء. . وهل الإرهاب هو الخروج عن النظام والقانون؟ لا يحتاج المراقب البسيط إلى كثير جهد، كي يصل إلى تلك الحقيقة المرة التي باتت محل إجماع كل من يحيى فوق هذا الكوكب بمن فيهم المرتكبون لتلك الجرائم في حق الإنسانية، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية فعلت كل هذا وكانت المصداق الأبرز لكل العناوين الممكنة للإرهاب والحروب القذرة. ولكن يبدو أن ما تبغي الولايات المتحدة الأمريكية ترسيخه من خلال ملحمة الرعب الدولي، أنه في عالم الاستكبار، ليس لأحد الحق في أن يدافع عن نفسه، ولا أن ينازع الكبير في إرهابه. بل عليه أن يستوعب الضربات، وربما عليه أن يبدي متعة الاستسلام بلا ضوضاء. في هذا الاتجاه باتت الولايات المتحدة في خط التراجع في مصداقيتها للحرب على الإرهاب. لأنها فضلا عن أنها بنت استراتيجيتها لمحاربة الإرهاب على محاكمة النوايا، فهي باتت أسيرة سياسة الفوضى البناءة التي لم يعد في مستطاع المنتظم الدولي الاستمرار على الصمت حيالها وإلا يكون الكوكب برمته مهددا بنهاية محتومة. هذا فضلا عن أن الحرب على الإرهاب إنما زادت في وتيرته ومنحت أصحابه مشروعية مضافة، حيث باتت له امتدادات عنقودية في العالم، إلى حد بات أشبه بعدو مجهول وشبح كبير يخيم على الأذهان. وبينما بدلت الولايات المتحدة ملايين الدولارات في تعقب فلول الإرهاب وحصدت أرواحا بريئة وغزت دولا برمتها، إلا أنها

حتى الآن برهنت على عجزها عن أن تلقي القبض على رموزه الذين تورطو في تدمير برج التجارة الدولي وغيرها من الحوادث التي اعترفوا بمسؤوليتهم فيها: أعني أسامة بن لا دن والظواهري. لقد عجزت الولايات المتحدة الأمريكية أن تلقي القبض على شخص واحد، بكل هذه الإمكانيات والمناورات وملحمة الموت الكبرى طيلة سنوات. ترى، هل لا يزال في وسع العالم ما يتسع إلى مزيد من الإرهاب الأمريكي لدول وشعوب كبيرة من أجل وضع حد لإرهاب الجماعات الصغيرة. إن التراجع الدراماتيكي لشعبية الرئيس بوش، وانحسار الدعم الدولي لكل المشاريع الأمريكية وشيوع مناخ التشكيك في مصداقية السياسة الخارجية الأمريكية وانتفاضة الرأي العام الأمريكي وأخيرا انتفاضة الجنرالات الأمريكيين الداعية إلى إقالة رامسفيلد، وانتشار خبر الأكذوبة التي بررت احتلال العراق، والملابسات التي أحاطت بتفاصيل أحداث الحادي عشر من سبتمر، كل هذا جعل الحرب على الارهاب تفقد مصداقيتها وشرعيتها، . ولا يمكن أن يتاح لها عمر أكثر من هذا مهما عززتها الضغوط الامريكية المستمرة ومناوراتها التي مكنتها من حشر أنفها في كل مكان من عالمنا الفسيحوسيصبح الأمر غاية في الوضوح حينما يدرك الرأى العام بأن الدولة العظمى لازالت متورطة في استثمار الإرهاب في الدفع بالفوضى الخلاقة إلى منتهاها حتى لو تعلق الأمر بالتآمر مع الإرهاب لمواجهة المقاومة. وما يؤكد أن ثمة علاقة بنيوية بين الارهاب والامبريالية، أنها في لحظة ما معطاة يمكن أن يحصل هذا النوع من التواطؤ. فتكون المقاومة ليس أنها ضحية الاستعمار فحسب، بل كثيرا ما تكون ضحية الارهاب أيضا. فالمقاومة وحدها من يستعصي على هذا التوضيف، لأنها لو فعلت لم تصبح مقاومة. إن مظاهر الفوضى التي يعيشها العالم العربي والاسلامي اليوم، هي صنيعة امبريالية بامتياز. فالارهاب الذي تقوم به أقليات شاذة في عالمنا ما كان لها أن توجد بهذا القدر من النشاط لو لم تمكن لها قوى الاستعمار كل هذا الدعم. الارهابيون يأتون من عواصم الغرب وهناك

ينسجون مخططاتهم وليس المقاومة التي تعيش بين الناس ويتمسك بها الناس و يفدونها بأرواحهم!؟

* * *

أسلحة الدمار الشامل

تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية شعار أسلحة الدمار الشامل لتبرير سياستها في التدخل. وقد بلغ ذلك حد الهجاس، الذي يستهين بكل الحقائق والمعطيات ليتراوح بين التخيل ومحاسبة النوايا. وبالتأكيد ليس ذلك معناه أن العقل السياسي الأمريكي قد دخل دورة المرض فحسب، بل هو حبل الكذب الذي طال أكثر مما يجب. لقد استطاع المخيال السياسي الأمريكي أن يركب صورة تلاقي أسلحة الدمار الشامل مع الإرهاب يجعل من العدو المفترض، غولا برأسين: أو إرهاب جماعي ترعاه إحدى دول الشر المارقة، والمزودة بأسلحة الدمار الشامل. على هذا الموال عزفت سياسة التدخل واحتلال العراق، قبل أن تجد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها أمام حقيقة عارية، جعلتها تنضم إلى محور أكبر الدول الكاذبة في التاريخ السياسي للنوع. ومرة أخرى يحاول الكذاب أن يعيد استغباء المنتظم الدولي بخصوص سوريا، واتهامها بحيازة أسلحة الدمار، كما لوح دائما قبل أن يعثر على ورقة جديدة لأحكام حصاره وضغوطه عليها في سياق محاصرته لعناصر خط الصمود في المنطقة. غير أن الفصل النهائي، يتعلق بالضغوط والتلويح بالتدخل مرة أخرى في سياق الملف النووي الإيراني الذي أحبط اللعبة الأمريكية في توظيف شعاراتها على الطريقة الفوضوية والغامضة التي لا تلتفت إلى تفاصيل الأجرأة القانونية للمشروع النووي الإيراني، الذي حتى الآن لا يزال يتحرك داخل الشرعية الدولية، ولا يحيد عنها قيد أنملة. ولا ننسى أن التشبث الإيراني بالشرعية الدولية والحق في تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية وتحت مراقبة الوكالة الدولية، لم يكن لينفع إيران، لو لا أنها عززت قانونية مشروعها النووي بمناوراتها العسكرية وجدية أطروحتها، التي أعادت الولايات المتحدة الأمريكية التي فقدت كل مصداقيتها لكي تتذرع مرة أخرى بالشرعية الدولية على أسس لا تزال غامضة وتستند إلى عنصر الضغط

والمناورة. غير أن هذا الحرص الدولي على منع إيران من تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية تحت طائلة فوبيا حيازة إيران للقنبلة الذرية، قوبل بمواقف أمريكية، بلغت حد الإعلان عن حرب نووية ضد إيران، مما يعني أن الدولة العظمى أكدت على أنها اليوم تواجه الإرادات الجادة، وبأنها مستعدة كما فعلت دائما استعمال أفتك الأسلحة المحرمة لإعاقة تقدم هذه البلدان، لتأمين نوع من الميل الفاحش في ميزان القوى لصالح حليفتها إسرائيل. وكان من المفترض، أن يتحرك المنتظم الدولي ضد هكذا قرارات تستخف بالكرامة الإنسانية، حيث بات واضحا أن الولايات المتحدة التي لم تعتذر اعتذارا حقيقيا على جريمتها النكراء في هيروشيما و ناكازاكي، بأنها مستعدة لكي تعيد التاريخ المعاصر إلى بدايته المرعبة. يحدث هذا كله، في حين أن الدولة العظمى التي تملك أكبر احتياطي من أسلحة الدمار الشامل وبتاريخ درامي في استعماله وحماية المشروع النووي الإسرائيلي، هي نفسها التي ترفع شعار التدخل لمنع أسلحة الدمار الشامل. أمام هذه الازدواجية التي باتت مهضومة على مضض ومفضوحة كفاية، لم يعد في وسع الولايات المتحدة أن تستند إلى هذا الشعار في فرض سياسة التدخل من دون أن يكون ذلك خرقا سافرا للقانون وبالتالي تعريضا بمصالحها وعزلتها عن العالم.

* * *

الديمقراطية

قصة أخرى دخلت دورة الملل . . بل لعلها الملهات الجديدة التي اكتملت فصولها وبان عوارها بعد أن ظل ثاويا بين السطور : إنها ملهات دمقرطة الشعوب، وتبرير سياسة التدخل والاستعمار، بألف ليلة وليلة من أكذوبة نشر الديمقراطية في العالم العربي والاسلامي . كان شهريار العربي ينام دون أن يقدر له سماع النهاية . وبعد كل هذا العمر من حكايات شهرزاد الأمريكية، جاءت الولادة، ولم يعد في وسعد شهريار أن يتصرف بعد ثقل الولادة وشروطها؛ لقد غرق العالم العربي في الاحتلال والقواعد الامريكية والالتزامات والمعاهدات والبقشيش و الديون الامريكية . . لم يعد في وسع شهريار إلا أن يعانق شهرزاد على علاتها ويغفر لها أكذوبة ألف ليلة وليلة وكل هذا السهر الكاذب الذي ذهب هدرا و جزافا!

* * *

المار كوتين الديمقراطي والاستثمار في البؤس

طيلة العقود السابقة، وتحديدا إبان الحرب الباردة، حدث نشاط منقطع النظير للحروب القذرة التي استبسلت فيها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد شكلت لعبة الانقلابات العسكرية والاجهاز على الديمقراطيات الناشئة واحدة من ابرز متطلبات الاستراتيجيا الامريكية. مثل ذلك حدث في امريكا اللاتينية وافريقيا واسيا، والعالم العربي.. وضعت الولايات المتحدة كل امكاناتها الاستخبارية في الحؤول دون دمقرطة العالم الثالث، وحيث بات كافيا ذلك القدر من ذهاب واياب الراسميل بالقمار والاستثمارات اللامشروطة التي لا تزعجها أي سياسة اجتماعية، تعويضا عن الديمقراطية. نجحت الولايات المتحدة في خلق هجين رأسمالي متوحش يعيش في قلب القذارة الكومبرادورية لمجتمعات توقفت فيها مسارات التنمية، مستكفية بكرنفال الرأسمالية الديكتاتورية.. او رأسماليات حكومات العسكر او الحزب الوحيد.. راسماليات الكازينوهات والقمار والمخدرات واستغلال البؤس المحلي والفساد الاداري والسياسي .. كل ذلك كان يتم برسم مكافحة الشيوعية ومحاصرة المد الأحمر. حينئذ بات واضحا أن الولايات المتحدة الأمريكية شكلت بعبعا مرعبا للشعوب التواقة الى الحرية والديمقراطية والتنمية والعدالة الاجتماعية. اقترنت الحروب القذرة الامريكية بمظاهر الحصار والتجويع المستمر للمجتمعات ودعم الديكتاتوريات والفساد السياسي في العالم الثالث. لقد حمت الولايات المتحدة الامريكية نظما فاسدة وغضت الطرف عن كل الفظاعات التي ارتكبت في حق مناضلي العالم الثالث. ولم يكن أي نظام فاسد يملك يومئذ قدرة على البقاء الا بواسطة العنف العاري و رفع مستوى القمع السياسي وفساد الطبقة السياسية. وطبعا كان ذلك في ظل حماية الولايات المتحدة الامريكية، حيث كان يكفي الاعلان عن مجرد الانضمام الى حلفها لابادة شعب باكمله دون محاسبة. ولذا ما كان للولايات المتحدة ان تحتج عن مئات الابادات الجماعية التي قام بها ديكتاتوريون

ومجرمي حرب موالون لها، مثل ما حدث في تشيلي او ان دونسيا او العراق او... او.... فما الذي تغير اذن؟ في نظر هينتنغتون ان النموذج تغير، وآن الاوان ان ننخرط في نموذج ما بعد الحرب الباردة التي انتهت وانتهت معها جملة من قواعد اللعبة في السياسة الخارجية الامريكية. ومع ذلك يبدوا ان امريكا خططت كثيرا للدخول في المرحلة الجديدة عبر مرحلة انتقالية، هي تغيير جبهة التحالف، وربط العلاقة مع الشعوب.. لكنها العلاقة التي مرت بفترة انتقالية لترويض هذه الشعوب وتدميرها من الداخل، باطلاق العنان لجرائم الديكتاتوريين وايضا بالحصار الاقتصادي الذي انهك شعبا مثل العراق وجعله يرتب أولوياته بصورة تسقط في حساباتها أولويات أخرى كالسيادة الكاملة والاستقلال الكامل .. السلاح الذي يبدوا اليوم ابتكارا امريكيا، هي شعوب انهكها الجوع والتخلف والقمع والحصار، يجعلها تقبل بالحد الادنى من الانخراط في الكرنفال الديمقراطي، والقبول بحرية الثرثرة و داخل مؤسسات ودول مرتهنة للالتزامات وبنود واتفاقات تجرف حقها القومي والوطني والحضاري والاستراتيجي. إنها لعبة تسعى لرهن الاستراتيجيا المحلية للاستراتيجيا الكبرى للدولة العظمى بمعاوضة ديمقراطية ممسرحة كما لا يخفى.. يتسائل المراقبون عن سبب إصرار الخارجية الأمريكية على سياسة الكيل بمكيالين حيث لم يعد ينفع الاحتجاج ولو زفت كل الادلة، فلا حرج حتى لو اصبح المدعي هو الامم المتحدة نفسها. فالحالة الكرنفالية للبدائل التي يصنعها الخيال الامريكي في الخارج، تستمد حيويتها من الحالة الكرنفالية نفسها التي حكمت ولا زالت تحكم الشخصية الامريكية والمتخيل الامريكي. فما تأتي به الحداثة بمنطق التاريخ وقيود الجغرافيا، هو أمر ممكن وبأي ثمن. الحداثة المتوثبة القائمة على التحدي والمغامرة والتهور الذي لا يزال يزعج أوربا التي مهما استنكرت من هذه الروح الامريكية، فإنها ستظل تلك العجوز التي لم يعد بامكانها، ليس فقط التقدم على الطريقة الامريكية، بل لم يعد بامكانها الدفاع عن نفسها وحداثتها أمام زحف البربرية المتربصة

بالعالم الحر، في نظر المحلل الامريكي.

يقوم هذا الاختراع الأمريكي الجديد ؛ ديموقراطية الإجهاز على المكتسبات الوطنية وديمقراطية الإجهاز على السيادات والاستقلالات أو لنقل دمقرطة الديكتاتورية، بمنحها جمالية الواجهة مع الاحتفاظ بالقمع الداخلي الممنهج، من منظور استراتيجي يستند بدوره على نظرية المباريات، وجدل الـ " ماكس ـ مين" والـ "ميني ـ ماكس"، كما يفرضه فارق الربح بين الديكتاتورية العارية وبين الديمقراطية المغشوشة. وليس أمام الدولة العظمى وفي سياق الفوضى البناءة، أو بالأحرى فوضى العماء واللامعنى، سوى تصعيد سياسة الاستثمار وتوظيف رعب الجماهير من سطوة الديكتاتورية العارية وقسوة الحصار للقبول بالكرنفال الديموقراطي المغشوش والممسرح على حساب موقفها الاستراتيجي، ورهاناتها الحضارية. ومع ذلك، بدا عرس الديمقراطيات برسم الاحتلال الأمريكي، يواجه الباب المسدود ويفضح اللغة الأمريكية المنسية وراء خطاب التضليل وسياسة الواجهة. لقد قدمت فلسطين البرهان الأخصر على أن الولايات المتحدة الأمريكية لا زالت مستعدة لتجويع شعب بكامله للرجوع عن إرادته السياسية في الانتخاب الحر لحكومته. وبإلامكان أن يعاقب الشعب الفلسطيني اليوم ويحاصر جوعا تماما كالعراق، وليس الفارق في المقام، سوى أن الحصار هنا عقابا لديكتاتورية صدام حسين، وحصاره هناك عقابا لديمقراطية الشعب الفلسطيني. ولا ندري يا ترى إن كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد احتلت العراق من اجل تخليص الشعب من الديكتاتورية وبناء الديمقراطية في العراق، فهل ستفكر ان تحتل أو تنيب عنها إسرائيل في احتلال الشعب الفلسطيني لتخليصه من حكومته المنتخبة وبناء ديكتاتوريته على أعقاب ديمقراطيته المجهضة.. تلك هي المسألة!

* * *

المسوغ الأخلاقي

لم تتخل الولايات المتحدة الامريكية عن شعارها الاخلاقي، حتى وهي تحصد الارواح البريئة بالجملة. إنها الرسالة التي وجدت في أحلام الانجيليين الجدد ما تدعم بها ساديتها ونزوعها التدميري للنوع. هذا الاستعجال التدميري والتمهيد لآرماجيدون، وتحمل رسالة المخلص هو ما حدى بجورج بوش الابن لتقسيم العالم إلى فسطاطين، وإعلانها حربا صليبية ضروس. إنه الخيرالمطلق في مواجهة الشر المطلق. ومسؤولية عالم أهورا مازدا في مقارعة عالم أهرمن. على أساس هذه الثنوية الماجية المطلقة، أصبح العالم كله تحت نار ملتهبة، وفي اتجاه العماء السياسي في العلاقات الدولية. غير أن هذا المسوغ لم يمكن الدولة العظمى من النجاح في إقناع الرأي العام الوطني والدولي، بل لقد أضافت إلى سجلها الأسود المليئ بالأكاذيب السباسية، فضاعات أخلاقية، كانت حمامات الدم في العراق وأفغانستان وما تفعله اسرائيل في لبنان و فلسطين، اللمسة اللاأخلاقية الأخيرة على صورة تقطر دما وفضائح، ومرة أخرى: صدق أو لا تصدق. فسكر القوة يقلب المعايير ويزرع الشك في عقول الضعفاء ومعذبي الأرض. كشفت فضائح أبو غريب عن فساد الضمير الأمريكي، وعن الأخلاق الأمريكية العالية، وعن رسالة الخير التي قدمتها للعراق. كما عبرت الدولة العظمى في تجري خطير عن رغبتها في استعمال أسلحة نووية ضد إيران، هذا ناهيك عن أكثر من عقد من الزمان من حصار المجتمع العراقي وتجويعه وتدميره. كل هذا مشهود ولا يحتاج إلى كثير شواهد. وهذا هو الدليل عينه ؛ أننا لم نعد في حاجة إلى شواهد في المقام. غير أن المسوغ الأخلاقي الذي تستند إليه الدولة العظمى لا يمكنه أن يستمرأو يخدش في شرعية وجدوائية المقاومة، لأنه مسوغ مبني على سياسة الكيل بمكيالين، وهو اليوم يضع الدولة العظمى وسياستها في منطقة الضوء أمام شعبها وأمام العالم. وعلينا أن نستمر في

الحديث عن الشعب الأمريكي المغلوب على أمره، لأنه وإن كان مجتمعا ديمقراطيا وحرا، إلا أنه في السياسة الخارجية، تراه مضطرا إلى الاذعان، بسبب التجهيل الممارس في حقه وفوضى المعطيات التي يزوده بها إعلام متحيز ومحكوم بوجهة نظر اللوبي المهيمن. بالاضافة إلى طبيعة الدورة الاستهلاكية وطريقة العيش الامريكي التي تجعله يعيش في عزلة عما يجري في الخارج إلا من خلال الصورة النمطية التي يقدمها الاعلام المتحيز وما يبتغيه اللوبي المهيمن. فإلى جانب ضحالة المسوغ الاخلاقي لسياسة التدخل الأمريكية، هناك ضحالة المسوغ الديني المعزز للمسوغ الاخلاقي، والذي حاول الرئيس الامريكي أن يوظفه لاستثارة العصبية الدينية الغربية في وجه العالم الاسلامي. ليس مرد ذلك إلى ضحالة هذا النوع من التوظيف الرجعي الذي يسعى لاحياء تاريخ غربي ماقبل الثورات الحديثة فحسب، بل لاستحالة تحقق هذا المسوغ، وخطورته مهما تضخم في أذهان حفنة شاذة من صناع الموت العبثي في عالمنا المعاصر. بل لأنها مجرد إصرار ساذج على خوض حرب صليبية لا يمكن أن تعبر عن نفسها سوى في مخيال بائس.. ذلك لأن الإعلان عن حرب صليبية أمر مستحيل بمنطق التوازنات القووية التي تفرض على الدول مهما بلغ اقتدارها العسكري حدا من الاحساس بأن العالم لم يعد يقبل بالفوضى حتى في مفهومها المتخيل شأن الفوضى البناء. إ ن حربا صليبية ستكلف العالم تبعات فوق طاقة الكوكب نفسه. وهي بهذا المعنى كارثة عالمية، جميع أمم الأرض معنية بها. إن حربا صليبية متخيلة في الأذهان الساذجة كما تعبر بعض الأفكار/ النشاز في الغرب الذي يغرق في مزاجية خارج ـ دينية لم تعد تملك ذلك القدر من الوفاء لدينها، معناه استعمال آخر احتياطي نووي ؛ إبادة أمم بكاملها واجتثات صبغياتها وجيناتها المورثة. ليست الحرب الصليبية اليوم لعبة كلمات، حتى وإن كشفت عن خبث النوايا بأشكال تعبيرية خفيظة وأحيانا هوجاء، فهي أتفه سيناريو يمكن أن يقع. ما الذي تملكه امريكا والغرب كله لاعلان هذا اللون من الحروب..

وما الفارق بين الحرب الصليبية الكلاسيكية والحرب الصليبية المتوقعة؟ وما هو وجه الاستحالة في ظل الشروط الراهنة . . إنها قصة خيال فقير، وعصر " ولدنة " القرار الامريكي، وغياب الرشد السياسي.

* * *

المسوغ الأيديولوجي

منذ قيام الدولة العظمى، كان الخيال الامريكي قد أخذ في إبداع كبرى الايديولوجيات المسوغة للتدخل وإرهاب الدولة، وأشد الايديولوجيات هشاشة من ناحية المعقولية. لكن عمر تحقق الاحلام الصغيرة للدولة العظمى، كان مشروطا باستمرار التفوق العسكري ليس إلا. لكن غداة سقوط الاتحاد السوفياتي، نشط الخيال الأمريكي مرة أخرى ليكشف عن أطاريح ومشاريع وأفكار، شكلت منعطفا جديدا جاء ليعزز هذا الانتصار الكبير الذي لزم عن انهيار دراماتيكي للمعسكر الشرقي. منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي، طفى على المشهد ثلاث أطروحات أيديولوجية، اثنان لخبيرين أمريكيين هما صامويل هينتنغتون وفرنسيس فوكوياما، تحدث أحدهما عن الصراع بين الحضارات والثاني عن نهاية التاريخ. هذا في حين نشطت أيديولوجية أخرى، أعني الايديولوجيا الانجلية للمحافظين الجدد. ففي أي خانة يا ترى يمكننا وضع السياسة الامريكية اليوم؟

ليس في وسع أحد من هؤلاء أن يدعي استئثاره بالمشهد بوصفه ملهم الأيديولوجيا المؤسسة اليوم للسياسة الخارجية الامريكية، بعد أن تبرأ كل من هينتنغتون وفوكوياما من مسارات وتداعيات السياسة الخارجية الامريكية. والحق يقال، أن الأيديولوجيا المؤسسة للسياسة الخارجية الامريكية ليست بسيطة بل هي مركبة. وإنها لا تحتفظ بوفاء كامل لإحدى هذه الايديولوجيات المتضاربة، بل إنها استطاعت استنادا إلى مخيالها المولع بالمفارقة، أن تركب أيديولوجيتها الخاصة استنادا إلى العناصر ومكونات الايديولوجيات المذكورة. وهكذا يمكن للقارئ لمسارات وتداعيات السياسة الخارجية الامريكية ومجمل خطابات مسؤوليها أن يقف على هذه العناصر أشتاتا مما يوحي بأن العقل السياسي الامريكي بات اليوم في وضع الالعبان الذي يتأرجح بين رهانات ومديات ثاوية بالجملة في الايديولوجيات الثلاث. بمعنى

آخر إنك تقف على ظلال نهاية التاريخ وظلال الصراع بين الحضارات وظلال من أحلام هرمجيدون. . وسوف نقف في كل هذه المكونات على أن هذه المسوغات وإن ظلت مرفوضة من قبل العالم، بما في ذلك الغرب نفسه، سنكتشف بأنها لا تتحمل في طياتها مشروع إبطال مشروعية المقاومة.

* * *

صدام الحضارات ونهاية التاريخ:
أيديولوجيا الإنسداد أم انسداد أيديولوجيا

هل هو صدام بين المركز والهامش أم صدام بين حضارات؟

لسنا في وارد اختبار هذه الأطروحة التي تحمل في طياتها الجواب الممتنع عن سؤال فقد موضوعه. فلا يوجد في الرؤس سوى نزوع باتجاه نمط حضاري واحد هو حضارة الانسان المعاصرة. وثمة على كل حال قوى تتصارع من داخل الحضارة وعلى هامشها للاستئثار بروائعها وحرفها باتجاه أجندة الأشرار. هي قصة استكبار عالمي وليس قصة حضارات تتصارع، لأن الحضارات لا تتصارع، لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن أن تعيش على الارض إلا حضارة إنسانية واحدة تظلل هذا الطيف الكبير من الثقافات.

ككل المفاهيم والاطاريح التي باتت هذه الايام تتساقط فوق الرؤوس، جاءت أيديولوجيا الصدام بين الحضارات، لكي تؤدي وظيفة شحن الرأي العام وتنبيه الطبقة السياسية لامر جلل قادم لا محالة، وهو يتهدد كيانا صورته المقولة الهنتنغتونية كحضيرة من الحملان المذعورة من ذئاب ما فتئت تتناسل على خلفية الصدام في خطوط الصدع الذي تفنن هينتنغتون في تخيل خرائطها وتكهن تخومها الدموية المرعبة. يدافع هينتنغتون عن الغرب ككيان واحد، محكوم بنمط واحد ومصير مشترك. فلكي نحمي الحدود الطبيعية للغرب الذي يشكل في نظر هينتنغتون حقيقة جغرافية وثقافية وسياسية وتاريخية، فما علينا الا ان ننبه بعض اطراف الغرب الذي تظهره المقاربة الهنتنغتونية غربا متمركزا على نواته الانغلوساكسونية، للانضمام لجبهة التحصن الغربي، بقطع كل الروابط التي من شأنها تهديد الوحدة السياسية والثقافية والتاريخية للغرب: الغرب الفريد المستحيل استنساخه الا عبثا. سقطت ادلوجة الصدام بين الحضارات فوق الرؤوس، وتفاعل معها العالم بصيغ واراء وتعبيرات مختلفة. وبينما كانت الادلوجة الهنتنغتونية تقدم الغرب ككيان مذعور،

سرعان ما اعتبرها البعض تهديدا للعالم وتحريضا للعنف الامريكي تجاه الاغيار. وكانت تلك هي اكبر الاخطاء والمغالطات التي وقع فيها القارئ العربي وغير العربي حتى للادلوجة الهينتنغتونية الغارقة في فوبيا الآخر، وبوصفها رسالة تحريض للانزواء الحضاري الغربي، والكف عن سياسة التدخل التي هي مقدمة الواجب الهينتنغتونية لحماية الحدود الطبيعية لغرب تحثه فرادته الازلية والتكوينية على ان يتحول الى قلعة مغلقة على مكتسباتها.

* * *

هل أطروحة صدام الحضارات مع أو ضد المقاومة؟

كنا ولا نزال نخالف الرأي المشهور حول أطروحة الصدام بين الحضارات المنسوبة إلى الخبير الأمريكي هنتنغتون. ذلك لأن العالم وبشكل كبير العالم العربي، كان قد انزلق في تداعيات ردات الفعل التي أثارها العنوان، ليعتبروا هذه الأطروحة، الأيديولوجيا المؤسسة لإرهاب الدولة كما تمارسه اليوم الولايات المتحدة، جارفة معها اليابس والأخضر، وأيضا جعلوا من هينتنغتون كاهنا للعنف الثقافي والصدام بين الحضارات. والحق يقال، إن أطروحة الصدام بين الحضارات، على جملة ما يكتنفها من عوار على مستوى التحليل والمعطيات، هي الأطروحة المؤسسة لمشروعية المقاومة. هذا إن لم نقل أنها هي نفسها الدعوى الصريحة لحث الولايات المتحدة على أن تنهج مقاومة حقيقية للدفاع عن كيانها الثقافي المهدد من قبل غزات حضاريين كان قد حددهم هذا الاخير في عدد من الكيانات الثقافية. وقبل أن نفصل بعض الشيء في هذا الجانب المتصل بالوجه غير المقروء من الاطروحة المذكورة، نريد أن نؤكد مرة أخرى على أن دعوى كون الادارة الأمريكية بولائها للمحافظين الجدد الذين هم اليوم كالاسلاف من قراصنة الأفراس، في وارد إقامة أعواد مشانق عالمية، في عملية مونتاج متجدد لتقاليد السلف الكوبوي؛ أجل، نريد التأكيد على أن لا صلة في الجوهر بين ما قصد إليه هينتنغتون وما تنهجه وتقصده الادارة الامريكية اليوم. إن محتوى الاطروحة السالفة الذكر انها جاءت لتحذر الولايات المتحدة من مغبة السقوط في سكر القوة والتمادي في الهيمنة، في حين يبدو ان الداخل الامريكي يتآكل يوما بعد يوم. بهذا المعنى كأن هينتنغتون يريد القول: أنه كلما خطت أمريكا خطوة باتجاه ما وراء البحار، كلما فقدت خاصية من خصائص ثقافتها. . وكلما تقدمت في نفوذها العالمي كلما فقدت السيطرة على الطوفان الذي يجرف حضارتها من الداخل. إن الامتداد الطبيعي للولايات المتحدة الامريكية، لا يجب ان

يتخطى نطاق التحالف الحضاري مع اوربا بوصفها الام التي تشاركها الثقافة نفسها. وعليه، فإن مؤدى الاطروحة الهينتنغتونية، أن تتوقف الولايات المتحدة الامريكية عن فرض نفوذها في الخارج وأن تهتم بداخلها، فذاك هو الطريق الوحيد لتأمين نفسها ومصالحها وضمان مستقبلها كدولة غربية. إننا من خلال هذا المنظور القرائي الذي يلامس معنى المعنى في أطروحة هينتنغتون، ندرك فرية أن الادارة الامريكية تنفذ البرنامج الهينتنغتوني. بل هي النقيض التام لهذه الاطروحة، وحيث ليس لها منها سوى السطح كما يظهره العنوان المضلل. إذا ادركنا ذلك، قلنا إن الاطروحة الهينتنغتونية هي في الأصل دعوة للمقاومة. وهذا يدرك من خلال النقاط التالية:

ـ اعترف هينتنغتون بخفي العبارة وأحيانا بصريحها، بحق الآخر في أن يقاوم النفوذ الأمريكي. وذلك حينما أشار إلى أن هذا النفوذ مستحيل ولا يمكن لأمريكا أن تهيمن على العالم. مضافا إلى هذا أنها تسلك مسلكا خاطئا، حيث أن العالم غير الغربي لا يمكن أن يكون غربيا، ومن هنا زاد بأنه لا يمكن أن يكون ديمقراطيا أيضا. ولعل هذا التصريح هو ما أثار حفيظة الكثير من المحللين العرب، حيث رأوا فيه ضربا من التمييز بين الحضارات. إلا أننا ندرك أن المناخ الذي هيمن على التحليل الهينتنغتوني، هو مناخ الحروب، وأيضا بحكم الاشتغال، غلبة النموذج السياسي والعلاقات الدولية. غير أن تمييزه للحضارة الغربية لم يكن سوى اجتهادا بنيويا، وليس تاريخيا، لتقديم الدليل على فساد الهيمنة باسم تصدير النموذج الحضاري. إن تميز الحضارة الغربية في نظره عن غيرها بجملة الانجازات كالديمقراطية وما إليها ليس تمييزا عرقيا بل تمييزا نسبويا، يدل على ذلك قوله بأن أجمل القيم عندنا قد تكون اسوأ القيم عندهم. على أن الاستناد إلى طريق خطأ في بلوغ نتيجة صحيحة، يجبر ما بدا تمييزا من قبل هينتنغتون، الذي حرص على أن يزيل كل الذرائع التي تتذرع بها الولايات المتحدة الامريكية في استراتيجيتها

للغزو. إنما الحديث هنا يتصل بمآل الأطروحة المذكورة، حيث ليس النقاش في الصورة المنطقية للاطروحة بل في مؤداها الذي يلجم الادارة الامريكية عن التمادي في سياسة النفوذ. ويؤكد على ذلك وجهة نظره من فرض القيم المحلية على الآخر بالعنف، معتبرا ذلك نهجا لا أخلاقيا.

ـ إن الاطروحة الهينتنغتونية تنظر إلى الامكانات الامريكية نظرة واقعية، ولا تنظر اليها النظرة الاسطورية التي تهيمن على اذهان بعض المحافظين الذي يرون فيها الدولة العظمى التي لن تخضع بعد اليوم إلى سنن التحلل والانحطاط والضعف، بل هي وكما غلا خبير أمريكي آخر، تشكل ـ من حيث النموذج ـ نهاية التاريخ. إن الاطروحة الهينتنغتونية مهجوسة برد التهديد والغزو الذي يتربص بالولايات المتحدة الامريكية في شكل هجرات من القارة الامريكية الجنوبية، والتحدي الذي يهدد اللغة الانجليزية والثقافة الانغلوساكسونية الامريكية... إنها وبتعبير آخر كما يصرح هينتنغتون نفسه، ستكون الولايات المتحدة الامريكية ـ إذا لم تأخذ تدابير وقائية من الآن ـ أول دولة غربية لن تعود غربية[1].

ـ يحرص هينتنغتون على أن يحث بلاده على الانسحاب الى حيث حدودها الطبيعية. والعمل على الاهتمام بتعزيز حضارتها في الداخل، وأن تجعل عالمها الطبيعي هو الغرب، الغرب الكبير الذي يشمل أوربا نفسها. فليست أوربا في نظر هينتنغتون هي وحدها من تتصرف أحيانا ضد مصالحها، بل إن أمريكا نفسها تتحرك بالاتجاه المعاكس لمصالحها. إنها مرة أخرى دعوة للممانعة والصمود في وجه الغزو الثقافي الخارجي..

ـ المقاومة في نظر هينتنغتون هي أمر واقع تفرضه سنن الصراع التي

(١) لمزيد من الاطلاع راجع كتابينا الموسومين بـ: «المفارقة والمعانقة..رؤية نقدية في مسارات العولمة وحوار الحضارات» و«حوار الحضارات» / المركز الثقافي العربي. بيروت

تتفجر على خطوط الصدع، متى ما التقى طرفان يتناقضان ثقافيا. ومن هنا فإننا ندرك بأن المشروع الصهيوني لو أنك قرأته قراءة هينتينغتونية ستصل إلى النتائج التالية:

ـ إن الرؤية الهينتنغتونية الواقعية تؤكد على أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تفرض سلطتها على العالم على طول التاريخ وامتداد الجغرافيا. وعليه إذا كان مقوم الدولة الصهيونية حتى اليوم هو الدعم الامريكي اللامحدود، فهذا حتما لن يستمر طويلا.

ـ اذا كان هينتنغتون يصرح بان فرض قيم ثقافية مختلفة على امة أخرى هو نهج لا أخلاقي، فكيف

إذا كان المشروع الصهيوني ككيان ثقافي مختلف، فرض ولا يزال يفرض بالقوة والاستكبارفي قلب كيان ثقافي شديد الانتساب إلى جذوره الثقافية والحضارية كالعالم العربي والاسلامي؟.

ـ يتحدث هينتنغتون عن استحالة تغيير الثقافة بالقوة. هذا فضلا عن لا أخلاقية هذا النهج. غير أن ما يبدو تغييرا تنهجه القوى الامبريالية اليوم التي تتطلع لتغيير الثقافة العربية والإسلامية بنشر الطريقة الأمريكية والغربية في السلوك الاستهلاكي والمظاهر السطحية، أمر مرفوض في نظر هينتنغتون، باعتبار أن الحضارة الغربية لا يجب اختزالها في ثقافة الهامبرغر أو الكوكاكولا أو غيرها من مظاهر الاستهلاك، بل الحضارة الغربية تتمثل في الماغناكارتا والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وما شابه ذلك. باختصار إن المشروع الصهيوني في نظر هذه الأطروحة ليس له مستقبل، بل إنها قراءة تعزز مقولة: نهاية إسرائيل. وبأن لا مستقبل إلا للكيانات المنسجمة ثقافيا. وعلى هذا الأساس لن تكون مشكلة إسرائيل مع حدود الصدع المتاخمة والمحيطة بها، بل ستكون مشكلتها مع كيانها الفسيفسائي الذي تخفي مؤشرات انفراط عقده بمناوراتها واستعراضاتها وقمعها الخارجي الممنهج. إن كيانا ثقافيا غريبا، لن

يضمن مستقبله بأي سلاح آخر، ما دام لا يملك مقومات البقاء ولا يمكن أن ينتزع روح المقاومة من الشعوب التي استباحها بالقوة.

* * *

استكبار نموذج وليس نهاية للتاريخ

في السياق نفسه، جاءت أطروحة نهاية التاريخ والرجل الأخير، لتتوج هذا الانتصار والاستفراد القطبي الأمريكي، بإعلان خاتمة النموذج، وقراءة تاريخ مستقبل النوع على أساس باراديغم الانتصار النيوليبرالي المغشوش. وهو كذلك مغشوش من حيث أنه صادر على المطلوب، ومنح من أحكام القيمة ما تعدى الحقيقة التاريخية. إن نهاية التاريخ لم تكن فكرة قديمة استحياها فوكوياما على دق أجراس الانتصار وأفول المعسكر الشرقي فحسب ولا هي استبدال ساذج لنهاية أيديولوجيا وتولد أخرى من رماد الفيكتورية الجديدة فحسب، بل إنها لا تعدو أن تكون مجرد إنشاء جديد يستند إلى رؤية مسطحة تستبعد مكر التاريخ، فهي تجني على منطق التاريخ حكمة قوانينه التي لم يمنحها الخبير الأمريكي فرصة التعبير عن نفسها من خلال التطوح الكبير للإدارة الأمريكية التي باتت في وضع الدونكشوت الذي يسعى جهده لمقارعة طواحين الهواء. . لقد حاولت الدولة القطب الوحيدة في العالم أن تحول دون تعدد الأقطاب، لكنها فشلت وستفشل في ذلك لا محالة. لكن هذا لا يمنع من القبض على هشاشة المنطق المزدوج لهذه الأطروحة الايديولوجية المؤسسة لسياسة الغلب، وربما هي أكثر مما يمكن أن تفعله الأطروحة الهيتنغتونية كي تسند نزعة التدخل لحماية النموذج الأمريكي، بوصفه النموذج الأخير، وتعزز قناعته بمهمته التاريخية في حصار البرابرة وإبادتهم، تماما كما حصل بالأمس القريب ضد الهنود الحمر. إلا أن أطروحة نهاية التاريخ تستند بدورها إلى أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الاعتراف والكرامة. على أساس هذا المنظور الهيغلي للتاريخ، تصبح المقاومة والصمود في قلب حركة التاريخ التحرري للشعوب، حيث ليس في وسع أطروحة نهاية التاريخ أن تخرم هذه القاعدة التي انبنت عليها أيديولوجيا نهاية التاريخ والرجل الأخير. أذكر ذات يوم حينما ألقى علينا عشية أحداث

الحادي عشر من سبتمبر السيد نبيل خوري الذي أصبح فيما بعد مستشارا في الخارجية الأمريكية، حيث تساءل: ماذا ستفعلون إذا لم تكن أمريكا وخرج عليكم رجل مثل هتلر أوميلوزوفيس؟ في الحقيقة هي كلمة حق يراد بها باطل. فالولايات المتحدة الأمريكية ليست لها معايير ثابتة وعامة إنسانية وأخلاقية للتعريف بالمجرمين بحق الانسانية. بل الموحش هو ما وقع في مربع الممنوع أمريكيا. ليس ذلك غريبا من منظور النزعة الثنوية الامريكية التي تلبست لغة الواعض الذي قسم العالم الى محور الخير ومحور الشر. لن نتحدث عن عدد الكوارث التي تطلبتها كل الحروب بما فيها القذرة ـ وأكثر حروب أمريكا قذرة ـ التي استعملتها هذه الأخيرة للسيطرة على العالم. إنه يبدو أمرا خياليا بالمقارنة مع كوارث النازية. لقد أجبته بكل بساطة: " إن العالم قائم بنفسه لا بأمريكا. بل ربما سنربح الكثير من دون وجود أمريكا وأول شيء سنربحه: أن تحل مشكلة الشرق الأوسط".

إن كان ثمة من يجب أن يطرح عليه هذا السؤال فهو الكيان الصهيوني. لأنه حقا كيف يستمر من دون وجود أمريكا. بل إنني أعتقد أن الدعم الأمريكي اللامحدود والسافر لهذا الكيان الغاصب ليس مجرد استجابة طبيعية لضغوط اللوبي الصهيوني أو سقوط السياسة الأمريكية في حبائل السياسة الصهيونية. قد يكون لذلك جانب كبير من الأهمية. لكن ثمة ما هو أهم: يتعلق الأمر بكيان لقيط منزوع الشرعية القانونية والتاريخية والأخلاقية ولا يقوم إلا بأمريكا اليوم. وهذه الأخيرة تدرك مأزق هذا الكيان كما تدرك أن لا وجود لدولة ذات سيادة يمكنها أن تكون مخلصة لخدمة المصالح الأمريكية في المنطقة أكثر من إسرائيل. وعليه فإن وجود هذا الكيان كقاعدة أمريكية متقدمة في المنطقة لخدمة المصالح القومية والاستراتيجية الامريكية هنا ليس مجرد قضية توافق. بل هي قضية مصيرية بالنسبة لهذا الكيان تصل معه إلى حدود "نكون أو لا نكون". فبما أن لا وجود لدعامة قانونية وأخلاقية تسند

هذا الاصطفاف والتحيز الغامض، فهو لن يعدو كونه سوى شكل من الابتزاز بين دولة عظمى وأخرى يقع مصيرها فوق كف عفريت. لكنه في نهاية المطاف هو شكل من الابتزاز من جنس ما يجري عادة بين اللصوص. ألا يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله، أن السياسة الأمريكية اليوم تسلك المنحى النازي نفسه. وكان على صاحب فكرة نهاية التريخ أن يتأمل الحدث بعد تراجع كل مؤشرات انتصار الخيار النيوليبرالي الأمريكي بعد الفشل والاندحار الكبير لمشاريعه الاقتصادية والسياسية التي طالما تغنى بها هينتنغتون بدء من النموذج الامريكي الذي بات اليوم يعيش على عجز كارثي في الموازنة لم تشهدها الولايات المتحدة الامريكية من قبل وانتهاءا بثورة النمور الأسيوية. لكن ألا يكون أولى أن ينطبق ذلك الحكم الفوكوياميي على السياسة الأمريكية نفسها حينما قال: " لكن لم يكتب للفاشية البقاء لمدة طويلة حتى تعاني من أزمة داخلية في الشرعية وذلك بسبب الهزيمة التي لحقتبها في الحرب، وقد لقي هتلر وحلفاؤه حتفهم مؤمنين حتى النهاية بصواب النازية وشرعية سلطة هيتلر. وكنتيجة طبيعية لهزيمة الفاشية في أول صراع لها مع ثقافة أخرى، تضاءلت جاذبيتها في أعين الناس. فقد أقام هتلر ادعاءه بشرعية سلطته على الوعد بالسيطرة على العالم، لكن بدلا من ذلك انتشر الخراب في ألمانيا بل وتم احتلالها من قبل شعوب أقل سموا" . (١)

قد يكون في هذا الكلام بعضا من الحقيقة. فالفاشية، هذه الحركة التي تنطلق من ثقافة هي ليست أخرى خارج المجال الغربي، لم يكن ليكتب لها النجاح في العالم حتى لو حققت انتصارا عسكريا حقيقيا. لكن السياسة الأمريكية اليوم وهي تكيل بمكيالين تعاقر في أكثر من موقع، السياسة الفاشية نفسها القائمة على الابادة والاستهتار بكرامة الشعوب. إن كل ما ذكره فوكوياما صحيح، لكنه اليوم ينطبق على السياسة الامريكية بامتياز. إن هذه

(١) نهاية التاريخ، ص ٣٤ ت: د. حسين الشيخ، دار العلوم العربية ط ١ .١٩٩٣

الأخيرة كانت قد فقدت جاذبيتها ومصداقيتها وأججت الكراهية ضدها وهي اليوم تعبر عن عجز عن السيطرة الموعودة على العالم بعد أن نشرت فيه خرابا. إنها النهاية السيئة لسياسة التدخل والغزو والكيل بمكيالين. ليست الولايات المتحدة الامريكية في هذا استثناء!

لا شك أن ثمة تاريخا فعليا لنشأة الأيديولوجيتين المؤسستين. لكن لا ننسى أنهما الاطروحتان اللتان واجهتا ممانعة شديدة، إلى الحد الذي بات أصحابها يتنكران لها. وبالتالي فمعنى هذا أن لا مستقبل لهما، فما سقط فجأة يموت فجأة. وهذا نفسه ثمرة لفعل المقاومة.

* * *

الأيديولوجيا المحافظة

لقد وجدت الإدارة الأمريكية الحالية في الموروث الإنجيلي وطبقة المحافظين الجدد معالم خريطتها في اتجاه تعزيز سياسة التدخل، ما جعلها في وضع مفضوح، لشدة التغير في خطابها. فمنذ أن اعتلا جورج بوش الابن سدة الحكم، حدث تحول كبير في الخطاب، وحساسية مفرطة في نزعة الغزو، وفقدت الولايات المتحدة رشدها وكذا تضاءلت لغتها السياسية. لقد أعادهم هذا الأخير إلى ماضي العصيدة الأمريكية الممزوجة بالدم والدين والانتقام وإرادة الغزو. . تماما كما تمت إبادة أمة بكاملها باسم رسالة التحضر والدين، أمة متوحشة ووثنية شوهها التاريخ الأوربي الدخيل على قارة آهلة بملايين من البشر، أصبحوا حكاية أمريكية تختصر في جملة الكائنات الغرائبية والوحشية. لقد وجدت الهجرات الأولى ليهود أوربا في الأرض الجديدة ما عوضها حلمها في الظفر بصهيون الجديدة. وقد حصل ذلك قبل أن تبدأ حكاية أكثر عنفا وأبعد مدى؛ تأسيس الدولة الصهيونية في أرض فلسطين. التاريخ يعيد نفسه، وليس بين قصة الهنود الحمر والشعب الفلسطيني سوى هذه اللعبة الاستبدالية التي كادت تحقق نموذج الإبادة الأوربية للهنود الحمر على أرض فلسطين. ولم تكن سوى المقاومة هي المعامل الجديد الذي أفشل النموذج وأطال أمد اللعبة حتى اليوم. ومع كل هذا الصراع الطويل الذي دام أكثر من نصف قرن بين العرب وإسرائيل، كان لا بد من إعادة قراءة التاريخ دفعا للخرافة الأيديولوجية المؤسسة لإسرائيل. والقصة هي أعمق من إعادة التأريخ للمحرقة، وأبعد من عدد الذين قضوا في الإبادة الجماعية والهولوكوست النازي. فمع وجود هذه المحرقة وافتراض صحة عدد الضحايا، يكون الموضوع، أنها جريمة حصلت في أوربا وتحت تأثير الأيديولوجيات الأوربية. إنما يظل السؤال، كيف أمكن لهذه العصابة الصهيونية أن تستغل فظاعة الميز العنصري الأوربي ضد اليهود، لانتزاع

اعتراف بحقهم في دولة على أرض غير أوربية. لقد ظلت مشكلة اليهود في أوربا تكمن في الدولة. وقد كان البريطانيون يتمتعون بكرم القرصان: أن يتبرعوا عليهم بأرض محتلة. كان وعد بلفور مؤامرة حقيقية ضد الوجود اليهودي في أوربا. هو قرار ترانسفير ناعم، ومصيدة للمغادرة الطوعية على أحلام يقظة صهيون الكبرى. وهكذا باتت إسرائيل تحمل مبررات فنائها في وجودها الشاذ، حيث لا يمكن إلا أن تكون نشازا، ووجودا مشروطا بتخلفنا وانهيارنا الحضاري، وهو أمر مرفوض في منطق التاريخ ومنطق الجغرافيا.

تختزل الأيديولوجيا المحافظة اليوم أسوأ قراءة للمشهد اليهودي وتستعجل ملاحم وفتن، تهيء لليهود ما هو أشد من الهولوكسوت، أي أن تجعل من الدويلة الصغيرة أداة لتحقيق ما يمهد لأرماجيدون الكبرى. البنية التحتية لعقائد المحافظين الجدد، والاصوات التي تدعم وجودهم على سدة الحكم، تعيش صور هذا المستقبل كواقع متوقع.

لا نريد فناء اليهود، بل إننا نتحدث عن مشروع يحمل بذور الفناء في كيانه. فاليهود عاشوا إلى جنب العرب والمسلمين منذ زمن بعيد، وحتما ستستمر حياتهم إلى جنب في المستقبل البعيد أيضا. وإذا كانت مشكلة العرب والمسلمين مع إسرائيل الكيان العنصري الدخيل، فليس لديهم أي مشكلة مع اليهود في هذه المنطقة. بينما ما لا تبوح به الاستراتيجيا الغربية، أنها اصطنعت قصة صهيون، وهي اختراع نشأ واكتمل وتغدى داخل الايديولوجيات الغربية وفي سياق ما عرف يومها بالمسألة اليهودية. إن إسرائيل هي في نهاية المطاف مشروع ترانسفير غربي إلى المنطقة العربية، حيث طرحت المسألة اليهودية تحديا على الوجدان الاوربي، بأن لا مكان لليهود في أوربا، وبأن الحل، أن يوجد لهم وطن خارج الجغرافيا الغربية. إن الغرب الذي يحتفل بالكفاءات والعقول المهاجرة تراه يبدي زهدا في هذا العقل اليهودي، وفيما كان يعرف لديه بعبقرية الأقلي. لكن الغرب ليس في

وارد الاستغناء عن العقل اليهودي، بل يريد أن يبني لهذه العقول خلفية دولانية في الشرق، حتى يتفادى ما كان يعرف قبل الحرب العالمية بكون اليهود حاولوا دائما ان يشكلوا دولة داخل الدولة، وبأنهم خطر على الدولة القومية في اوربا.

* * *

أدلوجة مركبة

هل بوش هينتنغتوني أم فوكوياميي الهوى؟

سبق أن طرحت هذا السؤال على فوكوياما مرة[١]، لكنه أجاب بما يبرئ ذمته من الوقوع في شرك تبني فكرة المؤامرة السياسية. وكنت متوقعا أن يكون الجواب على غير ما نعتقد على الأقل في العالم العربي والإسلامي حيث استقبلت فكرة نهاية التاريخ وفكرة الصدام بين الحضارات أسوأ استقبال. وكان ذلك أمرا طبيعيا لأنهما فكرتان تعززان ثقافة الغلب التي مارستها ولا زالت الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة. مع أنني أعتقد خلاف ذلك. إن السياسة الأمريكية في عهد بوش ترتكز على ثقافة أمريكية تقليدية، في نزوعها إلى القوة والخيار العسكري في حسم مشكلاتها مع الخارج. إنها ثقافة الغزو و فتح خروم في جدار الممانعات التي تعتبر آخر عناصر القوة الممكنة بالنسبة للكيانات الصغيرة أو ضحايا الاعتداء على السيادة. وإذا التقت هذه السياسة أحيانا مع بعض الأفكار الواردة في صدام الحضارات، فهذا لأن هينتنغتون قد استند في الكثير من آرائه على هذه الثقافة السياسية. ومع ذلك يمكننا تأكيد الفرضية التي انطلقنا منها منذ البداية؛ ثمة أيديولوجيا مركبة تمتح من الثالوث الأيديولوجي المذكور، وثمة عقل سياسي أمريكي يتأرجح بين أضلاع ذلك الثالوث. لعل هذا ما يجعل الثقافة السياسية الأمريكية تعاني من حالة بارانويا، تتأرجح بين نزعة الانزواء التي تؤمنها الأطروحة الهينتينغتونية ونزعة الهيمنة والانتشار التي تؤمنها أطروحة فوكوياما ونزعة تديين الحرب التي تؤمنها الأطروحة المحافظة. يبدو العقل الأمريكي متأرجحا بين الإحساس بالاضطهاد ونزعة السوبرمان، والتباكي على الله:

(١) انظر نص اللقاء الذي أجراه كاتب السطور مع فرنسيسفوكوياما، تحت عنوان: نهاية تاريخ ونهاية ايديولوجيات؛ نهاية التاريخ بعد مرور أكثر من عقد على إعلانها: مجلة الكلمة،عدد ٤٧ السنة الثانية عشر، ربيع ٢٠٠٥.

فليبارك الله أمريكا!

إذا تبينت هشاشة المنطق االذي تقوم عليه كبرى الأيديولوجيات المؤسسة لسياسة التدخل وتجريم المقاومة ومبدأ حق الشعوب في التحرر والتحرير وإذا تم تحييد أطروحة هينتنغتون، وأيضا تحييد أطروحة فوكوياما الذي بدا متراجعا في الآونة الأخيرة عن الكثير من آرائه، حيث هدء سكر القوة وانتهى مفعول منشطات الانهيار السريع للمعسكر الخصيم وإذا تم أيضا تحييد الايديولوجيا المحافظة لهزال محتواها الخرافي وشذوذه، فماذا تبقى للادراة الامريكية في محاولاتها للنيل من مشروعية المقاومة والتشكيك في جدواها. في سياق حرب نفسية تحرص فيها هذه الاخيرة على خلط المفاهيم وادراج المقاومة في خانة الارهاب. وما هو المنطق الذي تستطيع أن تستند إليه في مواجهة قوى الممانعة.

* * *

المقاومة توجد في الثقافة الامريكية بالعرض لا بالذات

ربما يتساءل الكثير من المراقبين حول الأسباب الحقيقية التي تجعل العقل السياسي الأمريكي ينحاز إلى جهة السلب في مواقفه من المقاومة، على الرغم من التراث التحرري للتاريخ الأمريكي، والذي للأسف لا يمكن أن نقول عنه تاريخا حديثا، لأن ليس له دورة تاريخية قديمة. والحق أن هناك إحساسا شديدا بالذنب يجد تعويضاته في كل هذه الملحمة الممسرحة من الشعارات الزائفة التي توحي للولايات المتحدة الأمريكية بأنها تلعب دور المخلص الذي يكرهه الآخرون وأحيانا يحسدونه للمكانة التي يحتلها في العالم. ولا ننسى أن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية مع الشعوب، هو تاريخ مكتوب بدم المقاومة التي جعلت العقل الأمريكي يكاد يكون عقلا مناقضا للعقل المقاوم. فليس ثمة في قاموس الشعوب التاريخية الحرة ما يجد له صدى في العقل الأمريكي، حيث كل معاني الاستقلال والسيادة والكرامة والوطنية والشرعية التاريخية ليس لها إلا صدى خفيفا، لا يسنده إحساس عميق في الثقافة الأمريكية مقطوعة الجذور. إن كل التاريخ التحرري الأمريكي المزعوم، ما هو إلا انتفاضة غاضبة من قبل المستوطنين تجاه الميتروبول. إنها ثورة تحرر من هيمنة الدولة الأم، ثورة مصالح، وليست ثورة تحرر وتحرير بالمعنى الحقيقي للعبارة. ذلك بأن الكيان الأمريكي نفسه المفتعل، ليس سوى غزوا لعله أبشع وأشرس غزو في تاريخنا البشري.

من هنا لا غرابة في أن تمانع الولايات المتحدة في تمييز حركات التحرر الوطني عن حركات الإرهاب، لأنها تجتر تاريخا من المواجهة مع حركات التحرر الوطني، منذ الحرب العالمية الثانية. ولقد سعت أمريكا دوما للهيمنة على الجغرافيا وهي اليوم بصدد الهيمنة على التاريخ، في محاولة لتزييف حركته وحرف القيم المؤسسة للأعراف الدولية. لقد استغلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر شر استغلال، ووظفتها توظيفا مسرفا خرج بها إلى

مديات أخرى، بحيث حاولت اختزال الأزمة الدولية في حفنة من المسلحين الذين ضخمت من قدراتهم في حركة استخفافية بالوجدان العالمي، لم يكن بمقدورهم أن يتحدوا دويلة صغيرة، بالأحرى أن يصبحوا العدو البديل عن المعسكر الشرقي الذي كان يناطح الولايات المتحدة الأمريكية بإمكانات مرعبة.

لقد حصل تحالف موضوعي بين دولتين استعماريتين: أمريكا وإسرائيل. تشتركان في أنهما معا دولتان احتلاليتان، تتمتعان ببنية اجتماعية لقيطة لا تجمع بينها سوى المصالح.

بمثابة ختام: تداعيات انتصار المقاومة اللبنانية بعد حرب تموز العدوانية:

كان لا بد أن ينتصر طرف ما في هذه الحرب. ذلك هو منطق الأشياء. غير أن ما لم يكن واردا في منطق الاستراتيجيات الدولية، فضلا عن العربية، فضلا عن شعوب المنطقة، أن تنتصر المقاومة مجرد انتصار، بالاحرى انتصارا معجزا ظهرت تجلياته في جودة الأداء والتكتيك والخطاب السياسي واقتصاد الزمان. ربما حسب هذا المنطق، كان لا بد للكيان الصهيوني أن ينتصر. ينتصر لأنه الأقوى من حيث القوة العسكرية المتفوقة بمقاييس فلكية على كل النظم العربية فضلا عن احتكار الردع النووي. هذا القدر هو نصيب التقدير الاستراتيجي والحسابات والتوقعات الدولية بما في ذلك أمريكا التي ساهمت مباشرة في تأمين التغطية الدولية والسياسية للعدوان على لبنان، وبما في ذلك الدول الأوربية، والهيئات الأممية التي احتفظت بالموقف السلبي الذي لم يخرج من حالة الصمت إلا بعد هزيمة اسرائيل وتراجع الاصرار الأمريكي على مشروع الحرب على لبنان بوصفها ـ كما أكدت كوندوليزا رايس ـ مؤشر على ولادة شرق أوسط جديد. وكان لا بد لاسرائيل أن تنتصر بحسابات أخرى اعتملت فيها عوامل تفوق التقدير الاستراتيجي القائم على

حساب اختلال موازين القوى؛ أعني في منطق الحسابات العربية التي تعتبر فيه الهزيمة، حتى عشية العدوان على لبنان، تحصيل حاصل. فالعرب لم يعودوا لا يحلمون بالنصر فقط، بل أصبح مجرد الحلم بالنصر بمثابة تراجع في الوعي السياسي وغباء استراتيجي. وكان لابد لاسرائيل أن تنتصر، لأنها تدخل إلى المعركة ليس بالضمانات الأمريكية والغطاء السياسي الدولي والتفوق العسكري فحسب، بل تدخلها بالمعنوية العالية التي تفوق معنويات كل الجيوش في العالم بما في ذلك الجيش الأمريكي، كما تفوق حجم الهشاشة التي تختفي وراء كل هذه المعطيات في الكيان الصهيوني الذي كان ينتظر مواجهة لا يمكن أن تكون منطقية إلا إذا كانت بالفعل مغامرة. فليس غريبا أن هكذا عرفها بعض القادة العرب. لهذا السبب شكل الانتصار ليس جرحا في معنويات العدو، بل اضطر الفاعلين الأساسيين في مشروع الشرق الاوسط الكبير أن يعيدون النظر في سياساتهم بعد ان ارتبكت دعائم استراتيجيتهم. إذا كانت الاوضاع في الشرق الاوسط هي من سيحدد مصير العلاقات الدولية في آفاقها وامتداداتها شرقا وغربا، فإن الانتصار في حرب تموز لها الفضل في ذلك التحول الذي سيشهده العالم على المدى القريب وقد ظهرت مؤشراته تباعا بعد الحرب مباشرة.

لقد وضع الانتصار الفكر السياسي العالمي على موعد آخر مع حقائق أقل ما يمكن القول عنها أنها ستكون مقوضا حقيقيا لأيديولوجيتين شكلتا النموذج الارشادي للسياسة الخارجية الأمركية: أعني الفكر السياسي لليمين المحافظ الذي يعتبر الحرب طريقا حاسما لمجد الولايات المتحدة الأمريكية. في حين أن هذه السياسة أثبتت بأنها وراء تضخم الكراهية وانهيار سمعة الولايات المتحدة الامريكية لدى الرأي العام العالمي، وتهديد المصالح القومية الأمريكية وتراجع الثقة في علاقاتها بالخارج فضلا عن المشكلات الاقتصادية التي شكلت حصاد العهد البوشي. لقد جاء الانتصار ليؤبن هذا

المشروع ويظهر مكامن القوة الكامنة تحت رماد الاندحارات العربية والهزائم المادية والنفسية أمام سياسة الغطرسة والتدمير الممنهج للكيان العربي والاسلامي. لقد انقلب الاحساس والوعي ١٨٠ درجة، حينما منحت المقاومة انتصارا ناجحا ومعجزا لأمتها، منحها من الشعور بمعنى الوجود والاستمرارية ما لم تمنحه إياها أي حرب و أي تسوية منذ ستين سنة. وكما هو الامر بالنسبة لايديولوجيا المحافظين التي التقت مع الايديولوجيا الصهيونية القائمة على معامل الحسم والاستعراض والترعيب العسكري، فإن ثمة أيديولوجيا لا تقل ضراوة وخطورة: نهاية التاريخ والرجل الأخير. والحق أن الانتصار الأخير أكد على أن لا التاريخ انتهى ولا هو سينتهي بالضرورة على مقاس هذه الرؤية المتعسفة التي حاولت إسدال الستار على عالم الإمكان. ولا الرجل الأخير هو ما ستنتخبه هذه الخطاطة الأيديولوجية، ليأتي من خلف سهوب الغرب. الانتصار الأخير إن لم يغير من كل هذا المعتقد المتجذر في اللاوعي السياسي الامريكي والصهيوني، فعلى الاقل سيخفف من غروره وسيرغمه حتما على مزيد من التأمل. وسوف تسفر الأيام القادمة عن بروز أيديولوجيات ستطوي صفحة كل ما سبق من ايديولوجيات عقد التسعينيات. لم أتحدث عن فكرة الصدام بين الحضارات، لأنني أعتقد أن الانتصار الأخير عزز من مصداقية الموقف الهينتنغتوني مرتين:

الأول: حينما أكدت المقاومة بأنها لم تفعل سوى أن واجهت ما أسماه هينتنغتون بوقاحة فرض قيم أمة معينة على أخرى بالقوة. كما أنها أكدت على اعتقاده بأن أمريكا لا تملك الامكانات الكافية للسيطرة على العالم وآن لها أن تعود إلى ما وراء حدودها الطبيعية.

الثاني: لأن هينتنغتون لم يفعل سوى أن افترض وجود نموذج جديد لتفسير أحداث العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط سور بيرلين. بمعنى أوضح إنه وضع النموذج الحضاراتي بدل نموذج الحرب الباردة لغاية

تتعلق بالنمط الاكثر نجاعة من الناحية التفسيرية. لكنه ترك هامشا لإمكان تغيير النموذج. بل تحدث عن شكل من أشكال التحول الذي من شأنه أن يجعل حوادث العالم غير قابلة للتفسير وفق هذا النموذج أيضا. إن الانتصار ولد نموذجا تفسيريا جديدا. من شأنه أن يجيب على التساؤل الهينتينغتوني.

دوليا كان للانتصار دورا بارزا على مستوى عودة الفعالية أكثر للمنتظم الدولي. لم تعد أمريكا هي اللاعب الوحيد في رسم مصائر العالم. اليوم هناك تصاعد في حجم التدخل الأممي وفعاليته الدولية وكذا نشاط الوسائط والمبادرات والمساعي الدولية بصورة تتسع طرديا مع تقلص النفوذ الأمريكي. لن نخال الكيان الصهيوني في المستقبل أقوى منه قبل حرب تموز ولا أقوى في زمن تراجع القوة الأمريكية. هذا معناه أن المقاومة لها دخالة كبرى في عودة الفعالية للشرعية الدولية ما يؤكد أن المقاومة هي ضرورة أممية أيضا.

في المجال الإقليمي حدث تراجع كبير ومشهود في حجم الضغط الأمريكي على النظم العربية. فقبل حرب تموز كانت الدول العربية الأكثر قربا من الولايات المتحدة الامريكية، وحلفاؤها التقليديون يواجهون صعوبات وتحديات بل لقد وضعتهم سياسة بوش أمام مستقبل غامض وحرج، وتهديد أمريكي يصل إلى مستوى التلويح بالتدخل. انتصار المقاومة أعاد الفعالية لهذه النظم وبات الحديث اليوم عن مساندة ودعم دول الاعتدال في المنطقة. لقد انقذت المقاومة النظم العربية من موجة الشرق الاوسط الكبير، وأعادت لهم هامشا للفاعلية لم تمنحهم إياه أي قوة أخرى منذ قرر بوش أن يفرض التغيير ضد النظم العربية ويبشرهم بمستقبل ديمقراطي كما حصل في العراق أو أسوأ.

مستقبل المنطقة والعالم سيتحدد لا محالة وفق نتائج و تداعيات الانتصار. الحرب وضعت أوزارها، أي نعم، لكن حسابات المرحلة القادمة ومؤشرات الاستراتيجيا القادمة ستصاغ حتما ضمن معطيات جديدة، لا

تستثني انتصار المقاومة اللبنانية ونتائجها. بالتأكيد سوف تتواصل سياسة التدخل بشكل آخر، لكن الجديد أنها لن تقبل هذه المرة بسياسة الغزو والفوضى الخلاقة في منطقة هي أعقد من أن نغامر فيها بسذاجة بوش ـ ألمرتية. وهي أعقد من أن تكون فيها حروب الغزو نزهة. فليس في المنطقة، من يوزع زهورا على المحتل، بل ليس ثمة إلا من ينحني في أسوأ الأحوال، وقد يبالغ في الانحناء أيضا، كما قال يوما الشاعر أحمد مطر، لكن "لكي يزرع القنبلة"!

إذا كان ولابد على الولايات المتحدة الامريكية أن تكف عن الاستمرار في فرض مشروع الشرق الأوسط الكبير. وإذا كان ولابد على الكيان الصهيوني الغاصب أن يدرك بأن أي مغامرة بالحرب بعد حرب تموز وأي صورة للرعب لم تعد تجدي وسيدفع ثمنها مضاعفا، فإن ذلك كان بفضل مقاومة خاضها رعيل سمع فقط بالهزيمة ولم يصنعها. إن خرافة إسرائيل التي لا تقهر مثل أي أسطوانة مشروخة لم يرق للجيل العربي الجديد سماعها. نوافقكم على أن العالم يجب أن يتغير. ولقد تغيرنا وحققنا قطيعتنا الكبرى ـ نقسم على ذلك ـ أننا بعد جلال مقاومتنا وجمال انتصارنا، لم نعد نقبل بالهزيمة!

(٣)

الإرهاب الاستباقي أو الإرهاب كصناع[١]

مسؤولية المفكر في زمن التباس المفاهيم

- يتساءل الروائي الأمريكي(جون أبدايك): "ما هي الحكمة في أن يكون المرء أمريكيا دون أن تكون هناك حرب باردة؟!"
- نقول تعقيبا: إن كان ولا بد من وجود عدو افتراضي كشرط لاستمرار الدولة العظمى، فعلى العالم أن يقدر هذا الموقف .. ذلك لأن أي محاولة لتقويض أسطورة العدو الإفتراضي، هي بمثابة اعتداء على الدولة العظمى، وتهديدا لها بالزوال! عذرا، إنها مجرد محاولة لاستيعاب المفارقة الامريكية!؟

مدخل

يجري الحديث هذه الأيام ـ ولعلها المرة الأولى في تاريخ الحروب ـ عن الحرب النظيفة، وعن الحصيلة رقم صفر في منسوب ضحايا الحرب. وقبل ذلك كله، عن ضرب من الحروب التي تحمل معها رسالة الخير المطلق وأجندة متخمة بالوعيد. إنها بتعبير آخر، حروب مقدسة!إن كان الرافضون لها، أعضاءا في البيت الغربي، فهم مجرد جاهلين بالأبعاد الاستراتيجيةللحرب النبيلة. إذ ثمة على أية حال، إزعاج ينطلق ـ بين الفينة والاخرى ـ من داخل الدوائر الأوربية ضد السياسة الأمريكية ؛ إزعاج لا تدرك

(١) نص الورقة المقدمة لندوة: «مفهوم محاربة الإرهاب ومسؤولية المفكر»، نظمها في المغرب، منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين. وذلك بمناسبة افتتاحه لمقره بالرباط.عقدت الندوة بالمقر، يومه السبت١٩ أبريل ٢٠٠٣

أوربا خطورة نتائجه على المدى البعيد ـ أوربا التي لا تعرف مصلحتها، كما يؤكد هينتينغتون ـ. أما لو كان الرافضون لها خلف الأسلاك الشائكة للغرب ؛فهم وحوش خارج التاريخ حسب فوكوياما، أوخصوم طبيعيون حسب هينتينغتون، أوضدنا حسب جورج بوش الابن[1]! إنها حرب مقدسة!ولذا تعين على بلاد الشر- وهي كل البلاد الواقعة خارج سياسة النفوذ الأمريكي أو المستعصية على الإحتواء ـ أن يقبلوا بها دون أن يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضى العم سام. ولينبطحوا ما استطاعوا كي تمر عاصفة العدالة الكوبوية المطلقة بسلام. كل ذلك لمجرد أننا الدولة العظمى! وعليهم حينئذ أن يتجردوا من كل وسائل المقاومة وأن لا يقاتلوننا؛ فالمقاومة إرهاب! ونحن في المقابل، لنا مطلق الحق في تحشيد آخر ما جادت به العبقرية التكنولوجية الحربية من وسائل الدمار الشامل. نحن فقط من له الحق في أن يقصف ويبيد. وعليكم من الآن فصاعدا، أن تكونوا (مازوخيين)تتلقون الضربات بهياج واستمتاع شبقيين أو بتقدير وإجلال بالغين، ولما لا ؛ تستقبلوننا بالورود!؟ ليس غريبا بعد ذلك أن ينزعج كهنة العدالة المطلقة من وجود مناظير لبلية في يد قوات الخصم ـ ولعلها في متناول صيادي الأرانب البرية ـ بمثابتها جريمة حرب ـ إن اقتضى الحال جعلنا شعبا آخر يدفع ثمنها في صورة إبادة شاملة ـ تزعج طيارينا من تنفيذ استعراضاتهم البهلوانية في

(١) كل هذه المواقف تلخص موقفا تقليديا تجاه الآخر؛ بوصفه الجحيم! إلا أن موقف بوش ليس مجرد ثالثة الأثافي في هذه التصريحات التصنيفية ـ فحسب ـ بل هو بالإضافة إلى المواقف الايديولوجية السابقة لكل من فوكوياما الذي رأى إلى التفوق الأمريكي من وجهة نظر تاريخانية، أو هينتنغتون الذي رأى إلى التميز الأمريكي من منظور بنيوي.. أجل، بالإضافة إلى هذا فإن بوش كان قد أضاف عامل التديين و(التصليب) لهذا الموقف الجذري من الآخر، باعتبار التدخل الأمريكي هو فعل خلاصي. يتجلى هذا الإحساس المسياني في اعتبار رسالة اليمين المسيحي هي خالدة ومطلقة وفيها خلاص العالم.من هنا اعتباره إياها، حربا صليبية. وهي فلتة قابلة للتحليل النفسي واللغوي ـ إضافة إلى عامل (التديين) هناك عامل (الاستثمار) بوصفه. أى بوش. وأعوانهة، أمثال ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وكوندوليزا رايس..هم من رجال الأعمال والمستثمرين في قطاع الطاقة. فموقفه إذن ليس أيديولوجيا محض، بل إضافة إلى ذلك، هو موقف حاكي عن نزعة تمامية. يمينية. وعن نزعة فيكتورية. نيوليبرالية ـ.

سماء بغداد[١]. إننا نريد قتلكم بدون إزعاج؛ لا تصرخوا رجاءا!؟لا تزعجوا أبطالنا المحررين حينما يقدفون بحمم الموت فوق رؤوسكم ـ فالموت الذى نعدكم به نظيف، لأن حربنا، هي في الأصل، حرب نظيفة ـ وإلا اعتبرناكم معتدين ومجرمي حرب!؟

حول هذه النزعة السادية المفرطة لما رسخ في العقيدة العدوانية فيما يسمى بحق العنف، يتحدث جمع من المدرسين في المعهد الفرنسي لعلم الحرب، قائلين: «**يوجد عند بعض فصائل الطيورنظام تسلسلي بضربات المنقارَ إذ يحق بموجبه لبعض الطيور بأن تَنقرَ غيرها، ومن واجب الطيور الاخرى تلقي ضَربات المنقارَ هذه دون أن ترد، وقد كان من العدل أن تتمتع على الأقل بحق الفرار! وهذا ما تسميه قوانيننا بـ ألهيبة أو الإجلال**».[٢].

وهذا حقا ما حدى بالدولة العظمى اليوم ومن خلال صقورها أو حتى حمائمها المستنسرة والمتطاوسة، للتدرع بالحرب لتأبيد واقع الفوارق الدولية، وانتهاك السيادات، واستباحة الأوطان. وهي في ذلك على ما رأىَ هيركليت ؛ بأنَ الحرب هي أم جميع الأشياء، فهي تصنع الآلهة كما تصنع العبيدَ. فهل الدولة العظمى اليوم بصدد تحويل العالم إلى سادة وعبيد؟!

يوما بعد يوم يتأكد للرأي العام العالمي، بأننا نساق عنوة، وتحت دفق من الإكراهات السياسية والاقتصادية والعسكرية، إلى عصر المفارقة الأمريكية. وهي بالأحرى حالة استدراك قصوى، تتسم بالسرعة الفائقة للحؤول دون أي تشكل لنظام دولي جديد ينعم بالتوازن المطلوب، من شأنه ـ على الأقل ـ في ظرف هذا الإختلال المستفحل، لما بعد الحرب الباردة،

---

(١) يبدو هذا جزءا من الحرب النظيفة، حيث شرط تحققها نزع السلاح من يد الخصم، قبل شن الحرب عليه. وهذا النوع من الحروب النظيفة إذن، هي حرب قذرة بامتياز، لأنها تقوم على إبادة العزل. وهذا بحق، معلم من معالم ما أسميناه بالإرهاب الاستباقي!

(٢) الحروب والحضارات، ص ٥١، إصدار: المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني.ت: احمد عبد الكريم- دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.دمشق ط.نيسان ١٩٨٤

أن يحجم من سيطرة ديكتاتورية القطب الواحد، لقوة مهيجة لم تعد تخجل من مفارقاتها! بل والتي ترى في أي دعوة لحثها على التراجع الى حدودها الطبيعية، تهديدا واعتداءا[١]. فقد ظلت المرحلة السابقة، قبيل تأبين الاتحاد السوفياتي، مليئة بالتعثرات التي حالت دون تحقيق الدولة العظمى لحلمها في أن يكون ذلك القرن، قرنا أمريكيا بامتياز! وهو قرن مثقل بمواجع وآلام راح ضحيتها ملايين من البشر، كانوا مثلنا تماما، يألمون كما نألم ويحلمون كما نحلم، ويطمحون! لكنهم ـ مع ذلك ـ راحوا عبثا! ليظل السؤال حيا في الأذهان : ما الذي تغير بالفعل خلال هذه الحقبة من سياسات النفوذ والأطماع الامبريالية؟

بعد عقود من الاستسلام لذهان العسكرة، وسباق التسلح الذي أقحم العالم في ما لم يكن يخطرحتى ببال من وصف زماننا بالعصر التراجيدي، داخل عصر نووي كئيب، بلغ فيه الجنون ذروته إلى أن أصبح التدمير الكلي للنوع عقيدة دارجة ومستهلكة في لغة التداول اليومي. وقد أتخم هذا الرعب عقلناالمعاصر بنوباته، حدا، بات فيه الفرقاء المتورطون في هذا الجنون، يفكرون في إمكانية تدمير العالم عشرات بل مئات المرات. مع أن النوع الذي قد تقتله الشرقة والشهقة، يكفيه موت واحد. ومع ذلك تظل المفارقة عظمى؛إذا كانت حضارتهم قد بنيت على فلسفة مادية بالغة الصمم، وعلى نزعة أبيقورية هائجة. . وإذا كان تعاظمهم قام على مدرك تنموي قاض بالرفع من منسوب أمل الحياة l esperence de vie ـ ما هو حقيق بأن يذكي بإسراف، غريزة حب البقاء؛فكيف قبلوا بأن تتراكم لديهم أسباب الفناء وتغدوا حضارتهم كما وصفها آحادهم، حضارة موت الإنسان؟!فهل هي أم المفارقات في عصرنا الأمريكي الغاط في سبات الهيمنة والاستكبار الفاضح،

(١) لعل سبب استشكال هينتنغتون على ذلك هو إيمانه الشديد بعدم قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على السيطرة على العالم،فضلا عن كون الإكراه في عولمة النموذج الغربي. وهو في تقديره غير قابل للعالمية بوصف الغرب متميزا وليس عالميا. هو بالأحرى فعل إمبريالي وبالتالي فعل لاأخلاقي.

أم هي حيلة من حيل ذات (نويانية) ـ paranoiaque ـ تسعى من خلال هذه السياسة الاستهلاكية الإعلامية للحرب النووية الممكنة، إلى إرساء فئة جديدة، إن لم تكن هي الأهم من نوعها من السلع الرمزية للاستهلاك الجماهيري ـ la consomation de masses ـ وهو ما سنسميه بـ (الاستهلاك الإسترهابي). فالمجتمع الحديث بقدر ما يستهلك من سلع وخدمات، هو مطالب في عصر الرعب الأمريكي بالإنخراط في دورة الاستهلاك لمنسوب معين من الإسترهاب. وهذا النوع من الاستهلاك، هو ككل المستهلكات القائمة على نظام التصنيع (الفئوي)، يخضع إلى حركة من التجديد المستدام[١]. فما دام الاستهلاك ينموا ويتشعب بصورة جنونية، ويتغير بصورة دائمة في مجتمع الاستهلاك الى حد بات، كما وصفه (جان بودريار)، غاية في ذاته، بطبيعته الرمزية الاجتماعية ـ إستهلاك الإستهلاك ـ. فقد بدا وكأن التعاظم في الرعب يراد به مزيدا من السيطرة على الأذهان، ما دام استعماله الفعلي لا يحقق سيطرة محض، بل دمارا شاملا. وهو ما يناقض مفهوم توازن الوسائل والأهداف في الحرب عند كلاوزفيتز[٢].

ولا يخفى أن هذا الكائن المستهدف بالدمار الشامل وسياساته ورموزه

---

(١) إنها كناية عن مفهوم الاسترهاب المستدام، تنويعا على الإنماء المستدام.ففي استعمال الدولة العظمى لليورانيوم المنضب خلال حرب الخليج الثانية والثالثة،نوع من الاسترهاب المستدام يجعل البيئة معرضة لمخاطر انتشار الغبار المحمل بالإشعاع لمدة تقدر ببلايين السنين.فاذا كانت غاية التنمية المستدامة ضمان حق الاجيال في استغلال الموارد الطبيعية والاستمتاع ببيئة نظيفةمن التلوث والاشعاع، فان سياسة الاسترهاب المستدام،تسعى الى ضمان قدر من الاسترهاب يتعدى الى المستقبل.فهي محاولة للسيطرة على المكان والزمان؛أي،سيطرة على المجال وعليالمستقبل!

(٢) يتحدث كلاوزفيتز عن أهمية التوازن بين الاهداف والوسائل.وعلى هذا كما يؤكد إلياس حنا ـ عميد ركن لبناني متقاعد أن حربا نووية شاملة ضد بلد كالعراق، لن تؤدي المطلوب؛طالما أن عراقا مدمرا لا يحقق الاهداف الأساسية للحرب أو الأطماع الامبريالية في منطقة حيوية.هذا مع أن استخدام أسلحة نووية من الفئة التكتيكية يبقى في وارد الولايات المتحدة الأمريكية. لكن وعلى عكس ما تراءى للعميد الركن؛ليست قاعدة توازن الأهداف والوسائل هي من يدفع بالضرورة قاعدة التصعيد المتبادل،بل يمكن أن يدفع الفشل الذريع لتحقيق الأهداف إلى اللجوء ـ حسب مفهوم التصعيد والتصعيد المضاد ـ إلى استعمال أسلحة الدمار الشامل.

وشعاراته مفطور على التكيف والتأقلم مع أبشع الفظاعات الممكنة. حتى أنه زود بما يقهر به فواجعه متى ما توالت عليه الأهوال وتواطأت عليه الدواهي حتى قسى قلبه. وهي القسوة التي تشارف على بابها المسدود، حيثما تنامى الشعور بالإحباط، وتكررت لغة الرعب والاسترهاب النوويين. لا سيما وقد أظهرت المقاومةالفلسطينية- مثلا - بأن العرب لم يدخلوا بالفعل عصر الاستهلاك الاسترهابي، بعد أن أظهروا للعالم بأن الكائن مهماقل شأنه، لا تملك أعتى القوى إلا أن تحقق ميتته الواحدة ؛ إذ الموت واحد، سواء أكان نتيجة طعنة بالسكين أو نتيجة لانفجار (أم القنابل)[١]. فماذا لو كان هذا الفدائي هو من يهجم على الموت الذليل لكي يحوله من موت بلا معنى إلى موت يحمل معنى الحياة، أوتحويل الموت المادي إلى حياة رمزية. فلقد أدركت الدولة العظمى أن العالم العربي والاسلامي هو وحده المؤهل لتحرير أبنائه من ذهان هذا الاسترهاب المتعاظم. هو وحده من لا يزال يحافظ على طراوته الروحية ورشاقته الإنسانية[٢].

ومادام الرعب جاثما على صدر العالم، وهو اللغة الحقيقية خلف

(١) حتى أننا نجد بعض الفلاسفة القدامى قد أنكر البعث والمعاد الجسماني لهذا السبب تحديدا.إذ لم تستوعب عقولهم قدرة القادر تعالى على بعث الأموات أو إحياء الأنفس بعد موتها.فأنكروا أن يتخلل العدم الوجود.حتى رب العزة تحدث عن إحياء الأنفس وإماتتها مرتين أو أكثر بوصفها معجزات من صنع قدرته التي لا ينازعه فيها أحد.لكن الدولة العظمى تريد . تحت تأثير ذهان القوة والاستكبار . عبثا امتلاك هذه القدرة الالهية المستحيلة.؛أي أن تقتل وتحيي وتقتل مرة ومرات.وقد أحسن من قال: تعددت الأسباب والموت واحد.

(٢) لقد أدركت الدولة العظمى، بأن العالم العربي الإسلامي وإن كان لا يملك منازعتنا في أسباب القوة المادية،فهو يملك من خلال ثقافته، تقويض سياسة الاسترهاب المستدام. فثقافتهم هذه تمنعهم من الدخول في دورة الاسترهاب الدولي أو الاستهلاك الاسترهابي.وذلك من خلال فلسفة الجهاد والاستشهاد. وبعد أن تبين أن هذه ليست ثقافة محصورة في فئة دون أخرى، بل هي الرأسمال الاحتياطي لكافة العرب والمسلمين متى ما أحسوا بالخطر. وهي ثقافة من شأنها أن تعيد التوازن المفقود.فتغدو الشهادة مفعولا مضادا للإسترهاب المستدام.على شرط تفقيه هذا الموقف حتى لايصبح مفهوم الجهاد مستباحا للجهل والمغامرة والإرهاب.جهادا لتحرير الأوطان،بقرار إجماعي للأمة وليس بقرارات انفرادية للآحاد،بما يخرجه من مقاصده العادلة وأهدافه الوطنية النبيلة.

مجازاتنا السياسية، فهذا مؤشر حقيقي على أننا نعيش وضعا جديدا لم يعد يتحمل مناورات السياسيين ولا أحلام العقائديين. فإذا ما ماتت السياسة وانطمست سيادات الدول، فأصبحت الدول مجرد أنجم مضافة إلى العلم الأمريكي، فأي مستقبل ياترى ينتظر المنتظم الدولى والامم المتحدة، على ما عليها من هنات؟!

على أن هذا المدخل يؤهلنا لطرح بعض التساؤلات الممكنة لتوضيح مغزى ما عنونا به هذه الورقة؛الإرهاب الاستباقى أو الإرهاب كصناعة:

أولا: هل حينما نحكم على النوايا، بوصفها مسوغا كافيا لما يسمى بالحرب الاستباقية، ألا يعني ذلك أننا نؤكد على أن لا خلاص لنا من الإرهاب إلا بأن نصبح إرهابيين: أليست هي إرهابااستباقيا، بدل الاستسلام لخدعة (مفهوم)الحرب الاستباقية؟

ثانيا: إذا كان السؤال الأول يتضمن جوابا على الشق الأول من هذه المعادلة، فإن السؤال الثاني يصبح كالتالي:هل ما يسمى بالارهاب، هو فعل تلقائي على غرار ما ساد من النشاط المافيوزي والاجرامي، أم أننا أمام جيل جديد من هذا النشاط، يحمل معه مبرراته السياسية والثقافية والانسانية . . بمعنى، إذا لم يصبح الارهاب أمرا جزافيا، بل نتيجة مدبرة لها مقدماتها المنطقية، فهو إذن خاضع لصناعة وتدبير محكمين . . فما هي طبيعة هذه الصناعة ومن هم مهندسوها ؟

وثمة بالتالي سؤال ثالث يحتوي الأولين معا : إذا كان الممارسون للارهاب الاستباقي متورطون في هندسة الارهاب وافتعاله وعولمته، كذريعة للتدخل والعدوان، فلماذا يمعنان في(تلبيس إبليس) إزاء مطلبين، كان بالأحرى بدولة الارهاب الاستباقي أن تحددهما بالوضوح الكافي :

ـ أولا، ما هي المصالح القومية الأمريكية[1]؟

ـ ما هو المحدد الموضوعي للإرهاب[١] ؟

إذا كانت (المصالح القومية) و(الحرب ضد الارهاب) هما مفتاحي الخطاب الامريكي الراهن، فلماذا كل هذه المناورة ـ سواء ما تظهره استجوابات زعمائهم أومناوراتهم داخل المؤسسات الدولية ـ ضد أي محاولة لوضع تعريف للإرهاب، ووضع بيان شافي لهذه المصالح القومية. أفلا يعني، أن هذا الاخفاء والممانعة ضد أي وضوح في المفاهيم والأهداف، هو مقدمة نظرية للإرهاب نفسه. وهذا بدوره يؤهلنا لدراسة المقدمات النظرية والمسوغات السياسية للإرهاب. باعتبار الإرهاب صناعة غربية ترتد على الغرب عند الطلب.

---

(١) ليس ثمة ما يسمح بتهديد المصالح القومية للدول.ثمة نظام دولي كفيل بضمان و حماية هذه المصالح. لكن إصرار الدولة العظمى على الحديث عن مصالحها القومية بهذا الذهان، وبهذا الالتباس، له معنى واحد فقط، وهو أن مصالح الدولة العظمى إزاء باقي الدول، لها الأولوية عند التزاحم.ففي كل دولة ثمة مساحة للمصلحة القومية الأمريكية، قابلة للتوسع والتجدد.فهي جزء من سياسة الدول. وهذا ما جعل هينتنغتون نفسه يشير إلى سوء تقدير الولايات المتحدة الأمريكية لمصالحها.على أن هذه المصالح المتعلقة بالأمن والرخاء المادي والمبادئ، ملتبسة هي الأخرى؛ وكما تؤكد دراسة صادرة من جامعة هارفارد١٩٩٦ ،بأن نهاية الحرب الباردة كانت قد غيرت من طبيعة المصالح الأمريكية. ولعل هذا التغير هو الذي منح الدولة العظمى الحق في أن تصبح دركيا يتمتع وحده بحق التدخل وحق العنف في العالم.وهو حق بالطبع، ليس مصدره القانون الدولي، بل هو حق طبيعي مستمد من القانون التصنيفي الداروينى الذي يمنح الحق للأقوى في السيطرة على الأضعف.وبهذا تصبح المصالح القومية الأمريكية مسوغا شرعيا للتدخل، بل وعنصرا من عناصر الإرهاب الإستباقي.

(٢) كما هي المصالح القومية الأمريكية، فإن تعريف الإرهاب يصبح جزءا من تعريف تلك المصالح. وبما أنها مبهمة غير معرفة فالإرهاب كذلك، يظل ملتبسا. وهنا يبدو وكأن لسان حال الدولة العظمى: أينما تكون المصلحة الأمريكية، فُثمة حكم الله ". من هنا فالإرهاب سيظل مفهوما غير قابل للتعريف بعيدا عن المصالح النامضة للولايات المتحدة الامريكية، أو خارج المعايير الأمريكية، التي هي للأسف معايير مزدوجة. على عن الدولة العظمى هي من يناور اليوم ضد أي دعوة عالمية لتعريف معنى الإرهاب.و لذا نمقاومة المحتل هي اليوم في الموازين الأمريكية إرهاب!؟ وتصبح مقاومة مشروعة متى ما تناغمت مع المصالح الأمريكية.حتى ليبدو لي أن سبب هذه الازدواجية، ربما، كون الدولة العظمى اليوم، هي دولة جربت الغزو. بل قامت عليه. كما جربت حروب التحرير!؟ و هذا لا يمكن فهمه إلا إذا استسغنا المفارقة الاميركية.

الإرهاب الاستباقي والإرهاب كصناعة..

كيف يصبح مفهوم محاربة الارهاب شعارا أو أسطورة جديدة، مؤسسة لأبشع أشكال الإرهاب ؟!

الصناعة الإعلامية أو ما يسميه توفلر بـ (خيمياء الإعلام)[١]، جديرة بأن تحدد لنا فيصلا هلاميا بين ما يسمى إرهابا وما يمكن أن نسميه (محاربة الارهاب)؛ إنها كمية ونوعية وسائل التدمير المستخدمة، وكمية النشاط الالتفافي حول القوانين الدولية، وأيضا- وهذا هو المهم - كمية الوقاحة التي تجعل مهندسي الارهاب الاستباقي، لا يخجلون من تفاهة مفارقاتهم، ولا يهتمون بمدى اقتناع العالم بقيمهم الغامضة. فليس أمام العالم إلا خيار واحد: صدق أو لا تصدق، طالما أننا الدولة العظمى !؟ فالارهابي اذن، هو من لا يملك غطاءا شرعيا في ممارسة العنف، ولا يملك طائرات ولا جيوشا تقليدية، ولا دولة(ليبرالية). فقد يكون قتل المدنيين بعملية انتحارية، إرهابا. وهو كذلك بالفعل! لكن قتلهم على ايقاع حركات بهلوانية للاباتشى، أو الـ(ب)٥٢، هي حرب مشروعة أو نظيفة. فمن هو الإرهابي إذن ؟ إنه بالتأكيد من لا يجيد فن الإبادة على طريقة الدولة العظمى! أي من يفكر كثيرا ليقتل قليلا وليس من يفكر قليلا ليقتل كثيرا!هذا في حين أن الإرهاب واحد، وجوهره واحد[٢]. يتيح لنا عصر المفارقة الأمريكية، إمكانية استيعاب سياسة

---

(١) إذا كان من شأن المعرفة حسب ALVIN TOFFLER أن تجعلنا قادرين على عمل الشيء نفسه بالرأسمال نفسه، فأيضا هو الإعلام، في ما يسمى بالحروب النظيفة، من شأنه أن يحول الهزيمة إلى نصر، و ما كان يتحقق بآلاف و ملايين الضحايا يمكن تحقيقه ب" صفر ضحية ".

(٢) تبدل الولايات المتحدة الأمريكية جهدا كبيرا في إطار ما يستحق أن يوسم بأسطورة الحرب النظيفة، إلى بلوغ مستوى "صفر ضحية ". وهو جهد بالتأكيد قد يضاعف عدد القتلى في الطرف الآخر. فحيثما قل عدد الضحايا في المعسكر الغازي، إلا و تضاعف عدد الضحايا في معسكر الخصم. فهي بقدر ما تقلل من الضحايا بمستوى عدد واحد، تضيفه "صفرا" على اليمين، في جهة الخصم. و هذا ما يعنى أن مستوى "صفر ضحية " في حقيقته، تعبيرعن معادلة كالتالي: كيف نقتل. بفتح النون.

الكيل بمكيالين. إنه إذن، عصر الوقاحة السياسية بامتياز ! ولعل واحدة، وهي ـ أم المسائل فى علاقتنا بالغرب ـ أن تهمة حيازة أسلحة الدمار الشامل، التي أصبح بموجبها العراق ظنينا وحيدا ـ مع أن الغرب متورط في عملية تسليم أسلحة دمار شامل للعراق في إطار سياسة الإحتواء المزدوج ـ، في عالم أغرقته الدولة العظمى وحلفاءها في جنون نووي، يدفعها واقع حيازة إسرائيل لكميات من أسلحة الدمار الشامل تفوق العراق وغيره كمية ونوعا. ما يجعل موضوع استعمالها ليس هو في حد ذاته المشكلة التي تثير اهتمام الولايات المتحدة في ظل الانهيار الكبير في منظومة القيم السياسية للعالم الحر. بل المشكلة اليوم هي : استعمالها ضد من ؟والحال، أن لا أحد يشك في أن إسرائيل المدججة بمئتي وعشرين رأسا نوويا وأطنان من المواد الكيماوية وأكثر من مئة وخمسين قنبلة ذرية، لن يكون في مستطاعها، وبحسب قاعدة توازن الاهداف والوسائل ـ لا سيما وأنها جزء من بيئة الاستعمال ـ متى ما ظل الوضع طبيعيا. ولكن هذا لا يعني أن إسرائيل لا يمكنها، تحت ضغط التهديد النووي الذي يحفظ الاختلال في ميزان الرعب و القوى بينها والدول العربية ـ أن تفرض شروطها وأطماعها في إقليم منزوع السلاح. إن السلاح النووي يستعمل فور امتلاكه؛ إماعن طريق الضغط، وهو نوع من الاستعمال بالقوة ـ استعمال القوة بالقوة ـ وإما بالفعل ـ استعمال القوة بالفعل ـ. وفي الحالة الأولى هو استعمال واقع في سياق الاستهلاك الاسترهابي! وفي ضوء هذه السياسة الاسترهابية لن يشكل التهديد الاسرائيلى باستعمال السلاح النووي في حروبها المتوقعة ضد العرب والعالم الاسلامي،

كثيرا حتى لا نقتل. برفع النون. كثيرا!؟لكن السؤال الأخطر ههنا: كيف نتوقع مستقبلا تصبح فيه الحروب الأمريكية لا تكلفها ضحايا في صفوفها؟! فالحرب ذات " صفر ضحية " تحمل منظورا تصنيفيا و مغالطا أيضا، أي أنه في الحروب، الآخر هو من يستحق الموت وليس الأمريكي.وربما بدأت إرهاصات عرف جديد سوف تفرضه الدولة العظمى، وهو أن قتل أي أمريكي في الحروب القادمة سيصبح جريمة حرب!؟ إنها أسطورة نيوليبرالية لليمين المتطرف!

لن يشكل إزعاجا للولايات التحدة الامريكية. ومع ذلك لم يسجل التاريخ الحديث إلا حالة استعمال نووية واحدة، ؛إنها أول ـ ولا نعتقد أنها لن تكون هى آخر ـ من فكر في استعمالها، كما حدث في هيروشيما وناكازاكي. ولعل حديثها عن استعمال بعض الفئات الموسومة بالتكتيكية أو النظيفة هو واقع فرضته الضغوط العالمية لما بعد الحرب العالمية الثانية. إن الفكرالذي سوغ لاستعمال الأسلحة النووية التكتيكية، هو هو الفكر نفسه الذي استساغ ويستسيغ استعمال السلاح النووي الاستراتيجي. وكما يقول (نيل الروي) ـ سكرتير الدفاع الامريكي في ١٣ حزيران من عام ١٩٥٨ـ؛**(لقد اصبحت الولايات المتحدة مستعدة لاستخدام القنابل الذرية النظيفة في أية معركة صغيرة، شريطة أن يكون في هذاالاستخدام فائدة ومصلحة)**[١]. يتيح لنا عصر المفارقة الامريكية، إذن، القبول بأن تتحول الدولة العظمى إلى دولة إرهاب بالفعل، لكبح إرهاب افتراضى، تتشكل صورته النمطية داخل أذهان مرضية تشكوا رهابا مزمنا من الآخر. أو عقدة اضطهاد داخل إقليم لقطائي ـ ووحدهم الامريكيون لا يخجلون من هذا الوصف ـ لم تختمر لديه قدسية الأوطان أومفهوم كرامة الأمم. وهذا ليس له إلا معنى واحدا؛كلما صمد الخصم أمام إرهابنا، فكرنا في تصعيد منسوب الاسترهاب. وإذا كان

(١) الجنرال بيير غالوا، العصر النووي، ص ١٥٠ ت: اللواء الركن، محمد سميح السيد، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ط ١ - أيار ١٩٨٤.
كل هذا، حكاية عن سيكولوجيا الحرب وأهمية ما تمثله فكرة تحديد العدو والصديق بالنسبة للدول. يتجلى بصورته الأفظع في سيكولوجيا الحرب الأمريكية القائمة على ذهان العسكرة بما تعنيه من رسوخ فكرة العدو الإفتراضي في العقيدة السياسية الأمريكية. قد يبدو ذلك طبيعيا إذا حللناه في ضوء النزوع إلى السيطرة. ففكرة العدو الإفتراضي تتضخم إلى حد الفحش بالتوازي مع استفحال النزع الهيمنية. وهذا الإحساس أصبح ذا بعد انطلوجي للشخصية السياسية الأمريكية. أو حسب الروائي الأمريكي جون أبدايك: "ما هي الحكمة في أن يكون المرء أمريكيا، دون وجود حرب باردة "؟ لكن السؤال: أليس السجل الأمريكي حافلا بجرائم، لعل أقلها يستدعي محاسبة طويلة الأمد؟ إنها لا تحاسب دولة من الدول إلا حول قضايا ارتكبت مثلها بصورة مضاعفة! أليس جريمة استخدام السلاح الذري ضد اليابان هو أبشع جريمة ضد الإنسانية عرفها التاريخ.. لكن من يجرؤ على الكلام.

استعمال هذا السلاح الفتاك في وارد الاستراتيجية الحربية للدولة العظمى، فهذا معناه أن ما يجري اليوم وما سيجري غدا، هو فصل من فصول الارهاب الاستباقي لارهاب متوقع لم يقع. إن سياسة دولة الاسترهاب ـ المتمرسة في صناعة الحروب وهندسة إرهاب الدولةـ التي قامت سياستها على قواعد الدبلوماسية السرية والحروب الاستخباراتية القذرة، عملت طيلة عقود على تنميط الذهن الامريكي وجعله مهيئا للتصديق بكل الاساطير المؤسسة لعقيدة الغزو. وقد بدا الرهاب من الآخر نواة عقيدة شعب جعلوه يجهل كل شئ خارج حدوده الطبيعية، تلك التي لا يدري الى أي حد تنتهي بالفعل!؟ مع أنه يعيش في دولة ترقص سياستها الخارجيةعلى إيقاع التدخل. وهذا الرهاب الداخلي لا يمكن أن يتحقق إلا بإذكاء التناقضات الدولية وإضعاف أداء المؤسسات الدولية وتكريس اللبس والغموض في المفاهيم والحفاظ عليهشاشة بنية القانون الدولي. وهو نوع من تأهيل المناخ الدولي للقبول بصناعة الحروب وهندسة الإرهاب واستنبات العدو المفترض من داخل أنقاض الحروب، التي تبدو في نهاية المطاف كمشاهد لمسلسل قائم على لعبة التشويق. حيث يبقى دائما شيء من الغموض لا بد منه لربط المشاهد بمنظومة الافتراضات الممكنة. إنها مشاهد هيتشكوكية بامتياز! فالدولة العظمى التي ترى نفسها اليوم في حل من أمرها إزاء المنتظم الدولي، لا تريد أن تصبح مجرد عضو في منتظم مستقر. إن استقرار الدول وبالتالي استقرار العالم هو تهديد لاستقرار داخلي بنته الدولة العظمى على تصريف الأزمات الداخلية إلى الخارج في شكل حروب. هذا فضلا عن كونه مقوضا لطموحها في السيطرة. إن الدولة العظمى لا تتحمل صدمة انتصار السلم والاستقرار الدوليين ؛ ومع ذلك فكل سياساتها العدوانية تتم تحت مسوغ تحقيق الاستقرار والسلم الدوليين !؟ فلا يخفى أن الثابت الوحيد في سياسة الاسترهاب الاستباقي، هو المصلحة! وهي مع ذلك، مصلحة غير محددة ولا معرفة. لسبب بسيط جدا؛كونها مصلحة متطلعة لابتلاع العالم كله. وليس

ثمة بعد هذا كله (صداقة)أو (عداوة) ثابتة!القاعدة التي تتيح لنا إمكانية استيعاب السرعة التي تلتهم فيها الدولة العظمى أصدقاءها أو حلفائها، والسرعة ذاتها التي تصطنع فيها أعداءها. إن (لعبة) قانون محاسبة الدول، التي تثار بين الفينة والأخرى داخل الكونغرس، ليست إذلالا وانتهاكا لكرامة الدول فحسب، بل هي أيضا واحدة من الإجراءات التي تسعى الولايات المتحدة الأمريكية لترسيخها، كتعبير جديد عن الخرافة الكوبوية حول العدالة المطلقة، تعزيزا لسياسة الإرهاب الاستباقي. فداخل هذا الحطام الدولي، ليس ثمة أيسر من اختلاق ما يصلح مستمسكا في إدانة أي دولة من الدول. فهل الدولة العظمى ليس لها من الجرائم ما يجعلها جديرة بالمحاسبة؟!بلا! ولكن من يملك محاسبة الدولة العظمى[1]؟! ومع ذلك يبدو أن العالم حتى الآن لم يكد يستوعب بعد هذه الحقيقة الأمريكية، بوصفها الممثل الاكثر حداثة- وشراسة- للداروينية التقليدية! ففي تقرير للمعهد الفرنسي لعلم الحرب في نهاية السبعينيات تحت عنوان(الحروب والحضارات)، نقرأ:(أما الوظيفة الثانية للدولة: فهي تعريف العدو والصديق. وبمقدار ما تتكامل المجتمعات وتتنوع، بمقدار ما تظهر العديد من الصفات الجديدة، ولكنها ترتبط مع ذلك بالمخطط البدائي. ومن الناذر ألا تشتمل التقاليد والنماذج الأصلية واللاشعورية لشعب ما، على عدو تقليدي وراثي، وهي ظاهرة معقدة، ثابتة نسبيا، ترجع أصولها للحروب القديمة التي تمر بفترات حادة. وعندما يمكن العثور على (سوابق)من كل الأنواع، كما هي الحال في تاريخ القارة الأوربية، يصبح الاختيار أمرا لابد منه. فكل أمة كانت في بعض الأحيان وعلى مرور القرون، حليفة أو عدوة بعض(أو لجميع)جيرانها.. وعندما تتضخم الروح العدوانية الجماعية وتستشيط من الغضب، تكون النتيجة هي البحث عن (نقطة

(١) -حسب تعبير بول فيندلي؟

الحروب والحضارات صادر عن المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني ص ٥١-٥٢

تطبيق). وهكذا يتغير العدو، بتغير الظروف والأحداث. وهذه الطريقة معروفة في ميادين علم النفس، وهي تقوم على طمس الأحقاد والنزعات الماضية نحو البعض وإحيائها وتنشيطها نحو العدو الحالي بكل الوسائل)[١].

وهكذا يتيح لنا عصر المفارقة الأمريكية مكنة استيعاب تلك اللغة الجديدة المدرجة في خانة صدق أو لا تصدق. ومنها على سبيل المثال لا الحصر؛ تحرير العراق!؟فإذا كانت الدولة العظمى طرفا في كل ما حصل طيلة هذه العقود من الزمن، في هذه المنطقة، حتى أمكننا القول؛ لولاها لما حدث ما حدث؛ لا حرب الخليج الأولى ولا الثانية ولا الثالثة. . فهل نحن يا ترى بصدد إعلان توبة أمريكية من جرائمها ضد الإنسانية أم أنها فصل جديد من الالتفاف على الحقائق لنفض اليد مما كانت قد جنته ديبلوماسيتها السرية وحروبها القذرة، كي تأتي في هذا الوقت بدل الضائع، لتحمل نظام بغداد كل ما كان اقترفه ـ وإن كان كل ذلك تم تحت رعايتها وبرسم الإحتواء المزدوج ـ، ولكي تسرق من الشعب العراقي حريته مجددا وتلطخ نضاله وتاريخه ومستقبله بالعار. حيث لم يكن المطلوب من الدولة العظمى طيلة هذه الحقب إلا أن ترفع يدها عن قضايا شعوب المنطقة. لا شك، وبعد أن تنجس المسيرة المطلبية لشعب الرافدين بعدوانها الامبريالي الغاشم، سوف تترك وراءها شعبا محررا فوق زوبعة من التناقضات وعلى أرض ارتهنت للتلوث البيئي لبلايين السنين؛ شعبا بلا جغرافيا نظيفة وبلا تاريخ يشغل ذاكرته. . منزوع القرار، منزوع السلاح، منزوع الثروة. . شعبا أصبح مصيره على كف عفريت؛ إن هو رفض الخضوع لمطالب النفوذ الامريكي، فلن ينال استقلاله إلا بحرب إبادة أو مقاومة طويلة الأمد.

* * *

(١) الحروب والحضارات صادر عن المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني ص ٥١-٥٢

عولمة الأمركة أو أمركة العولمة؛
ابدأ من حيث شئت، فالنتيجة واحدة!

إن الإرهاب الإستباقي، هو المقابل المنطقي ـ والفعلي ـ للإرهاب المتوقع. لأنه لا إرهاب أفظع من أن نحاسب النوايا، بناءا على ما تجود به خيمياء الإعلام المضلل، ثم نرتب على فزاعاتنا التخييلية، آثارا في الخارج. إذا كانت الدولة العظمى تتحدث عن إرهاب افتراضي وعن تكهنات استخباراتية غامضة، ليس لها وجود بالفعل، فإن ما تتخذه من تدابير عدوانية بالفعل، يجعل الفارق الموضوعي ما بين الارهاب المتوهم وبين الارهاب الاستباقي وعولمة الأمن القومي الأمريكي المغلوط أو أمركة الأمن الدولي ؛هو كون هذا الأخير إرهابا بالفعل!وما كان بالفعل هو أنفذ مما هو بالقوة. فإذا كان الارهاب بالقوة ـ أي الارهاب الافتراضي ـ هو في أقصاه لا يبرح حيز الإمكان ـ لا موجود ولا معدوم ـ قد يكون وقد لا يكون ـ، إذ يمكن احتواءه بفعل الديبلوماسية النشطة ـ فإن الارهاب الاستباقي القائم على فكرة إبطال الإمكان الإستقبالي، هو إرهاب بالفعل! وهي هنا تؤكد على ازدواجية المعايير، حيث إن كان عرفها الجنائي قاض ببراءة الظنين ما لم تثبت إذانته، فهي بذلك تؤكد على أن أمركة الأمن الدولي، تعد العالم بمشروع (أبارتايد)دولي. ولعل واحدة من مؤشراته المعلنة، الدعوة الى تغيير البرامج والأنظمة التربوية في العالم العربي والاسلامي، لتسهيل المهمة أمام مشروع أمركة العالم، والذي يعد فصلا رئيسا في سياسة الارهاب الاستباقي. بل لعله تأكيد عليما جاء في الهيامات الهنتنغتونية بتميز الحضارة أو الثقافة الغربية على ما دونها من ثقافات الأمم، أو التعبير السخيف لبيرلوسكوني حول هذه الأفضلية تجاه الثقافة الإسلامية. الأمر الذي سخر منه أمبيرتو إيكو داعيا إلى إنشاء انتروبولوجيا بديلة!

* * *

أي مسؤولية للمفكر؟

لم تستثن سياسة الاسترهاب الدولي حتى حرم الفكر والمفكرين من هجمتها الكاسحة. بل لعلها رأت في دور المفكر وموقعيته، منطقة الخطر الكبرى. وذلك في جنبة اقتداره الطبيعي على دحض أكاذيبها والرفع من إيقاع الوعي بأبعادها ومخططاتها. ففي قبال الحث على محاصرة المفكر واللجوء إلى إعداد وصناعة بدائل ـ كفطائر الهمبرغر ـ ليكونوا كهنة هذا التلبيس في المفاهيم داخل الوطن العربي والإسلامي، أو إعادة النظر في منظومات التفكير العربية والإسلامية، وبرامج التعليم والتربية، كما بات يتردد على لسان المسؤولين في الدولة العظمى؛مقابل ذلك، كانت هناك أرتال من خبراء ومفكرين قد جندوا للقيام بحملات فكرية وأيديولوجية ضد الثقافة العربية والإسلامية، بوصفها ثقافة مناهضة للديمقراطية ومشجعة على الإرهاب. توجت تلك الدعاوى بأعمال من مستويات رفيعة في المشهد الفكري والسياسي والخبرائي، أمثال فوكوياما وهينتنغتون وفريدمان. . .

ومع أن هينتنغتون قد بدا لبعضهم في حالة تراجع قصويعن كل ما أثاره في كتابه المعنون بـ (صدام الحضارات)[1]، إلا أنه سبق وأشار الى تلك المفارقة التي يشهدها واقع النخب الفكرية والثقافية في العالم العربي والاسلامي. لقد كانت هذه النخب عشية الاستقلال بمثابة المدخل الطبيعي للإستعمار الجديد، والقنات المناسبة لتسريب القيم الغربيةإلى البيئة المحلية لهؤلاء المثقفين المنبهرين أيما انبهار بنمط الحياة والثقافة الغربيتين. لكن الآية

(١) بلا شك،ثمة أفكار أثارها هينتنغتون في الفترات الأخيرة بعد الحادي عشر من سبتمبر يبدو فيها أكثر اعتدالا،لاسيما ما يتعلق بموقفه من الحرب على العراق ومشكلة الإسلاموفوبيا. والواقع،أن من يقرأ صدام الحضارات بعين فاحصة،سوف يدرك أن هينتنغتون -بلا شك- فاتته الكثير من الحقائق.إلا أن جوهر فكرته حول صراع الحضارات هو تنبيه ووقاية من الوقوع في المحظور.ليس ثمة رسالة أكثر وضوحا في رسم الإكراه الثقافي والتغريب، بالإمبريالية واللاأخلاقية من رسالة هينتنغتون تلك!

تبدوا لهنتنغتون اليوم معكوسة تماما. حيث أصبحت الجماهير التي كانت قبل حين ترفض الثقافة الغربية، هي الأكثر انبهارا اليوم، الى حد بالغ في الاستلاب. هذا فيما النخب أصبحت في طليعة المواجهة مع الغرب. إن مثل هذا الحديث من شأنه أن يجعل هذه النخب في واجهة الاستهداف لسياسة الاسترهاب الاستباقي. واليوم أمام المفكر في هذه الديار المستهدفة دورا حاسما، تتراءى لنا أهم معالمه في الآتي:

١ ـ إنها لفرصة سانحة للمفكر، كي ينهض بدور مزدوج على خلفية التراجع الدراماتيكي لمنظومة القيم، سواء أتعلق الامر بالوضع المحلي أو الدولي.. فحينما تغيب الممارسة الاخلاقية وتنهار القيم وتلتبس المفاهيم، يبرز تلقائيا دور المثقف بوصفه طليعة التحرر والتنوير. وهذا الدور لن يكتمل ولن يصبح فعالا إلا بتعدي الحدود، ومعانقةالنشاطات الانسانية التي يضطلع بها مفكرون أحرار داخل المجتمعات الغربية نفسها، والذين يمثلون الوجه الآخر للغرب، لأجل تشكيل جبهة عالمية لمناهضة سياسة الاسترهاب الاستهلاكي وسياسة (الإرهاب الاستباقي).

٢ ـ لقد آن الأوان لهذا المفكر بأن ينهض من سبات هذا الهيام النخبوي المسرف ـ الذي كاد ينزاح به إلى موقف (لا مساس) ـ. آن الأوان لسامريي الأمة أن ينزلوا درجة من صومعاتهم للمساهمة قدر الوسع فيما يحمي أوطانهم وتقويض الأساطير التي تؤسس لما يستهدف حماهم من هذا الإرهاب الاستباقي. فالحديث عن ضرورة استقالة المثقف أو انتحار المفكر وعدم جدوى مشاريعه وما الى ذلك من ترديدات دعاة النهايات؛إن هي إلا خيانة لكيان استباحه الجهل وحل بفنائه التخلف والدجل.. فاذا كان غرامشي قد تحدث عن المثقف العضوي فما أحوجنا الى الحديث عن دور المفكر المسؤول!

٣ـ ليس سؤال التقدم بالضرورة مزاحما لسؤال التحرر والاستقلال، كما

طغى في بعض الادبيات الأيديولوجية. لا سيما بعد أن اتضح لنا اليوم بأن سؤال التحرر والاستقلال لا يزال سؤالا ناجزا للمرحلة، بحسب ما آلت إليه الاوضاع في العالم العربي. وليس غير المفكر، قادر على بيان العلاقة الجدلية بين سؤال التقدم وسؤال التحرر والاستقلال.

٤ـ ليس دور المفكر، أن يزيد الطين بلة، ليصبح خلف الاحداث تابعا، إمعة، مستبدلا فعل التفكر والتحليل بسحر التملق والترديد. بل المطلوب انتهاضه بمسؤوليته في التنوير بجراءة وعمق وتخلق. فقد يغدوا من الصعوبة بمكان، صمود أهل السياسة في السياسة، أمام هذا التحدي الإسترهابي. في حين، قد يتمتع المفكر بقدرات هائلة في الممانعة وفي تمرس لا نظير له عند أهل السياسة في دحض التزييف، وحماية ثقةالأمة بالمستقبل من خطر التيئيس!فحيثما غاب المفكر المسؤول طغت مظاهر الاستحمار وغلا ذهان الاستتباع؛ فلنحذر!

٥ـ لقد أثبتت الأحداث، بأن المفكر الغارق في حداثوية (خضراء الدمن)[١]، ليس بوسعه تقديم ما يقيم صلب أمته في الملمات وعند الأزمات. وها هي ذي فرصته كي يتصالح مع نفسه ويعيد رسم خريطة الطريق. ويعيد التفكير فيما لم يفكر فيه ـ بكسر الكاف مع تشديدهاـ أو ما لم يفكر فيه ـ بفتح الكاف وتشديدها ـ لأن المطلوب اليوم، هو تصعيد خيار التفكير الى أقصاه. فإما أن نفكر وإما أن يفكر عنا. إما أن نستأنف التفكير بعمق وحرية أو نتلاشى في خضم صراع الأمم؛فالمسألة، في تصورنا، أشبه من أي وقت مضى بالسؤال :لنكن أو لا نكون!

(١) هي كناية عن حداثة مغلوطة تفتقر إلى الماهية؛أو هي بالأحرى كما وصفها هينتنغتون بحالة التمزق. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. تماما كخضراء الدمن في موقعها المتاخم لجنسين مختلفين فهي أدنى درجات النباتية وأعلى درجات الترابية. فلا ندري أهي فوق حالة التخلف أم هي أدنى درجات التحديث؟!

٦ـ يتعين على المفكر المسؤول أن يجعل من الوحدة والتضامن أرضية إقلاعه الفكري. وأن يرتقي بخطاب الوحدة وفلسفة الإختلاف السعيد إلى أقصى حدوده الممكنة. فلا يستقيم دور المفكر المسؤول إلا بالوحدة وفي الوحدة. وفي مناخ يستمتع بحد أدنى من التعايش السلمي والوفاق الوطني وروح التضامن المحلي!

(٤)

نهاية تاريخ و نهاية أيديولوجيات
نهاية التاريخ بعد مرور أكثر من عقد على إعلانها
في لقاء مع فرنسيس فوكوياما

حوار و تقديم: ادريس هاني

إن أول ما يثير الإنتباه في حوارنا هذا مع داعية نهاية التاريخ، البروفسور فرنسيس فوكوياما، هو ظاهر التحلل من الموقف التمامي الذي رافق أطروحتين شغلتا العالم، ليس لأنهما أتيا بخوارق الفكر الذي كشفت عنه العبقرية النيوليبرالية أو جادت به قريحة العقل الأميركي، بل إن مصدر هذا النفوذ غير الطبيعي لفكرة مدفوعة بسكر الانتصار على المنافس السوفياتي إلى التعبير عن أقصى الحنين، لآراء الفيكتوريين الذين يجدون الآن في الولايات المتحدة فرصة تحقيق ما كانوا فشلو في تحقيقه خلال القرون الثلاثة الأخيرة. . وفي التحلل كما يبدو هذه الأيام من تمامية الصدام الحضاري التي حضرت بقوة في تحليل هينتنغتون أو نهاية التاريخ كما استعرضتها الإنشائيات الفلسفية لفوكوياما، نكشف عن الوجه الأيديولوجي للمقالتين المذكورتين. . هينتنغتون ينفي أن يكون كاهنا للعنف ضد الكيانات الثقافية الأخرى، كما يعلن أن النموذج الحضاراتي، ليس إلا محض نموذج قراءاتي يمكن أن يتم استبداله وربما قد تغير . . فوكوياما يتحلل من الطريقة التي تسعى من خلالها العسكرتارية الأمريكية لفرض قيم المجتمع الحر على العالم. . المشترك إذن

أن حركة البراء من سياسة بوش قائمة على أعلى مستوى من التنظير الفكري في الولايات المتحدة الأمريكية . . إنها سياسة لا تلتقي مع المضمون الفلسفي لمقولة صدام الحضارات ولا بالمضمون الفلسفي لمقولة نهاية التاريخ، فهل يمكن القول، أننا أمام نظرية ثالثة، تقيم صلحا بين وجهتي نظر على تمام الافتراق، أو لنقل نظرية تلفيقية تستقوي بالمضمون النهاياتي التبشير ي في انسياحها العسكرتاري كما تستقوي بالمضمون الإنزوائي والصدامي في استعلائيتها وتفردها النموذجي . . هذا ما قلناه واعتقدناه : أن قدرا من الإنتقاء حاضر في سياسة، كان أحرى أن تواجه بنظرية ثالثة، نافية، يمكن أن نسميها : نظرية نهاية تاريخ الصدام بين الحضارات!

إن هذا لا يمنع من مواصلة النقاش الحر حول كبرى القضايا والأفكار التي تتساقط علينا من سماء هذا الغلب المستدام . . كما لا يمنعنا من القول بأن قسما كبيرا من سوء القراءة لهاتين المقولتين لا يزال يرهن العقل العربي لأسوأ أشكال الأحكام هشاشة وتقلبا . . لذا تعين استمرارية النقاش ومواصلة الفهم والاستيعاب . . وفي هذا السياق لا يسعنا إلا أن نشكر المفكر الأمريكي ذي الأصل الياباني على هذا اللقاء . .

* * *

نص الحوار

س : سأفترض للإيديولوجيا مقومين، أحدهما حقيقتها الزائفة إزاء الواقع، والأخرى ضرورتها الوظيفية بالمنظور الاجتماعي. . . هذا على الأقل ما كشف عنه النقد الأيديولوجي منذ الازدراء النابوليوني التاريخي بالأيديولوجيين، مرورا بماركس وكارل مانهايم وانتهاءا بالتوسير وريكور. . قصدنا من ذلك أن نتساءل في ضوء مقولتكم حول نهاية التاريخ الذي يبدو وكأنه وعيد بنهاية حتمية للأيديولوجيات؟ هل معنى هذا أن هناك بالفعل تاريخا لنهاية مسلسل الزيف. . أم أن أيديولوجيا ما، غالبة ستفرض زيفها على التاريخ في نهاية المطاف بقوة الحضور والإكراه. . هل سيكون الرجل الأخير رجلا راشدا بالفعل، بمعنى أننا سنواجه نهاية حتمية للرجل الخطاء؟

ج : أظن أن رؤيتي تختلف قليلا عما ذكرتموه لأنني أومن بوجود نظام معين في التاريخ تقوده الليبرالية الاقتصادية والسياسية وقواها الفاعلة التي تنتهي إلى شكل معين من أشكال الاجتماع البشري. ولا أعني بذلك أنني أنطلق من تصور ماركسي أو نمذجة هيغلية للتاريخ، لأنني أرى في ذلك نوعا من الرؤية القووية للتاريخ. إنه ممر ضيق ذو مراحل جد مختلفة من التاريخ البشري، في حين أعتبر أن تصوري للتاريخ هو أقل قووية وأكثر مرونة، فمثلا أعتقد أن التحديث الاقتصادي غالبا ما يؤدي إلى مرتبة أعلى من الليبرالية السياسية وتوسيع دائرة المشاركة السياسية إلى أن تصبح هذه المجتمعات في صف الريادة. هذا من جهة وأعتقد أن الديمقراطية الليبرالية تصبح وتتخذ شكلا عقلانيا للاعتراف في ثقافة هذه المجتمعات التي تمرست على هذا النوع من النظام السوسيو- اقتصادي. ومع ذلك فهي ليست الشكل الوحيد للاجتماع البشري أو للجماعات، ولا النوع الوحيد للقيم. وربما هذا يقود إلى السلم السياسي بأسلوب عقلاني وسلمي. وبالرجوع إلى سؤالكم وعن ما أشرتم إليه من أن نظرية نهاية التاريخ هي أيديولوجيا، فإني أقول: ليست

أيديولوجيا بالمعنى الذي حملته تسمية أيديولوجيا منذ زمان، إن نهاية التاريخ هي أكثر من ذلك، إنها وصف وتحليل للأسلوب وللطريقة التي يتغير بها العالم ويطور بشكل أمبريقي نظامه السياسي في الزمان.

س : نحاول مقولة نهاية التاريخ أن تقدم نفسها بوصفها نهاية لجدل المثل الحالمة . . أو لنقل، الأشباح العالقة بالمعرفة . . . لكنها بالمعايير المنطقية تظل حلما ويوتوبيا تستقوي على العقل بضرب من الحجاج يستند إلى لحظات سكر القوة الليبرالية . . في أي مساحة من مساحات هذا الحلم النيوليبرالي المهجوس بالنهايات، يمكن أن يقيم حلم الإنسانية المعذبة بالعدالة الاجتماعية؟

ج : لم أقل يوما ما ولم أعني بنهاية التاريخ يوتوبيا معينة. لقد قلت فقط كيف يمكن تخيل طريق وأسلوب مختلف للتنظيم السياسي والمؤسسات الديمقراطية الليبرالية عبر الزمان لكي تجعل من الناس أكثر سعادة فقط، وهذا لا يعني أن الكل سيكون سعيدا كما لا يعني أن الناس سيتوقفون يوما عن الحلم. لأنه من الأكيد سيوجد أيضا الظلم وعدم المساواة ومشاكل أخرى لها علاقة ومدخلية في المجتمع الليبرالي.

لكن الإشكالية المطروحة هي، هل باستطاعتك حل هذه المشاكل دون مؤسسات ديمقراطية ودستور حديث، مثلا عن طريق منع الانتخابات ومنع التعددية الحزبية الديمقراطية، والحد من حرية التعبير. في حين أرى أنه من اللازم اتباع أسلوب ونوع آخر في التعبير، أسلوب يؤدي إلى حل هذه التناقضات ثم وضعها جانبا.

س : إن تاريخ البشرية هو تاريخ متواصل لأجل البحث عن الاعتراف . . هكذا أكد هيغل، وهكذا تأكد في مقولتكم " النهاياتية" . . هل تقيدون النزوع إلى الكرامة والاعتراف بختم الرجل الأخير . . ألا ترون في النزاعات التي تحدث اليوم في عالمنا ضد الهجمة الإمبريالية الجديدة برسم

الحرية والديمقراطية المغشوشة أو على الأقل المرهونة بالسياق الاستراتيجي وهجاس "المولنة" الاقتصادية، أنها نزاعا في اتجاه البحث عن الاعتراف؟

ج : حسنا، حقيقة أن هذا مشكل كبير وعويص في المجتمعات الليبرالية وهو كيف نحصل على الاعتراف ونقيمه في هذه المجتمعات بشكل حقيقي، لأنه وقبل كل شيء، هناك فقط نوع من الاعتراف الصوري والشكلي للبعض، ولأنك ككائن بشري في حاجة إلى حق، وإن كان صوري للمشاركة السياسي والتصويت والتعبير عن الذات، ولكن وبطريقة لينة - Softly - فإن شكل المجتمعات المعاصرة يحددها موقعها في التراتب الذي يتحكم فيه السوق وعوامل أخرى كثيرة. ومن الطبيعي أن يوجد هناك بعض الناس الذين يتذمرون من مثل هذا الوضع. وأعتقد أن هذا ضروري في طريق الاعتراف. الإشكالية الثانية، هي بعض من الناس، الأخيرين، لا يرغبون في المساواة في الاعتراف، يحبذون الاعتراف بمن له ثروة وتراكم أكبر، وهذا مؤثر آخر. الإشكالية الأخيرة للرجل الأخير هو أنه سيحاول في المجتمع الليبرالي تحقيق نمو ديمقراطي لكل أفراد وطبقات المجتمع. إن المساواة ثمن أيضا، وفي ظروف معينة لن تقبل و لن يتحقق الرضى عن هذا النوع من الاجتماع، فالناس سيشعرون بفراغ روحي ولاشيء سيملأ هذا الفضاء.

س : بين الأيديولوجيا "النهاياتية" الفوكويامية، والأيديولوجيا "الصداماتية" الهنتغتونية، مسافة الشرخ المنظوري في الاستراتيجية الأمريكية أو لنقل هما طرفا الشفاه الشرماء للأرنب البري الأسطوري كما في تأويلية ستراوس ؛ زهو الانتصار، والإحساس بالرهاب.. هل لنا أن نتعرف على طبيعة هذه المسافة؟

ج : أرى الأمر أكثر بساطة وسهولة من هذا. لأن هنتنغتون لا يؤمن بوجود نوع من القيم الكونية أو الثقافية أو حتى المؤسساتية. في حين أنني أعتقد أن الرغبة في العيش في مجتمع حديث هي رغبة كونية .. وبالنتيجة

العيش في حضارة كونية الديمقراطية الليبرالية ليست محددة بثقافة معينة ولا تقتصر على شعب دون آخر. رغم أنه من الجدير القول أن الديمقراطية تتطور اليوم في الغرب المسيحي، لكن أظن أن هناك مشاريع في آسيا وفي بعض البلدان الإسلامية في أفريقيا لأن الديمقراطية الليبرالية هي الشكل الأكثر ملائمة مع الطبيعة البشرية كنظام كوني مرغوب فيه. في حين أن هينتنغتون يقول بوجود حضارات متعددة ذات خصائص كاملة.

س : إلى أي حد تبدو لكم أيديولوجيا نهاية الأيديولوجيات، اختراعا ممهورا بسكر الغلبة العسكرتارية والانبعاث الفيكتوري. هل ترون في الملحمة النيوليبرالية بزعامة الرئيس بوش، آلية لتحقيق هذه النهاية أو بتعبير آخر، هل ترى بوش قريبا من مقولة نهاية التاريخ أم من مقولة صدام الحضارات؟

ج : لا أعتقد بوجود ارتباط مع أي من النظريتين، فالاستراتيجيا الأمريكية لا تؤمن بالتراتب. أكيد ومن الواضح أن بوش لديه تصور كوني يخص الرغبة والنزوع إلى الحرية. لكن إذا ما نظرت إلى السياسية الخارجية يصبح ذلك الحس تبسيطيا في مقارباته للقضايا والمشكلات في العالم. صحيح أن الرغبة في الحرية هي أمر كوني وعام كما هو المجتمع الليبرالي لكن ذلك يتطلب إنشاء مؤسسات ويتطلّب وقتا، إنه مسلسل صعب. إن التقدم الاجتماعي ينتهي بوضع شبيه بتجربة الحياة في المجتمع الحديث وأعتقد أن ذلك ليس أمرا يمكن تحقيقه بقوة السياسة الخارجية وبالسلطة، إنها تجربة تتطور عبر مراحل طبيعية تاريخية ولا يمكن فرضها بقوة. ربما بوش، بسياسته الحالية يثير نوعا من القلق والإحالة على نظريتي في نهاية التاريخ كما يمكن له أن يثير نظرية صدام الحضارات لهينتينغتون. لا يقصد ذلك مباشرة بطبيعة الحال، لكن مثل: ا طريقة معالجة الإرهاب في العالم ربما تزيد من دائرته وتغديه. لهذا أعتقد أن ذلك خطير جدا، كما أظن أن الهدف النهائي

جيد لكن طرق تحقيقه ليست كذلك.

س : ماذا بعد أكثر من عقد على مرور أول إعلان عن مقولة "نهاية التاريخ" .. هل لازلتم تتطلعون إلى هذه النهاية أم أن كبوة الرجل الأخير بدأت ترخي بظلال اليأس على كل التوقعات الأمريكية.. ما الذي تغير إذن؟

ج : من الواضح أنني سأكون ذاتيا في قراءة النظرية. لكن يمكنني القول تجاوزا أن " الجهاد" - Jihadisme - ومفاهيمه هي التحدي الأساسي لليبرالية، لأنه نوع مغاير من الأيديولوجيا، وربما الأشرس. لكن أظن أنه في النهاية لن يكتب له النجاح على الأقل سياسيا. هذا على مستوى التحدي الأيديولوجي. هناك تحدي من نوع آخر، وهو عدم قدرتنا على تحقيق نمو اقتصادي في عدة بلدان فقيرة، الغالبية منها في إفريقيا، وبدون نمو اقتصادي من الصعب إيجاد نظام ديمقراطي ليبرالي ومؤسسات. أخيرا أظن أنه لدينا مشكلا مع الديمقراطية على المستوى العالمي. لدينا ديمقراطية على مستوى الدولة ـ الأمة، مثلا: مؤسسات في بريطانيا أو الولايات المتحدة، لكن على مستوى العلاقة بين البلدان ليست هناك آليات للتنسيق. وأظن أن هذا أحد أكبر المشاكل التي تواجه الولايات المتحدة والعالم، وكذلك المشاركة الديمقراطية. كما أنني لازلت أومن بالتحديث وبمسلسل المنافسة الذي يقود إلى الديمقراطية السياسية. وبالرجوع إلى السياسة التي تنهجها الإدارة الأمريكية سواء في صيغتها القديمة أو الحالية، فإنها سياسة خاطئة بالكامل. لأنها تتخذ القوة سبيلا لتشريع التقدم والتطور الإقتصادي في حين أن هذا التطور يقوم على عوامل داخلية أولا endogène وإلا فستغرق في بحر من المشاكل.. لهذا يجب توخي الحذر الشديد قبل نهج مثل هذه السياسات. ولدي انطباع، أننا أمام خطر إذا لم نلغ ردود الفعل المتبادلة، وأعتقد أن الولايات المتحدة قد بالغت في ردة فعلها بعد أحداث سبتمبر، في حين يجب أن نكون أكثر عقلانية بالنظر إلى موقعنا في العالم اليوم، وبإمكاننا نهج سياسة

جديدة الآن. وأظن أن سؤالكم فيه الكثير من الصحة، لأنه بالفعل هناك العديد من العوامل المشتركة في الحضارات والثقافات المختلفة والتي يمكن أن تقود إلى مسلسل التحديث. مثلا هناك أدبيات مهمة مقارنة مع أسيا التي تأقلمت مع طبيعة العمل الرأسمالي. هناك أيضا مشاكل ناتجة عن العولمة. والتي أدت إلى الانكفاء على القيم الخاصة للمجتمعات. لكن كل الدول التي نجحت في مسلسل التحديث هي الدول التي استطاعت تجاوز ثقافتها. وأتاتورك، كان له هذا المشروع الكبير والطموح للحداثة الهندية- التركية، أظن أن هناك العديد من مصادر التحديث، لكنه مسلسل كوني . . وكما قلت أن النزوع للعيش في المجتمع الحديث تتقاسمه جميع شعوب العالم وإن كانت تسندها قيم خاصة ليست بالضرورة قيم غربية، لأنتهي بالقول أن هذا المسلسل ليس غربيا خالصا. والخطأ الذي ارتكبته إدارة بوش أنها لم تستطع استيعاب كون التحديث ينبع من الداخل، فأشاعت نوعا من الكراهية ضد الولايات المتحدة في العالم. وأظن أن التقرير الثالث حول التنمية البشرية في العالم العربي، أثار مواضيع الإصلاح السياسي ومختلف المشاريع في الشرق الأوسط، لكن أظن أن هناك صدمة خارجية هي التي أدت إلى تحريك الوضع. ولا أقصد هنا تبني نظرية الصدمة الخارجية، لكن يجب العمل جميعا من أجل حل مثل هذه المشاكل العالقة، وعلينا أن نتذكر أن دولة جنوب شرق أسيا قد مرت خلال مسيرتها التنموية بنظم شمولية ومتسلطة قبل أن تنفتح على النظم الأيديولوجية. ويجب التأكيد على أن هذه الحالة تقتصر على دول أسيا، لأن النظم الشمولية في الدول الأخرى لم تستطيع إبداع مشاريع للنهوض الاقتصادي، إذن ليس هناك لا نمو اقتصادي ولا ديمقراطية في هذه الحالات.

(٥)
آفاق المقاومة والتحدي المزدوج[١]
مصير المقاومة بين حسابات الإمبريالية الجديدة وحسابات الإرهاب الدخيل

لا وجود على المسرح الدولي للصدفة. وبالتالي ما من حدث إلا ووراءه استراتيجيا وأمامه استراتيجيا. ففي العلاقات الدولية، يجد الإنسان نفسه في فضاء مكتظ ومكتنز ومثقل بالاستراتيجيات التي هي التعبير السياسي عن وجود كيانات لها مصالح ومطالب محددة بموجب العلاقات الدولية التي يفرضها منطق السيادة. ومن هنا لا بد أن تتقارع مجمل الاستراتيجيات ؛ أن تلتقي أحيانا وأن تتناقض أخرى، نتيجة تضارب المصالح واختلاف النوايا. ففي العلاقات الدولية أيضا، ليس ثمة من ثابت سوى مادة المصلحة لا صورتها. وبعد ذلك تختلف كيفية تحقيق المصالح بحسب قوة النفوذ و مكنة السيطرة. ومادام العالم يتشكل من أطياف الكيانات السياسية التي تختلف بحسب مقدراتها وجغرافياتها وقوة جاذبية نموذجها الحضاري، فإن تقاطع الإستراتيجيات وتناقضها يفرض قانونا في اللعبة ؛ أن تدرك كل قوة ومدى فعالياتها. مما يعني أن المسرح الدولي هو مجال للصراع بامتياز. ثمة دول لا تهدف إلى أبعد من أن تضمن حقها في الوجود، ولو على الهامش. لكن ثمة

(١) ورقة مقدمة لمؤتمر ثقافة المقاومة: تحديات الواقع وآفاق المستقبل عقد بقاعة فندق الكومودور ببيروت في ٢٣ وأيار/ مايو ٢٠٠٦م

دولا أخرى تهدف إلى بسط النفوذ إلى أبعد مدى من جغرافيتها السياسية. تاريخ العلاقات الدولية يؤكد ذلك، ويقدم أدلة قاطعة على أن تاريخ العلاقات الدولية هو التاريخ الوحيد الذي يعيد نفسه باستمرار وأحيانا بصورة فاضحة. غير أنه لا بد من القول، أن العلاقات الدولية هي تاريخها الذي يستمر في التأثير على مفاصلها ويلهم أطراف الصراع آفاقا في إدارة سياساتها الخارجية بدينامية متجددة، لكنها تحتفظ بوفاء كبير إلى تاريخها. ويعلمنا تاريخ العلاقات الدولية بأن الصراع المستحكم مع القوى العظمى، هو الذي يحدد شروط اللعبة التي تنزل فوق رؤوس الكيانات الضعيفة. ففي كل مفصل من مفاصل تصادم الاستراتيجيات الكبرى، يتشكل عالم جديد، وترسم خرائط تحمل في طياتها بذور تناقضات مؤجلة، تجعل المستقبل مفتوحا على كل أشكال الاحتمال الممكنة. وفي حمأة الصراع، هناك دائما كيانات تولد وأخرى تطمس، وحقائق تطفو على السطح. ودائما يحاول المنتصر الاستئثار بقانون اللعبة، فيواجه أنواعا من المقاومات من قبل الآخرين، حتى لو كانوا من المنافسين الإمبرياليين، فيضطر حينئذ إلى التنازل عن بعض الشروط، فيكون التوافق، وإن ظلت الأيادي على الزناد. فليس ثمة من قانون دولي إلا ويحمل وراءه قصة صراع كبير ولعبة كبرى ومصالح مؤكدة وأخرى متوقعة. وسوف تصبح المشكلة أخطر فيما لو سمحت دولة عظمى لنفسها بأن تملي المصالح القومية سياستها الخارجية كما أكد ويلسون ذات مرة، قبل أن تصبح الويلسونية مجرد نزعة مثالية في التاريخ السياسي الأمريكي. يتعين على الباحث أن يتأمل صيرورة العلاقات الدولية وكيفية تولد المصائر في صلب صراع الإرادات والمصالح الدولية، والتمفصلات والمنعرجات التي سلكها النظام الدولي طيلة الثلاث قرون الأخيرة على الأقل. فمع غياب هذه الرؤية التاريخية، يصبح الحديث عن عن التحول في السلط والنفوذ والسيطرة، أمرا عفويا يدفع القوى الضعيفة للحيرة في بناء سياساتها وتحالفاتها، التي لا تملك منها سوى تلك المظاهر الخادعة والواجهة الكاذبة، وحيث يظل قيادها بيد

الكبار المتحكمين بقوانين اللعبة. على هذا الأساس، فإننا معنيون اليوم بالقول، أن بنية المنتظم الدولي، هي بنية مفتوحة على كل أشكال الصراع المحتمل. وأن الكيانات التي اكتسبت سيادتها على أسس هشة، شأن أكثر دول العالم الثالث، سوف تواجه تحدي التحول المستدام في موازين القوى وحجم التأثير في النظام الدولي. إن البنية المفتوحة للعلاقات الدولية تعطي إمكانية لإعادة تشكيل النظام الدولي باستمرار. وهي إمكانية ذات أهمية قصوى بالنسبة للدول ذوات الأطماع الكبيرة والاستراتيجيات النافذة. وهذا يعني أن الاستقرار الدولي أمر متوقف على التوازنات، التي بدورها تتشكل وتعيد تشكيل نفسها مما يجرف الكثير من المصالح وفرص الاستقرار في الدول الضعيفة. في عالمنا، هناك دول تسعى للتقدم والسباق في شكل ونوعية الوجود، ودول أخرى تعيش على سبيل اقتناص فرص الوجود المحض. فهي تعيش بغيرها لا بنفسها. ما يؤكد على أن فكرة السيادة والاستقلال لم تكن في يوم من الأيام إلا حكاية نسجت في خيالات الساسة لا في الواقع السياسي للدول.

على هذا الأساس ينقسم النظر إلى الصراع السياسي الدولي إلى منظورين ؛ منظور يكتفي بمراقبة السطح والهيام في الوصف واستقراء الحقيقة السياسية من جملة العوارض الطارئة على المشهد، وهناك منظور يغور أكثر في صلب الديناميات الخفية والمحركة للحدث الدولي، ويرمق تاريخية الحدث لا مجرد التسلية برؤية الفقاقيع والتموجات السطحية للحدث. ليس الفرق الوحيد في فهم ما يجري في العلاقات الدولية، أن نميز بين ما هو حادث بموجب الاستراتيجيا وبين ما هو حادث بموجب التكتيك. فهذا التقسيم غدا تقليديا، حتى وإن كان الكثير من المحللين والمراقبين في عالمنا المنكوب اليوم، متخلفين عن هذا المستوى من التمييز. بل إننا نعتقد أن ثمة تمييزا آخر يفرض نفسه في البين، يتعلق بالتمييز بين قراءة تاريخية للحدث

وقراءة فورية تفصل الأحداث عن تاريخها. إن المنظور الاستراتيجي نفسه قد يضيع المراقبين أحيانا، لا سيما وأن بعض أشكال الاستراتيجيا لم تعد تحمل شروط الاستراتيجية بقدر ما هي شكل من التكتيك الممطط الذي يستند في آنيته المحصورة على عامل القوة، الذي يكسبه أحيانا قدرة تأثيرية قصوى. ومن هنا نلاحظ أن ثمة تراجعا في صالح الاستراتيجيا الأمريكية لصالح هذا النوع من التكتيكات الممططة التي تبغي بها تحقيق ما يكفي من الفوضى البناءة، لتسهيل سياسة الاحتواء وإعادة تشكيل العالم على النمط الأمريكي. إن عمر الاستراتيجيا الأمريكية هو عمر إدارتها، أي بمعنى آخر أن هناك اضطراب كبير بين نزعتها المثالية ونزعتها الواقعية، والتي ليس بالضرورة أن حزبا ما من الحزبين الوحيدين النافذين في المشهد السياسي الأمريكي هو من يمثل هذا المنزع أو ذاك، خير تمثيل، فالمسألة أبعد مدى من ثقافة أو برنامج حزبين سياسيين. وبالتالي لا نعتقد أنها تسلك سياستها على وفق مبدأ تاسيتس[١]، على ما ذكر تشو مسكي، والذي مفاده، أنه متى ما افتضح أمر الجريمة فليس من مخرج أمامك إلا بتصعيد الوقاحة. نقول، إنه ليس في السياسة الدولية هذا القدر من الأخلاق أو تأنيب الضمير؛ ليس ثمة سوى المصلحة العمياء، وما تبقى من مظاهر الحكمة، يفسر بالمعامل القووي الذي يبدأ من سفح الهزيمة والاستسلام وينتهي إلى سدة القوة العمياء والاستكبار. ثمة ترددات تاريخية يتعين استحضارها في أي مقاربة للصراع الدولي. وبما أنه ليس في إمكان أي دولة أن تحافظ على تفوقها مهما ناورت، وبما أن لا وجود لسقف يحدد أين توصل القوة العمياء نفوذها، فإن جدل التشكل وإعادة التشكل هي الباراديغم الأكثر خفاءا من كل النماذج التي يستند إليها المحللون في فهم قوانين الصراع الدولي.

في حمأة الصراع وقوانينه الخفية، تصبح الشعارات السياسية والإنسانية

(١) نعوم تشومسكي، قوى وآفاق، ص١٩، ت ياسين الحاج صالحط دار الحصاد. دمشق ط.١ سنة ١٩٩٨

مجرد قرابين تثوي خلفها إرادات ومصالح لا تقيم وزنا لمبدأ أو قيمة ما. لقد تجاوزت الولايات المتحدة الأمريكية رائدة الامبريالية الجديدة، على لسان ويلسون ذلك المنظور البيسماركي التقليدي للسياسة بوصفها فن الممكن، حيث قال الرئيس الأمريكي يومها: " مع الرب.. كل الأشياء ممكنة"!

من الممكن أن نحاسب القوى العظمى بمعايير أخلاقية ونلزمها بمبدأ التناقض المنطقي. لكن مثل هذا لا يقدم ولا يؤخر في النظام الدولي المحكوم بتوازنات قووية تجعل القيم والشعارات مطية وواجهة تخفي حماقات الارادات وجنون الرغبة في توسيع مديات النفوذ. لقد أكسبت الحرب العالمية الثانية روزفيلت الصراحة الكافية للحديث عن حصر شرطة العالم في أربع دول ستحكم العالم بالقوة؛ الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا والصين. وليس أمام غيرها من دول العالم سوى الإذعان لشروط الكبار، فلا بد أن تكون بقية العالم في وضع استسلام وعليه" أن ينزع سلاحه. فإذا وجد الحلفاء أن أمما تخادع في ذلك، فإنها ستواجه بالتهديد أولا تفرض حجر عليها، وإذا فشل ذلك فستواجه بالقصف"[١]. إن منطق القوة لا يستحضر قوة المنطق. وإذا كان مبدأ التناقض قد احتل أصل الأصول المنطقية، فإنه في منطق الصراع الخفي، هو آخر مبدأ ممكن، وهو عنوان الخروج من سكر القوة والدخول في مرحلة الهزيمة. إن مجال الصراع مجال يتسع لكل أشكال الثالث المرفوع. وفي أكثر الأحيان تكون المفارقة هي أصل الأصول في منطق الصراع. فالعرض هو" أن القوة تحطم القوة والصراع يمنع الصراع والعسكرة تحطم العسكرة والحرب تمنع الحرب"[٢]. على هذا الأساس أردنا القول بأن وجود الولايات المتحدة الأمريكية في واجهة

(١) في رسالة له إلى راف إم.مولوتوف.أنظر والتر أ. مكدوجال، أرض الميعاد والدولة الصليبية ص ٢٢١، ت رضا هلال ط١ / ٢٠٠٠ دار الشروق. مصر

(٢) من كلام بوراي، انظر المصدر نفسه ص ٢٠٤

الإمبريالية الجديدة، بعنفها التدميري الذي سعى منذ الحرب العالمية الثانية لوضع شروط إعادة تشكيل العالم، قبل أن يواجه مقاومة من المستوى القطبي نفسه؛ أي صعود نجم الاتحاد السوفياتي، ليس مجردا عن تاريخ صراعي مع أشكال من الإمبريالية الأوربية التي كانت في الأصل منبع نشوء الدولة العظمى الجديدة، والمسؤول عن كل ما آل إليه العالم بما في ذلك منطقة الشرق الأوسط. لم تولد الهيمنة الأمريكية من فراغ، بل هي الوريث الشرعي لأكثر أشكال الإحتلالات كلاسيكية في التاريخ الحديث، أي: فرنسا وبريطانيا. وأن نهاية عصر الامبريالية، ليس سوى نهاية شكل من أشكال الامبريالية. فمتى غابت الآلهة حلت الأشباح كما يقولون. ليس ثمة من فراغ. والمنطقة التي لا توجد فيها ممانعة طبيعية، ليست منطقة مستهدفة فحسب، بل هي في المنظور الإمبريالي، منطقة منزوعة السيادة سلفا. وسوف ندرك بعد ذلك لماذا تكمن الأهمية في استحضار هذا الجانب من تاريخية نشوء وتولد نزعة التدخل في السياسة الخارجية لهذه الدولة العظمى. لكننا نكتفي الآن بالقول أن مبدأ مونرو كان حقا صدمة كبيرة بالنسبة لأوربا العجوز. وهو الذي سرعان ما سيتحول إلى عقيدة مقدسة استطاعت في نهاية المطاف التأثير على العقل السياسي الأمريكي، وإيقاف النزوع الإمبريالي الأوربي في اتجاه الغرب قبل أن يتمدد هذا النزوع إلى داخل أوربا ـ باتجاه بريطانيا ـ نفسها مع ويلسون وبعد الحرب العالمية الثانية حيث استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن توسع من مبدأ مونرو باتجاه الشرق الأوسط وباقي مناطق العالم، وتحديدا سيتحقق الجزء الأكبر من هذه الاستراتيجيا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي. كان مبدأ مونرو ضربة قوية، أعطت أهمية لما سمي بعد ذلك بالفرادة الأمريكية، والاهتمام بمجال نفوذها الخاص، وكبح جماح أوربا للتدخل في المجال الداخلي للأمريكيتين معا. وبناء نوع من العلاقة الحذرة مع أوربا خارج منطق التحالف. الأمر الذي جعل شخصا مهما في التاريخ السياسي الأوربي الحديث يعتبره المبدأ المذكور، مبدءا وقحا واستكباريا وشاذا ولا

مبرر له. ومع أن المبدأ في صيغته الأولى لم يكن أكثر من إعلان عن أن الأمريكيتين لم تعودا بعد اليوم محلا للاستعمار، إلا أن احتقار الساسة الأوربيين بمن فيهم روسيا القيصرية وتأسفهم على نمو هذه الدولة الجديدة الثائرة في وجه الميتروبول، لم يكن له من مبرر هو الآخر سوى إذا اعتبرناه صدمة من داخل الغرب الكبير الذي تصدع إلى حد ما بفعل المناورات السياسية للولايات المتحدة الأمريكية الفتية، التي مزقت خرائط نفوذه، وخلقت نوعا من التعددية في الاستراتيجيا الغربية ومجالات النفوذ وبسط اليد. والحق فإن ما سمي بعدها بعبادة المونروية[1] ليست سوى رد الفعل الطبيعي للقوة الناشئة لتحتل كل النفوذ الإمبريالي المكتسب للغرب التقليدي. إن الامبريالية الجديدة التي ورثت كل قواعد اللعبة ومجال النفوذ، بعد أن أعاد هيتلر أوربا إلى وضع أكثر هشاشة حيث باتت في عين الحليف المنافس في أقصى الغرب بمثابة الرجل المريض. لقد كان وراء أكثر الوقائع السياسية التي حددت مصائر الدول ورسمت قواعد النظام الدولي، أشد الصراعات الحادة، منذ الحرب العالمية الأولى ومعاهدة فرساي وعصبة الأمم ونشوء الكيان الصهيوني المحتل والحرب العالمية الثانية وهيئة الأمم المتحدة ونظام بروتن وودز ومنظمة التجارة الدولية وحرب الخليج الأولى والثانية والحرب على الإرهاب. الكل يوظف لصالح الكل، وخلف الفوضى الجارفة يوجد القانون الخفي لصراع الارادات والقوى الكبرى. أصبح واضحا أن التعويل على النظام الدولي بمنطق المعايير والقيم والأعراف الدولية، والتعاطي مع أطراف الصراع وبناء التحالفات بمنطق الثقة المطلقة دون حساب التحول في موازين القوى ومنطق الأحلاف، لم يعد فقط غير مجدي كما يقولون، بل لم يكن في يوم هو الطريق الصحيح في العلاقات الدولية. إن منطق الاحتواء الذي سلكته الولايات المتحدة الأمريكية منذ ويلسون، تجاه أوربا وبعد ذلك

(١) يعود الوصف أعلاه إلى المؤرخ توماس بيلي، انظر المصدر، ص ٩٥

إبان الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي، لم يكن سوى التجسيد العملي للمبدأ الخالد للعلاقات الدولية: لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة بل مصلحة دائمة! وبالفعل، يبدو ترنح الدول الضعيفة في صراعها من أجل البقاء ومن أجل الحد الأدنى من مصالحها المشروعة وقضاياها العادلة وموجبات السيادة، بين أوربا والولايات المتحدة، هو في الأصل ترنح بين قوتين تتجهان نحو مستقبل مليء بالمفاجآت. فالغرب الذي بدا اليوم متوحدا في الظاهر يختزن كل مظاهر الصراع الذي يلوح في الأفق متى ما رست مجالات الصدع الكبرى للنفوذ الأمريكي في ما وراء البحار. إذا كانت أوربا وبالتالي أمريكا قد وحد بينها الاقتصاد، فإن ذلك مجرد محطة لتفجير مستقبل زاخر بالتناقضات وصراع النفوذ. إن الاقتصاد سيكون أول عامل سيمزق الوحدة الأوربية والتحالف الغربي. فأوربا الموحدة أمر مزعج لأمريكي التي نجحت منذ ويلسون في احتواء بريطانيا، لإضعاف أوربا أو بالأحرى لانتزاع الدولة الأوربية الأكثر تأثيرا من باقي الدول الأوربية. كما أن أمريكا مستأثرة بالنفوذ دون أوربا، أمر مزعج لأوربا. ليس ثمة دولة من هذه الدول تعمل على أجندة منسجمة مع القوانين الدولية، بل هي تسعى للامتداد والنفوذ بالمقدار الذي يمكنها فعله. هذا تحديدا يفسر كل المواقف الأوربية التي لا تزال يوما بعد يوم تفاجئ أصدقاءها العرب بتذبذب مواقفها وتقلبات سياساتها. وقد يكون من الغرابة أن نتحدث عن الحليف الأوربي ؛ لأن مثل ذلك ليس له معنى إذا تعلق الأمر بمواجهة الأطماع الأمريكية وبالتالي الصهيونية في المنطقة. ففرنسا التي وقفت في وجه احتلال العراق متذرعة بمبدأ سيادة الدول، لم تفعل ذلك تشبثا منها بالقانون الدولي وحرمة الأمم المتحدة، بل فعلت ذلك لأن مجالا للنفوذ سوف يصبح تحت الهيمنة الأمريكية. ولأنها لم تستوعب الصفعة الأمريكية التي غيرت كل اتفاقياتها مع النظام العراقي المخلوع، وإلا فإن فرنسا هي هي نفسها التي ناورت بكل خبث سياسي للدفع بالتدخل وغزو سوريا ولبنان، وهي نفسها التي هددت باستعمال

السلاح النووي ضد أي دولة تهدد المصالح والأمن الفرنسيين. وعليه، فليس أمام الشعوب والقوى الممانعة سوى أن تناور بما فيه الكفاية داخل هذا التصدع البنيوي في نظام التحالف الغربي الذي سيظل كذلك.

الصراع على النفط أمر لا تحجبه الخطابات التضليلية الأمريكية التي ترى أن الهدف الرئيسي من احتلال العراق لا يستحضر المعامل النفطي، من حيث وجود بدائل في السوق العالمية، وحيث النفط بالنتيجة معروض للبيع. هكذا تميع الاستراتيجيا الكبرى للولايات المتحدة وتغير ثيماتها لصالح ضرب من التهريج، الذي يواصل عبر التكرار الممل مسخ الحقائق، وممارسة الوقاحة بواجهة إعلامية يغلب عليها فن الصورة والإيحاء والتغليط. ففي منطقة يوجد فيها أكبر احتياطي للطاقة في العالم، ليس في وسع القوى المهيمنة إلا أن تواصل الصراع على الأرض، والعمل على شطب تاريخ وثقافة أمم تعيش فوق هذا الرأسمال الطاقي برهانات حضارية تربك المعادلة الصراعية الكبرى. إن صعود القوى الممانعة في المنطقة، غير وجهة الصراع، وفرض دخول المقاومة في صلب المعادلة. فإذا كانت الامبريالية سعت ولا زالت من أجل التطبيع، فإن المقاومة كانت قد استطاعت، ليس فقط أن تربك سياسة التطبيع فقط، بل رسخت شكلا من الثقافة بوسائل لا تقل كفاءة لترسيخ نوع آخر من التطبيع ؛ تطبيع المقاومة وإحداث تجدد في العلاقة المحلية مع مبدأ المقاومة. فبقدر ما تسعى الامبريالية عبر وسائل الإعلام محاصرة المقاومة واختزالها في عنوان الإرهاب، فإنها تخفي مكتسبات الفعل المقاوم على الأرض، كما تخفي حجم العنف الذي كلف الولايات المتحدة الأمريكية تأمين الحد الأدنى من النفوذ في المنطقة. إن حجم التسلح ونشوء قوى عسكرية في المنطقة لم يعد يسمح بالتعاطي مع الشأن الشرق أوسطي باليسر الذي كان بالأمس، ما يعني أن المنطقة لا تزال في هذا الانقلاب في المعادلة مدينة للمقاومة، ليس فقط من حيث أنها أحرزت تقدما على خريطة

التحرير، بل لأنها استطاعت أن تحرر الإنسان العربي والمسلم من مظاهر عقل الهزيمة. يتعين على المقاومة حينئذ أن تتولى بنفسها كتابة تاريخها، وإحصاء منجزاتها، داخل هذا الموج السلبي والردة الهزيمية التي عاودت الهيمنة على بعض الرؤوس. قد يكون من مصلحة الامبريالية أن يحصي عنها خصومها عدد التدخلات العسكرية وحجم التدمير الكبير الذي تستطيع بوقاحتها المعهودة أن تحوله إلى مادة إعلامية للرعب الأمريكي. إنها الحرب النفسية التي أتقنتها القوة العظمى، وبنت عليها كل مجدها الحديث. لكن علينا أن نغير من منطق الوصف والرصد والإحصاء، ونحاسب هذه المنجزات التدميرية بحساب الربح والخسارة، وصلة ذلك بالفعل المقاوم:

* * *

هل نجحت الامبريالية في تحقيق أحلامها في المنطقة؟

هذا السؤال على بساطته يحمل استفزازا كبيرا لهذا النوع من الإحصائيات المرعبة لتاريخ سياسة التدخل الأمريكي وحجم التدمير الذي أحدثه جهازه العسكري في العالم. مستفز لأنه لا ينظر إلى الحدث، بل إلى الاستراتيجيا التي حركت الحدث، فيوزن بين حجم الأطماع وبين الحصيلة على الأرض. وحتما إن كل ذلك التراجع والتباين بين خط بيان الأحلام وخط بيان المحصلة الواقعية للحدث، يعود الفضل فيه إلى الفعل المقاوم.

يعتبر المشروع الصهيوني في طليعة المشكلات التي يواجهها العالم العربي. ويكفي وجود هذا الكيان النشاز بكل ما تعني الكلمة من معنى لتدرك أن وجوده أصبح خطرا شموليا، لا ينتهي مفعوله عند مجرد نصر أو هزيمة عسكرية. بل تتجلى خطورته في أنه حتى مع فرض الاعتراف بإسرائيل، لا يتم ذلك إلا على أساس اتفاقيات مثقلة ترهن السلام والاستقرار في المنطقة ببنود جلية مفادها إعادة تشكيل الشرق الأوسط بشروط إسرائيلية. وبنود خفية تضع سقفا بنيويا للإنماء العربي والإسلامي، لحماية التفوق الإسرائيلي في المنطقة. إن وجود المشروع الصهيوني بهذه الرهانات، كافي لجعل الفعل المقاوم المستدام ضرورة إنمائية وحضارية. ومع كل ذلك ورغم الوجع المستمر، وتنفذ القوى العظمى، نستطيع أن نقيس بين أحلام اليقظة التي استبدت بمخترعي الكيان الصهيوني الذي تكاملت أسطورته داخل تداعيات الصراع الاجتماعي والثقافي والسياسي الأوربي، وبين ما هو اليوم مسجل على أديم الأرض. إن دولة استعمارية تعيش على التصعيد العسكري منذ أزيد من نصف قرن، في بحر عربي وإسلامي، هو أكبر مأزق لكيان مصطنع. غير أن الملفت للنظر، هو أن الأحلام المتورمة لإسرائيل تبخرت بشكل كبير، إذ لم يعد في وسعها أن تستمر في تأجيل حدودها التي بات واضحا أنها تنكمش بفعل المقاومة المستمرة. إن انسحاب إسرائيل من جزء من جنوب لبنان على

يد حزب الله، وتراجعها داخل فلسطين بفعل العمل الفدائي لحماس والجهاد، جعل أسطورة إسرائيل الممتدة من النهر إلى النهر، أمرا يزعج الذاكرة الصهيونية أكثر مما يسيل لعابها. لقد قالها هينتنغتون يوما، بأن أمريكا لا يمكنها الاستمرار في بسط هيمنتها على العالم. وما يبدوا اليوم من أشكال التدخل، كشف عن وجود فخاخ كبرى، ستؤدي حتما إلى فرض تراجعات في مشروع الهيمنة التامة على المنطقة. كل هذا التطور في معادلة الصراع، لم يكن بفعل الحروب الكلاسيكية التي، لم تسمح بتقدم الكيان المحتل إلى مزيد من الأراضي العربية، بل كرست عقل الهزيمة في جيل بكامله. أجل : كل ما أربك أحلام اليقظة الصهيونية، كان ولا يزال هو الفعل المقاوم. إن إسرائيل لن تهدأ ولن تعيش في بحر من الممانعة العربية والإسلامية، إنها دولة قدر لها أن تعيش تحت الرعاية الدائمة للولايات المتحدة الأمريكية. إنها تعيش في وضع أسوء مما يمكن أن تعيشه دولة ضعيفة في جنوب أفريقيا أو الشرق الأقصى.

من جهة أخرى، فإن بين مفهوم الاستراتيجيا الأمريكية ومنطوقها على الأرض، قصة هذا الفشل الذريع الذي جعل العراق الذي بدا منتجعا مليئا بالورود إلى مستنقع غرقت فيه الولايات المتحدة الأمريكية. إن منطق الصراع والقانون الخفي للاحتلال، يؤكد على أن ما من بلد احتل إلا ويخضع كليا لإرادة المحتل. وكما جرى على الأقل في اليابان بعد الهزيمة، كانت الاستراتيجيا الأمريكية واضحة: حكومة عسكرية، أن يكتب دستور جديد لليابان ممنوح، وتنتزع كل مظاهر السيادة من الدولة المهزومة وتملى كل الشروط من قبل المنتصر. دخلت أمريكا بهذا الحلم بعد أن جوعت الشعب العراقي أكثر من عقد من الزمان وجعلت منه بلدا منكوبا، يعج بالموتى والأمراض والأوبئة . . وقد تطلب منها الأمر كل هذه الحكاية التوريطية ـ على كل حال ـ من جلبي، لكي تقدم إلى العراق في انتظار تحقيق مخططاتها

المعلنة وغير المعلنة. لم يكن الفعل المقاوم يتجلى هذه المرة، في حجم التفجيرات، الذي أصبح اليوم صناعة إرهابية محض في عراق، لا يحتاج إلا إلى بعض الهدوء الذي يسمح بتصعيد العملية السياسية، ليعجل برحيل المحتل الأمريكي بصورة ناعمة، لكنها مذلة. فعرس الدم العراقي اليوم، إن هو إلا تلك المعادلة المعقدة التي يتبادل فيها الأدوار ضمن تحالف موضوعي بين الاحتلال والإرهاب. لكن ما يحدث في العراق هو ضغط سياسي كبير، مكن العراق من سحب البساط سياسيا من تحت أقدام الاحتلال. لقد أرغمت إدارة الاحتلال عبر الضغط والعصيان المدني والإيحاءات القوية للقوى السياسية النافذة في العراق، إلى التراجع عن مخططاتها التقليدية وأرغمت بر يمار على مغادرة العراق والتعجيل بالانتخابات التي هي مطلب تاريخي للشعب العراقي، وكتابة الدستور بتوافق عراقي وعرضه على الشعب قبل إقراره بواسطة الاستفتاء، ووصول المعارضة العراقية ذات التاريخ المقاوم إلى سدة الحكم رغم كل المناورات الأمريكية. إن ما ترجوه القوة المحتلة للعراق اليوم هو الخروج بماء الوجه، بعد أن أدركت أن ما يسمى مقاومة ـ وهي للأسف لا تستهدف سوى الأبرياء والأماكن العمومية والآهلة بالسكان ـ ليست سوى أمرا عارضا، حيث ما يهم الاحتلال الآن، أن يحقق خروجه ولا يقف بالقوة أمام إرادة الشعب العراقي، حيث المقاومة العراقية الحقيقية الصامتة، هي رسالة مقروءة ومفهومة من الاحتلال، ولذلك نعتقد أن العراق هو في نهاية المطاف انتصر وسينتصر أكثر بعد رحيل الاحتلال المتوقع، لأنه غير مجرى الحلم الأمريكية التعيس في المنطقة. فالمقاومة قد تكون سياسية وقد تكون غير ذلك بحسب الشروط التي تفرضها المرحلة.

* * *

إذن هل نجحت أمريكا وإسرائيل في المنطقة؟

تواجه الدولتان معا تحدي إصرار المنطقة ممثلة في شعوبها وقوى الصمود والممانعة على المقاومة، ما دفعهما إلى الفشل والتراجع وتصعيد الموقف، حيث ليس أمامهما سوى أن يجربا آخر ما تبقى من عناصر القوة لتليين إرادة الشعوب، لا سيما بعد أن قادهما الفشل في تمرير كل مشاريعها في العراق، إلى هذا النوع من التعويض الساذج بالقوة. إن التذرع بالإرهاب، والإصرار على خلط المفاهيم، سيجعلهما في تحدي مع الشعوب التواقة إلى الحرية والكرامة. وبعد أن حاولت الإدارة الأمريكية إقناع العالم بالخطورة الأسطورية لحفنة من الإرهابيين، فإنها سرعان ما وجدت نفسها تترنح داخل أنشوطة تصاعد الوعي الجماهيري بخبث اللعبة الامبريالية وفساد الضمير العالمي، حيث أن وراء حركات التحرر إرادة جماعية للشعوب. ولقد غرق الضمير الأمريكي والصهيوني الفاسد في مستنقع القضية الفلسطينية، لا سيما بعد نجاح حركة حماس، وبعد أن كان وصولها إلى سدة الحكم، قرارا حرا لشعب ينشد التحرر والتحرير. لقد نجح الشعب الفلسطيني ومقاومته في أن يفضحوا أمام العالم زيف القيم التي تتترس بها الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن كشفت عن سياسة تعسفية تبغي قتل شعب بكامله وتجويعه والمزايدة بقوت أبنائه وفقرائه لتركيعه وسلبه إرادته الحرة. وقد حدث مثل ذلك كثيرا، لما جوعت شعبا بكامله في العراق قبل أن تتخذ قرار صب أطنان القنابل فوق رؤوس البؤساء الجوعى من العراقيين.

لم تنجح الولايات المتحدة ولا الكيان الصهيوني إذن في كامل مشاريعه. رغم هذا الرعب المادي والنفسي الذي حاولا تكريسه في المنطقة. فقد يكون من الغباء أن تعبر إسرائيل اليوم عن عجزها في شراسة عسكريتاريتها وحمامات الدم التي تقيمها في الأراضي الفلسطينية المحتلة. دخلت الأيديولوجيا الصهيونية منتفخة إلى المنطقة، ورسمت خرائطها الممتدة

من النهر إلى النهر، لكن سرعان ما تبخر الحلم، واليوم تحاول إسرائيل أن تحتفظ برقعة ضيقة في بحر عربي وإسلامي لم يسلم لها في التطبيع الكامل. ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى العراق وفي أجندتها كما ذكرنا، فرض دستورها وحكومتها العسكرية، لكنها تفاجأ بأن بقاءها في العراق مجرد ورطة يجب أن تتخلص منها في أقرب الآجال. وفي كل ذلك كانت المقاومة هي المعامل الأساسي الذي غير معادلة الصراع، وأكسب العالم العربي والإسلامي انتصارات ولو جزئية، لكنها انتصارات منحتها المقاومة قيمة رمزية، خففت وزر الهزائم التي أراد المحتل أن يحولها إلى ثقافة عربية.

* * *

إننا في تحدي.. إذن حذاري من الهزيمة النفسية.

إن كل ما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل يدخل في إطار الحرب النفسية. فلا شك في أن ما تستطيع تحقيقه هذه الدول بالقوة فإنها تبادر إليه من دون تلويح بالقوة. ولقد طال وعيدها للعراق ولم تجرأ على غزوه إلا بعد أن تبين لها أنها ستغزوا أرضا غيبت الديكتاتورية إرادة شعبها ورسمت بينها وبينه جدارا من الصمت. فماذا كانت تريد أمريكا من العراق وماذا استطاعت أن تحقق على الأرض، حتى نعرف ما مدى فشلها أمام موج الممانعة على مستوياتها المختلفة. وماذا أرادت إسرائيل من الشعب الفلسطيني وماذا استطاعت ان تحقق على الارض حتى نعرف مقدار فشلها في تحقيق مخططاتها الكبرى؟ إننا نعتقد أنه من الضروري أن تكتب المقاومة تاريخها وتقدم فواتير ما اشترته بدمها، وإحصاءا لمنجزاتها، لأن ذلك يدخل أيضا، ليس فقط في مواجهة الحرب النفسية، بل في كتابة التاريخ الحقيقي لحركة الشعوب الحرة.

* * *

الخلط بين الإرهاب والمقاومة؛ مغالطة أمريكية

لم يتجه سلاح المقاومة، سواء في جنوب لبنان أو الأراضي الفلسطينية المحتلة خارج منطقة الاحتلال. وفي منطقة محتلة واستيطان قسري وعسكرة شاملة، يكون العمل المقاوم أمرا مشروعا حسب كل الموازين والشرائع والأعراف الإنسانية والدولية. ومع ذلك تمنح الوقاحة لنفسها فرصة لتجريم الفعل المقاوم، استدماجه ضمن ملحمة الحرب على الإرهاب، الذي لم تشأ حتى الآن أن تحدد له تعريفا يميزه عن الفعل المقاوم، من حيث ليس من طريق غيره للدفاع عن سيادة الشعوب واستقلالها وتقرير مصيرها وتحرير أوطانها. وفي مثل هذه الظروف يتعين على المقاومة أن تبادر هي نفسها إلى وضع تعريف حقيقي للإرهاب وللمقاومة، وتضع فيصلا جوهريا بين الاثنين. ليس لأن الارهاب يشكل بدوره تحديا للمقاومة ويتغذى على سمعتها ويصدر ثقافة الموت الرخيص ويميع الفعل الاستشهادي باسم المقاومة فحسب، بل لأن المقاومة سوف تواجه فصولا من المناورات الامبريالية التي ستعمد على مزيد من خلط الأوراق وأشكال من الحروب القذرة والدفع باتجاه الفوضى، لننيل من شرف القضية الوطنية ووتحييد الفعل المقاوم من المواجهة.

* * *

الإرهاب خطير، لكنه عارض

تحمل المقاومة مصداقيتها في حجم منجزاتها وفي اللغة الإنسانية التي يصدقها الوجدان العام وفي عمق القاعدة الشعبية التي تقف بولائها وقناعتها وعواطفها وراء الفعل المقاوم. ومن هنا تستطيع الامبريالية أن تلاحق حفنة من الإرهابيين في عزلة عن الشعب، كما فعلت إلى حد ما في أفغانستان أو العراق، لكنها أمام الفعل المقاوم الحقيقي، لن تستطيع عزل المقاومة عن الشعب، حيث إن كان الإرهابي يتترس بالشعب، فإن المقاوم يشكل ترسا للشعب. يموت المقاوم من اجل شعبه ووطنه، لكن الإرهابي يقتل الشعب ليحيى. ومع ذلك يشكل الشعب سدا منيعا يحمي المقاومة. وحينئذ تضطر الامبريالية إلى معاقبة شعب بكامله لما تريد إنزال العقوبة بالمقاومة المشروعة كما حصل في فلسطين.

يتجلى الفارق الجوهري بين الموضوعين، فضلا عن أخلاقيات الأداء المقاوم، في مشروعية الملف المطلبي. أي من خلال الدرجة الصفر للمشروع السياسي والاجتماعي للإرهاب، مقابل اختزال المقاومة لكل الأهداف الوطنية والحضارية لأمة من الأمم.

ليس للإرهاب أجندة واضحة، غير نشر الفوضى والإثخان في الحرب. وهو يزداد جنونا متى فرض عليه التراجع عن مواقع نفوذه أو ووجه في ميدان تنفيذ جرائمه المنكرة. . كما تزداد أهدافه غموضا متى أحرز تقدما في تسديد ضارباته للخصم. الإرهاب لا يملك أن يكون مقاوما على الأرض لصالح الارض، لأنه لا يملك تاريخا يفتخر به ولا جغرافيا تحتضن أحلامه. وهو لذلك لا وطن له ولا لون له . . هو تصعيد يلخص فوران العنف، ويمثل طقس تبادل العنف أو ما أسماه بوديار بتبادل الموت. ليس فقط يمكننا القول، أن الإرهاب لا يحمل برنامجا سياسيا واجتماعيا وحضاريا، لأنه لا يملك شعبا يمثله ولا أرضا يبتغي عمرانها فحسب، بل هولا يملك حتى

أجندة المقاومة من أجل التحرير. ففي الوقت الذي يبدو فيه رمز المقاومة كاشفا عن وجهه أمام شعبه وعدوه، مدركا لحدود ما يجب في حق الشعب وما لا يجب، يزداد الإرهاب تخفيا ؛ مستغرقا في الاستمتاع بسادية الرعب وفيتشية تمامية التلثم. فإذا كانت الشعوب يجب أن تكرم بالتحرير في نظر المقاوم، فهي تقدم في موكب قرابين الموت العبثي و كحطب في أفران الموت. وهذا أمر يمكن استقراؤه من خلال متوالية من التساؤلات المشروعة في وجه الإرهاب الذي يقدم كل مسوغات استقواء ونفوذ ومصداقية الاحتلال، كما لو كان الحليف الاستراتيجي للاحتلال وصناعته التي تمهد له الطريق إلى مزيد من الإحتلالات تحت شعار الحرب الطويلة على الإرهاب. هل الإرهاب يؤمن بحق الشعوب في تقرير المصير.. وهل هو مستعد لأن يتراجع لمصلحة بناء دولة واستقرار وطن؟ إن أهداف الإرهاب بعيدة وبعيدة جدا، تتعدى كل غايات المقاومة التي تشرك شعوبها في القرارات الكبرى وتكون تعبيرا عن إرادة الأمم. ففي الوقت الذي تستقوي فيه الشعوب بمقاومتها تجد الشعوب ترعب وتفقد قرارها تحت طائلة الإرهاب الذي يختفي وراءها ويضعها في خطوط التماس لعملياته القذرة. وفي كل الأحوال لا أحد منا تساءل يوما هل يقبل هؤلاء بمعنى ومفهوم المقاومة، أم أن أغيارهم أطلقوا عليهم ذلك في محاولة لحرف الحقيقة المرة، قبل أن يعيدها التاريخ في يوم مشهود إلى مسارها الصحيح؟!

* * *

منطق المقاومة

تهدف الحملات الإعلامية المضللة اليوم التشكيك في المسوغ المنطقي لوجود واستمرار الفعل المقاوم. وحيث أن الإعلام هو جزء من هذه الحرب الطويلة الأمد وجزء من سياسة الحرب القذرة التي ترعاها قوى الاستعمار الحديث، فإننا نشهد اليوم كبرى المفارقات التي تستهين بكل المسلمات التي دان بها العقل السياسي الحديث، بدءا بسياسة الكيل بمكيالين إلى حد لم يعد ينفع معه التنديد والاحتجاج، حتى من داخل أكبر مؤسسات المجتمع الدولي، وانتهاء بالمشهد التناقضي الذي يقدم نفسه عاريا وببشاعة منقطعة النظير: إرهاب دولة واستعمار وغزو وتدمير وجرائم في حق الإنسانية واحتلالات غاشمة وتفقير وتجويع جماعي للنوع يمارس بوقاحة وفي كرنفالية تستمد مشروعيتها من منطق القوة والرعب والاستكبار الذي بلغ حدود شل الارادة والقرار الدوليين، في قبال تبشيع لكبرى القيم التي تتوسل بها الارادة الوطنية في نشدان تحررها واستقلالها. إنه الانقلاب الكبير على كل القيم التي نهضت عليها حضارة الانسان المعاصرة، وقرصنة لأهم المبادئ التي أسس بموجبها المجتمع الدولي. وأمام هذا الفارق الكبير في إعلان الصورة الحقيقية لصراع الارادات والنفوذ، يطرح سؤال بديهي: هل حقا عصر المقاومة ولى بلا رجعة. . وهل حقا لم يعد في جعبة المقاومة وحركة التحرر الوطني ما تقدمه اليوم؟

إذا كانت صور وأشكال الاستعمار الكلاسيكي قد أطلت علينا بوحشية مرعبة، وتحارل أن تسلب منا كل مقومات الوجود والبقاء، فإن سؤالا كهذا، يصبح في حكم الأسئلة البائسة الغبية التي وجد الإعلام التضليلي لها متلقيا مهزوما، وهو حقا ما كان يسميه المرحوم مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار. وعلى عكس الصورة المضللة عن جدوى المقاومة، تقدم هذه الأخيرة نفسها بمثابة السلاح الأخير للشعوب المكافحة من أجل التحرير. فما دام أن

الشعوب لا تموت، فإن المقاومة هي إكسير بقائها، خالدة بقيمها وتشبثها بتاريخها وأرضها. لقد استطاع كيمياء المقاومة وحده أن يستدمج كل الاستقصات والعناصر التي تمنح للوجود البشري معنى، أي: عنصر التحرر والكرامة والسيادة والاستقلال، وأيضا استطاعت أن تحتضن كل المديات والاعتبارات التي تقوم بها العناصر سالفة الذكر: الاعتبار الوطني والاعتبار القومي والاعتبار الإسلامي والاعتبار الثالثي والاعتبار الإنساني. وقد حققت المقاومة مع اتساع رقعة الاعتبارات انتصارا استراتيجيا كبيرا. ففي ضوء حساب الربح والخسارة يمكننا أن نرجع كل هذا المنجز التحرري بقليله وكثيره إلى فعل المقاومة. لقد أعادت المقاومة التوازن إلى المنطقة، بل وأعادت الهيبة للمجال العربي والإسلامي، من حيث لم يعد يشكل لقمة سائغة لارادات الغزو. من هنا نعتقد أنه في حساب الاستراتيجيا وأيضا حساب التاريخ أن ما حدث من غزو على العراق، كان أمرا مهما على خطورته، لأنه أدى وظيفتين مهمتين: الأولى أنه أنهى قصة طاغية جلب الدمار والعار للمنطقة برعونته المشهودة ومغامراته الغبية وتدميره للمجتمع العراقي، والثانية أن العراق قدم النموذج المعبر في تاريخ الغزو الأمريكي للمنطقة، حيث كشف عن فساد الضمير الأمريكي في يوميات التفكيك والبناء للدولة العراقية، وأيضا قدم درسا على أن غزو المنطقة مهما بدا النظام فاسدا وضعيفا، لن يكون على أي حال نزهة قصيرة. سيسجل التاريخ حتما وستعي كل القوى التي لا زال يراودها الحنين إلى ماضي الغزو في أحلام اليقظة بأن الاستعمار لم يعد ممكنا. ونحن ندرك تماما بأن المقاومة الموجودة في العراق هي مقاومة سياسية أدركت بحكم حجم حضورها بأنها تملك من النفس ما يجعل مجرد المقاومة السياسية كافي لإشعار المحتل باستحالة البقاء على أرض العراق. وهو يدرك تماما أن المقاومة الحقيقية في العراق لو أصبحت خيارا نهائيا ويتولاه الشعب العراقي وقواه الحقيقية لتغيرت المعادلة. وما دام الشعب العراقي في أغلبيته الصامتة لم يلجأ للخيار الأخير، فلأنه فطن

إلى حجم قوة المحتل، وبأنه لا يملك أن يستمر في العراق متى انتزعت منه كل مبررات الوجود، مع بناء الدولة العراقية الجديدة. هناك صراع صامت بين المحتل والشعب يدار بسياسة عالية. لكن هذا كافي لأن يحبط ما كان يدور في رؤس الغزاة الذين دخلوا العراق، لا لكي يختار الشعب حكومته ويكتب دستوره بملئ إرادته، بل لقد كان في الاجندة ما لم يتحمله وضع العراق كما ذكرنا. فذلك هو درس العراق البطل، الذي يجب أن نعترف بأن عظمته ليست محصورة في ما يبدو عمليات إرهابية تحصد الأبرياء، فالعراق والمقاومة العراقية الصامتة التي لا زالت تملك في جعبتها بعض الخيارات، هي التي حاصرت المحتل وليس بعض الفرقعات هنا أو هناك. وفي لبنان أحدثت المقاومة انقلابا استراتيجيا، غير الموازين، وقدم النموذج الصحيح لما ينبغي أن تكون عليه الأمة لما تصبح أمة حرة تملك إرادة حقيقية. قدمت المقاومة اللبنانية رؤية متكاملة عن الفعل المقاوم، نشأت في حضن التحدي والوجع وسرعان ما نمت وشبت وترعرعت ونضجت فكبرت بإنجازاتها وكبر معها الوطن، وكبر معها العالم العربي والإسلامي. لما قامت بما لم تقم به جيوش عربية جرارة، كانت على بسالتها مشلولة القوى بفعل الإحساس بالهزيمة وفساد الإدارة. وحتما إن المقاومة كانت قد كشفت للشعوب العربية والإسلامية وكذا كشفت للجيوش العربية والإسلامية هشاشة عدو تغذى ردحا من الزمان على إحساسنا بالهزيمة. فالمقاومة اليوم تعدت كونها درسا للشعوب، بل هي درس للجيوش العربية والإسلامية بالدرجة الأولى. والمنجز المقاومي لا يتجلى فحسب في أن قطعة أرض تحررت هنا أو هناك، على عظمة الإنجاز، بل القيمة هي معنوية ورمزية، حيث قيمة القيم في الفعل المقاوم وفي إنجاز المقاومة هو عودة الروح إلى قلوب أماتها مسلسل الاندحارات بالنكسة والهزيمة التي أصبحت جزءا من كياننا، سكنت الوجدان العربي وطال مكثها.

لقد قدمت المقاومة نموذجا ناجحا في إدارة الصراع. ليس في حجم ونوعية العمليات البطولية التي قادها شباب في عمر الزهور في هذا البلد الصغير بحجم الجغرافيا الكبير في حجم التاريخ والحضارة فحسب، بل في أنها قدمت نموذجا للسلم المجتمعي والتعايش الجواني، وحصر العدو الاستراتيجي. لقد ساهمت المقاومة اللبنانية في إرساء الأمن الداخلي ووجهت البندقية للمحتل، وعاقرت اللغة السياسية الكفيلة والتقنية الحديثة في إدارة الصراع. لكنها اليوم وفي لحظة مفصلية من تاريخها، دخلت المقاومة مرحلة التكتكة في أوج خطورتها. فهي اليوم تقضم من الداخل وهناك ضباع تتربص بها وتحاول خدش أطرافها وإشعالها وإنهاك قواها، لأنها لا تملك مواجهتها بانفراد ولا وجها لوجه إلا بحيلة العاجز.. وحسابات التكتكة على أهميتها متى ما أوليت أهمية أكبر فهي تربك الاستراتيجيا.. والحال أن المطلوب هو تحقيق تجادل كبير بين التكتيك والاستراتيجيا بفعل حركة مناوراتية عالية..

* * *

وإذن لا بد من مبادرة للتعريف

الدعوة إلى مؤتمر دولي لوضع تعريف حول الإرهاب، دعوة يتيمة لم تجد لها صدى في عالم يحكمه الكبار على أساس الكيل بمكيالين. غير أن التمسك بهذه الدعوة لم يعد يجدي شيئا مع استفحال سكر الاستكبار والعربدة الامبريالية التي لم تعد تجد في القانون الدولي مطية مناسبة لتمرير كل مشاريعها فوق الرؤوس. إننا بالتأكيد نعيش في مرحلة حساسة من عمر الامبريالية الجديدة، حيث من الخطأ القول أن للقانون السلطة النهائية في المجال الدولي. فكل ما يجري يتحرك ضمن لعبة سياسية تستخدم فيها كل عناصر المناورة، حيث ليس القانون إلا واحدا من تلك العناصر التي يلجأ إليها عند الاقتضاء. ومتى كانت السياسية حاكما على القانون، فكل الاحتمالات واردة. إن تاريخ العلاقات الدولية اليوم يؤكد على أن اللجوء للقانون الدولي لم يكن إلا عند استنفاذ شروط اللعبة السياسية أو خدعة تؤمن مواقف سياسية غير مشروعة. فالاحتكام إلى القانون الدولي واللجوء إلى حاكميته بيد خاوية من أسباب القوة، لم يعد سوى موالا ساذجا، في هذا الزمن الرمادي الذي لا يزال مدينا للقوة في كل مدى من مدياته. وإذا كان المنتظم الدولي قد وجد عشية الحرب العالمية الثانية نفسه ملزما باحترام تقرير المصير، حيث أرغمت الولايات المتحدة الأمريكية رائدة الحلفاء حينئذ أوربا الكولونيالية بهذا المبدأ، لتقليص نفوذها من عالم المستعمرات ولتفتح المجال للنفوذ الأمريكي الجديد في العالم، فإن المبدأ اليوم لم يعد يجدي طالما القوة الإمبريالية اليوم التي دافعت بالأمس عن هذا المبدأ هي اليوم التي تواجه تحدي حركات التحرر الوطني. وحينئذ يتعين أن لا ينتظر العالم إرادة الإجماع الدولي حول تعريف دقيق وجامع مانع عن الإرهاب، حيث الامبريالية الجديدة تملك أكبر احتياطي للمناورة داخل الأمم المتحدة ومجلس الأمن بواسطة سلطة الفيتو والقوة الضغط. فتكفي مبادرة القوى التحررية في

العالم لتضع هي نفسها تعريفا للإرهاب، وتناضل من أجل تكريسه إعلاميا. يتشارك في ذلك كل القوى الحية من العالم الثالث وكل المعنيين بالتهديد أو من لهم على الأقل علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع قضايا التحرر الوطني. إن المعنى يفرض على المنتظم الدولي بصيرورة العمل الجاد والمتواصل وبإصرار الشعوب على حقها في تقرير مصيرها، وليس بالتوافق والتراضي. إن المفاهيم تدخل إلى حيز التداول العالمي بقهر التعين لا بالمواضعات. وسوف تجد قوى الاستكبار العالمي نفسها في مواجهة حقائق على الأرض، ومفاهيم تكتسب شرعيتها من واقع الصمود والممانعة، ومن نظافة وسائل المقاومة حتى لا يأكل من سمعتها جنون الإرهاب الذي بات أفيد وسيلة للإمبريالية الجديدة، وإن تلبس بالمقاومة زيفا.

أمام المقاومة أجندة مثقلة، وهذه المرة ستجد نفسها أمام تحدي رعونة الاستبداد العاري والاستعمار والإرهاب.. ستجد أمامها شعارات كرنفالية لا تقل أهمية عن المهمة الحضارية للولايات المتحدة الأمريكية لنشر الديمقراطية في العالم.. سيكذبون كثيرا، رغم أنهم يمتلكون أكبر احتياطي لممارسة العنف حد الشطط، وسيجعلوننا نحلم بعوالم لا تقل خيالا عن أطماعهم البعيدة.. والمطلوب أن لا نصدق، حيث لا مجال إلا للحذر والفعل المقاوم حتى لو استعادت الويلسونية عنفوانها وهي تخاطب العالم بأن "فكرة أمريكا هي أن تخدم الإنسانية".. ذلك وكما قال الرافعي يوما:

سيحدثونك يابني عن السلام
إياك أن تصغي إلى هذا الكلام
كالطفل يخدع بالمنى حتى ينام
لا سلم أو يجلو عن الوجه الرغام
صدقتهم يوما فآوتني الخيام!

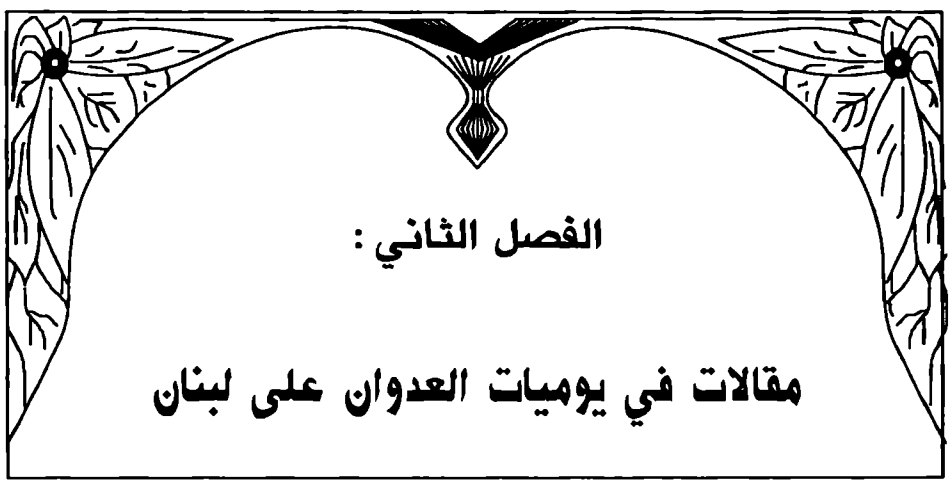

الفصل الثاني :

مقالات في يوميات العدوان على لبنان

الحرب الجبانة على لبنان

آخر الفرص لمصالحة النظم العربية مع شعوبها..

تعيش لبنان هذه الأيام ظرفية صعبة، على إثر الاعتداء الإسرائيلي الذي حدد أهدافه في إبادة المدنيين وتدمير كبرى المنشآت والبنى التحتية للدولة والمجتمع اللبنانيين. يحمل الاعتداء السافر وراءه جملة من التساؤلات: هل إذا كان الهدف من الاعتداء هو القضاء على حزب الله أو إنقاذ الجنديين المختطفين من قبل الحزب نفسه، فما فائدة اعتداء بهذا الحجم؟! حيث مثل هذا الاعتداء لن يسحق سوى المدنيين ومؤسسات الدولة، ولن يحقق الغرض. اختارت إسرائيل الانتقام من المجتمع اللبناني، لتؤكدت على جبن حربيتها. حيث ما لم تواجه قوات الحزب على الأرض، فلن تستطع تدميره ولا إنقاذ الجنديين. لم تكن المقاومة مغامرة ـ وإن كان الفعل المقاوم يتطلب قدرا من المغامرة أيضا ـ في عمليتها النوعية التي أحبطت كل الأساطير التي سيجت بعها إسرائيل نفسها، من حيث أنها الدولة التي تملك من تكنولوجيا الرصد ما لا يسمح باختراق ذبابة مهملة للمجال الإسرائيلي الاحتلالي. اختطاف جنديين وقتل ثمانية آخرين وتدمير ثلاث دبابات مقابل استشهاد مقاوم، كان لا بد أن يرجو الشهادة بعد أن عمر أكثر من اللازم في منطق مقاوم، حيث تم انضمامه إلى صفوفها منذ بداية الثمانينيات، وخلف وراءه عشرة أبناء؛ أي عشرة مشاريع لتعزيز ثقافة المقاومة. عملية ناجحة وشرف أضيف للمقاومة في زمن الذل العربي وهشاشة نظمه السياسية. على إثر هذه العملية ساد صمت عربي كالعادة ؛ لكنه خرق ببعض التصريحات النشاز،

وفي توقيت يعتبر فيه أي تصريح نشاز، خدمة مجانية لإسرائيل وغطاءا يسند تبريراتها الواهية على أفعالها الإجرامية. ليس لإسرائيل الحق في التعلل بأنها لا تقوم إلا بردود أفعال، بعد كل ما فعلته في الشعبين الفلسطيني و اللبناني. بل لا حق لها في التعلل بذلك وهي تحتل أراضي عربية وتناور من أجل إجهاض سلام عادل وشامل في المنطقة وتشكل طابورا إمبرياليا في المنطقة. كل أعمال إسرائيل هي أفعال انتهاكية لحرمة الإنسان العربي وخرق للقوانين الدولية وتآمر على سيادة الدول العربية واستقلالها وتنميتها. بل لا يزال تحرشها بلبنان وقيامها بالتآمر وزعزعة وضعه الأمني ورج وحدته الوطنية حيث مثلت جريمة اغتيال السيد رفيق الحريري منعطفا كبيرا في التحرش بلبنان واستهداف وحدته الوطنية، وهو فصل من فصول إيجاد مسوغات تدميره، بعد أن أدركت عجزها عن الهيمنة عليه في هزيمتها التاريخية، التي اضطرتها للانسحاب من الشريط الحدودي من دون شروط. لكن في نهاية المطاف هي أصوات تعبر عن شيء ما تجاوزته المقاومة بامتياز: ثقافة الهزيمة!

تعلل الكثيرون بأن المقاومة أقدمت على أمر ما كان ينبغي أن تقدم عليه. ولعله من الغباء السياسي أن طالبها البعض بالتنسيق مع الحكومة اللبنانية، التي هي جزء منها بلا شك؛ كما لو كان الجسم السياسي اللبناني منسجما، لا سيما في التطورات السياسية الأخيرة، حتى يقبل بهذا النوع من التنسيق. فالعقل المهزوم والنزعة الخيانية التي وسمت السياسة العربية وبعض أبنائها، لا تسمح بهذا النوع من التنسيق، على الأقل في هذا الزمان العربي الانهزامي. إذا كان بعض الخونة لا يجدون مندوحة من الوشاية بدول عربية كبرى في حربها مع إسرائيل، كيف لا ينبري خائن من هنا أو هناك لتقديم المقاومة كبش فداء لإسرائيل. ثمة مشكل الثقة الذي لا يزال يربك الكثير من التماسك اللبناني على صعيد رهاناته الاستراتيجية، وليس مجرد الحديث عن

تماسك صوري أو مجمل لا يحقق الغرض. إن للمقاومة حساباتها وللنظم حساباتها أيضا. وكم كان الوضع خطيرا على لبنان لو كان الجيش منتشرا في الجنوب أو تم التنسيق مع الجيش في تنفيذ عملية الاختطاف. إن التوقيت الذي اختارته المقاومة جاء مناسبا، لأنه أخرج المنطقة من الصمت المضروب حيال الانتهاكات الإسرائيلية اليومية على قطاع غزة. كانت المقاومة هي الصوت الوحيد الذي خفف الوطأة على الشعب الفلسطيني.

أمام هذا المشهد التدمير والاحتلالي، لم يكن أبشع من الموقف الأمريكي كما عبر عنه جورج بوش في المؤتمر الصحفي بحضور المبعوث الألماني، بأن من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها ضد من يدمر منشآتها ويقتل الأبرياء. ولا يتستحق الأمر وقوفا طويلا عند كلمات بوش التي أكدت عبر كل المنعطفات بأنه لا يفعل سوى أن يخفي نزقه السياسي خلف واجهة النفوذ والقوة الأمريكية. ولكن أحيانا يفرض الحمق على العقلاء أن يحاجوا بعض الأفكار، فبعض الحكماء قد يصدقون ذلك أحيانا، أو على رأي المثل: إن الحمقى يصنعون الموضى، والحكماء يقلدونهم. إن الحديث من قبل دولة عظمى بهذا النزق الذي يمنح إسرائيل الضوء الأخضر لمزيد من التدمير لشعب أعزل، وفي حالة استعراضية للقوة وصلت حدود اللامعنى في ظل انعدام التكافؤ العسكري، وحيث يظهر المشهد التآمري فاضحا من خلال الفيتو الأمريكي في مجلس الأمن، ضد مشروع مقدم لأجل الضغط على إسرائيل لإيقاف عملياتها التدميرية لقطاع غزة، وهو أهون ما يمكن فعله حيال جريمة الإبادة الإسرائيلية اليومية للشعب الفلسطيني.

لم تقتل المقاومة أبرياء في إسرائيل، بل قصاراها أسرت جنديين كانا على تمام الجهوزية على مشارف لبنان الذي لا تزال بعض مزارعه تحت سيطرة الاحتلال. ولم يدمروا بيتا بل دمروا دبابات دخلت معهم في مواجهة في ميدان العمليات العسكرية. إن الأبرياء في نظر بوش الجاهل، هم الجيش

الإسرائيلي نفسه حتى لو كان حارسا لاحتلال مزارع شبعا. لقد استمر الصمت الأمريكي حيال التدمير والإبادة التي تنهجها إسرائيل وتقتل بموجبها الأبرياء في لبنان وقبل ذلك في الأراضي الفلسطينية المحتلة. وهو صمت فاضح غير مبرر. إسرائيل تدمر وأمريكا تشكل لها أكبر غطاء دولي. فماذا يراد من المقاومة سوى أن تواصل التحدي وتستند إلى إمكاناتها وقراءتها للمشهد، في ظل استهتار فاق كونه استهتارا بكرامة الإنسان العربي وسيادة دوله وأمن أقطاره، ليتعدى إلى الاستهتار بالقيم والأعراف والمؤسسات الدولية؟!

لقد جاءت العملية متزامنة مع جملة من الوقائع، حيث يبدو بعضها حاسما. وحيث بات الوضع صعبا على الولايات المتحدة، بعد فشلها الذريع في إدارة الملف الأمني في العراق؛ فشلا جعل وجودها الاحتلالي للعراق سببا لانتشار الإرهاب والفوضى وعرقلة التوافقات العراقية باحتكار الملف الأمني العراقي، وأحيانا التواطأ الضمني مع الإرهاب لإجهاض كل محاولة توافقية تقوي العملية السياسية والدولة العراقية الجديدة. وهو الفشل نفسه الذي منيت به في أفغانستان. والعجز عن مواجهة مشكلة الملف النووي الإيراني والكوري الشمالي، و المقاومة الفلسطينية. .

هل تفكر أمريكا بغزو سورية وإيران؟! ليس للأمريكان نموذج انجح من العراق. لقد استطاعت هذه الأخيرة أن تسقط ديكتاتورا وعميلا سابقا لها، لم يجد الحماية من شعبه. فكان غزوا ناعما، وإن لم يثن القوات الأمريكية عن إسقاط أعتى قذائفها وقنابلها التدميرية فوق رؤوس العزل والأبرياء، أسهل من هزيمة وجودها أو إمكان خروجها بماء الوجه. لكنها ماذا ستفعل بالنسبة لدول هي بلا شك أقوى وأكثر تماسكا بين القيادة والشعب من عراق قبيل الإحتلال، مدمرا ومحاصرا ومحبطا. وهل بالإمكان أن تتصور بأن غزوا كهذا لن يكون نزهة أو مهرجانا لتقديم باقات ورود توزع عليها في الشارع

العربي؟! أم أنه سيكون بداية اندحار الدولة العظمى؟

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية لا زالت لم ترتدع من نموذج العراق، ولا زالت تتحدث اللغة العسكرية التقليدية لما قبل غزو العراق، في الهذيان الخطابي المعهود على بهلوان الحروب الأمريكية، فإنها تدرك، متى أمعنت في قراءة المشهد، أن الشرق الأوسط أفرز تحديا جديدا. إن الدور الإسرائيلي قد يكون دورا مهما بالوكالة لجس نبض الصمود العربي والإسلامي في المنطقة. وهي تدرك لا محالة أن الصمت العربي دائما، هو صمت خادع غرري لا يشكل معيارا يشجع على استمرار الاعتداءات. فالمجال العربي يعيش استثناء، بحيث في ظل الأزمات والاعتداءات فقط، تطبخ الخيارات النوعية للشعوب الحرة. وتفرز نماذج من الصمود والتحدي وتبتكر من أساليب ردع العدوان ما يفاجئ حسابات المحتل. فوراء الصمت العربي، هناك دائما غيلان الشعوب التي يصهرها ويكشف عن معدنها النفيس قوة التحدي وصدمات الاحتلال وعبثيته. نعم، إن اعتداء حقيقيا واتساع رقعة الحرب من شأنه أن يضعف الموقف الرسمي العربي. لكن هذا سيطلق المارد الشعبي وفرصته في النضال من أجل استقلاله وكرامته. فلو أقدمت إسرائيل مثلا على ضرب سورية، فإن العراق سوف يصبح مستنقعا جديدا للفوضى، وربما ستخسر الولايات المتحدة حتى مكسب الأغلبية الصامتة. بل إن ذلك سيفرض وضعا جديدا. إن دخول إسرائيل وخروجها من سوريا، سيفتح جبهة الجولان والمقاومة السورية. والتحرش بإيران من شأنه أن يفتح على إسرائيل جبهة هي الأخطر من نوعها في تاريخ الصراع العربي ـ الإسرائيلي. إن إسرائيل تنسى أحيانا أنها في مواقفها من إيران، تتعامل مع دولة إسلامية لكنها غير عربية ولم تشكل جزءا من المنظومة العربية المهزومة. قصة إسرائيل وأساطيرها الحديثة المرعبة، لا تقع في الذهن الإيراني وقعها على الذهن العربي الرسمي. لن تكون هذه الأيام كما أكد عليها أولمرت، أليمة على

إسرائيل فحسب، بل إن استمرارها في العدوان والإمعان في الوهم بأنه لا يزال يجديها العمل على إيقاع آثار الهزيمة العربية، سيجعلها تعيش ما هو أكبر من الأيام الأليمة. حيث كل آثار التدمير الذي تقوم بها إسرائيل في لبنان أو ما يمكن أن تحدثه آلياتها الحربية من دمار في أي دولة عربية أخرى، لن يكون حاسما في الحرب، بقدر ما هو عامل تحرير للعقل العربي من كل أسباب الحرص والخوف. . يحتاج الإنسان العربي أن يقف على قاع صفصف، حتى يعرف كيف يصمد ويواجه التحدي. ليست للعالم العربي من البنى التحتية الحقيقية ما هو جدير أن يخاف عليه، حتى يتنازل عن الدفاع عن كرامته. فكل ما لديه من بنى تحتية يمكن أن يبنيه رجل أعمال عربي أحمق هنا أو هناك، وهو بالتأكيد لا يساوي مقدار البنية التحتية التي يتمتع بها زقاق من أزقة البلاد المتقدمة الكبرى، أو ما في مقدور ميزانية في بلدية داخل هذه الدول. إن البنى التحيتية العربية المزيفة والهشة، والتي ليست لها مردودية إلا على حفنة من المنتفعين على حساب الكرامة العربية، هي واحدة من مسببات خوافنا المرعب. إن كان هناك من يخاف على بناه التحتية، فهو إسرائيل. وحتما لا يمكن للبنان وشعبه أن يبيع كرامته ومجده التاريخي وسيادته الوطنية "كرمة" لـ " سوليدير "!

إن العقل العربي المهزوم هو الحارس الأول والأخير لإسرائيل، حيث أن انتهاكها للأعراف الدولية وتعنتها وإذلالها للإنسان العربي، هو أمر مرفوض من قبل كل العرب والمسلمين بمن فيهم الواقعون في منظومة الهزيمة. ليس في صالح النظم العربية أن تستمر إسرائيل في هيمنتها على المنطقة. ولا في مصلحتهم أن تستكبر الولايات المتحدة. لقد أخطأ العرب يوم ظنوا أن التسليم لإسرائيل والإمضاء على أجندتها بكرم حاتمي سيجعل علاقتهم مع أمريكا علاقة جادة. لقد كشف مسلسل غزو العراق والحرب على الإرهاب، أن أمريكا تتحرش بالنظم العربية بما فيها حليفاتها. لتؤكد

على أن منطق الأحلاف هو نفسه يعيش حالة من التمييز العرقي والاستراتيجي. فمصلحة النظم هي في تماسك جبهتها الداخلية ومصالحتها مع شعوبها، وتصعيد فعل المناورة. إن الصمود والقوة هو من يفرض الاحترام ويعزز العلاقات السوية مع هذه الدول. لقد احتقرت إسرائيل وأمريكا النظام العربي، لأنه مهزوم ولأنه غير قابل لثقافة المقاومة. إن المنعطف الجديد في الحرب على لبنان، هو فرصة للنظام العربي لكي يخرج من منظومته المهزومة، وينخرط في أجندة التحدي والصمود. ليس ثمة خوف على النظام العربي من شعوبه، حتى لو جاعت من أجل الدفاع عن كرامتها. إنها فرصة المصالحة الحقيقية بين النظم مع شعوبها على خلفية ثقافة جديدة؛ ثقافة الصمود والمقاومة والتحدي. ففي ذلك يكمن المستقبل الأفضل للعرب والمسلمين، حيث ليس في مكنة الولايات المتحدة ولا إسرائيل أن تبيد العرب. إذا كان خوف النظم العربية على سلطتها أو على خزائنها ومصالحها. فإن طيبة الشعب العربي ورباطة جأشه، تقبل بكل شئ إلا بأن تمحى كرامته. فشعب له قدرة على الصبر والصمود، ويستطيع أن يفترش الرمل ويلتحف السماء ويصبر على العطش كالجمل ويأكل من عشب الأرض، لقادر على أن يجود بكل هذا من أجل كرامة لا يعرف العربي أن يعيش سويا من دون إحرازها. فإن كان هذا هو مصدر الخوف ؛ فخذوا السلطة وكلوها واشبعوا منها وتقيؤوها، وخذوا من ميزانية هذه الدول أغلبه ووزعوا ما طاب لكم مما تبقى من ذلك النزر القليل على هذا الشعب؛ خذوا كل شيء، ولا تبالوا. لكن حذار، من الوقوف في وجه كرامة الشعب العربي!

* * *

إسرائيل لا تحاربنا..

ربما سيتعجب القارئ من عنوان كهذا، بعد أن عاث الكيان الصهيوني المجرم فسادا في الأرض، ودمر البلاد والعباد. فهل يعقل أن يقال إن إسرائيل هي ذلك الحمل الوديع الذي أخرجته المقاومة من طيبته وهدوءه. أو كما قال راعي الغنم الأمريكي ذات مرة : إنه من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها!؟ حسنا هو ذا بيت القصيد. لقد كان من المفروض بحساب أولئك الذين دوخونا بأسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يقهر، أن يجهز الكيان الغاصب على المقاوم اللبناني، وترسانته ومنصاته الصاروخية التي أمطرت سماء عكا وحيفا وباقي شمال فلسطين المحتلة بمئات الصواريخ. بل كان متوقعا من جبش ـ ليس مطلوبا منه أن يكون أخلاقيا، إذ لا أخلاق انبنى عليه وجود الكيان الصهيوني أصلا ـ أن يخوضها حربا برية. لكن إسرائيل حتى الآن تدمر الأطفال والشيوخ والنساء والعزل. قتلت الألوف ولم تقتل عشرة مقاومين، عرفوا كيف يحولرها إلى حكاية وهمية ليس لها من وجود إلا في الذاكرة العربية المهزومة، وحيث لا يزال الحنين يأخذها إلى الهزيمة. اليوم، تبدو إسرائيل وكأنها لم توفر من ذخيرتها ما تحارب به دولة عظمى. فحصيلة ما سقط فوق رؤوسها من مئات صواريخ المقاومة لم تشهده إسرائيل في كبرى حروبها. ومع ذلك هي تقتل حيث لا ينبغي أن تقتل، وتتجنب المواجهة، حيث لا قيمة لكل هذه الفضيحة الحربية، . المقاومة تطلب بني صهيون أن يترجلوا ليحاربوا كرجال، وإسرائيل تضرب النساء والاطفال لترغم المقاومة على التوقف. ليس في مصلحة اسرائيل ان تستمر يوما واحدا في الحرب إذ تكلفها فيه صواريخ المقاومة ملايين الدولارات. وها هي تعترف عبر خبرائها بأنها عاجزة عن خوض حرب برية ضد المقاومة. لا تريد إسرائيل أن تحاربنا، لأنها مهزومة خلف تكنولوجيتها؛ شكرا لك أيتها المقاومة النبيلة، فلو كان في تاريخك غير هذا الصمود وتعرية الكيان الغاصب

من أسطورته القتالية المزيفة لكفى، فلا تبالي إن دمرت اسرائيل بعد ذلك كل شيء. . إذا كانت إسرائيل كما يؤكد خبراءها عاجزة عن تدمير ترسانة حزب الله، وعاجزة عن غزو لبنان برا فلترقص إذن اسرائيل وترقص رقصتها الدموية فوق سماء بيروت، لكنها ستظل رقصة جبان لا يحسن القتال إلا على بساط الريح.

متى تفكر إسرائيل الجبانة أن تحارب على الأرض، وان تحمي اسطورتها على الواقع الميداني وليس على جبن العرب وثقافة الهزيمة التي وشمت ذاكرتنا بالعار. لو كانت إسرائيل قادرة على أن تحاربنا لترجلت وواجهت المقاومة وجنبت نفسها عناء تدمير المدنيين وجنبت مستوطنيها ذلك الرعب الذي أحدثته صواريخ المقاومة في كبرى المدن الإسرائيلية. لكنها لم تفعل، ولن تفعل. فإسرائيل التي فضلت اليوم التدمير العشوائي بدل المواجهة، والتي لم تستطع أن تقتلع المقاومة في الأراضي المحتلة الفلسطينية، هل هي قادرة حقا على اقتلاع المقاومة اللبنانية. أيام من القصف الأحمق للبنى التحتية أكدت بان إسرائيل مجنونة هذه الأيام، وتحس بأن وجودها أصبح في خطر. لقد فرضت المقاومة على أمة صهيون المحتلة معركة نكون أو لا نكون. وإسرائيل معنية اليوم بهذه الحرب، والمقاومة مؤمنة بذلك أيضا، فهل العرب مهيئون لذلك، أم أن المقاومة فرضت المرحلة الجديدة ورفعت الإيقاع الذي لم يتعلم العرب العزف عليه؟! إسرائيل تجهل كل شيء عن المقاومة ومواقعها. وهي تستطيع اليوم كما بالأمس ان تهزم العرب فقط وفقط حينما يفكرون برسم هزيمة . .٦٧ وتستطيع ان تهزم العرب فقط وفقط حينما يفكرون في بنياتهم التحتية الهشة على حساب مستقبلهم الوطني وكرامة أمتهم وشرف قضيتهم واستقلالهم الحقيقي. . وتستطيع ان تهزم العرب فقط وفقط حينما يفكرون كأعراب لا كعرب. لقد تحدثت وزيرة خارجية العدو في المؤتمر الصحفي إلى جانب مسؤول سياسة

الخارجية في الاتحاد الأوربي، عن ان إسرائيل تطبق أجندة المجتمع الدولي. لقد وضعت إسرائيل العالم في حرج، حيث بدت في وارد تطبيق القرار ١٥٥٩. هي اليوم باسم الامم المتحدة تتحدث، وباسم المنتظم الدولي. هي العربدة الاسرائلية اليوم بكل ما تحمل الكلمة من معنى؛ هي ميلودراما المجتمع الدولي الذي باتت فضيحته نارا على علم. كل هذا القتل العبثي الصهيوني للمدنيين هو مسؤولية في عنق المجتمع الدولي. وعلينا أن ندرك اليوم بأن المقاومة لا تواجه إسرائيل وحدها ؛ إنها تواجه عالما ظالما بأكمله. إنها حرب أمريكا واسرائيل، والاتحاد الاوربي الذي لا يزال يتآمر على شرف المقاومة اللبنانية، حيث يرى ضحايا إسرائيل ألف مرة قبل أن يرى الضحايا اللبنانيين مرة واحدة، وربما لم يراهم. يرى ان المقاومة اللبنانية إرهابية لأنها أطلقت مئات الصواريخ على المدن الإسرائيلية. يقولون ذلك ولا يخجلون. إنها الوقاحة أو شيء ما أكبر من الوقاحة. ماذا تفعل إسرائيل فوق سماء بيروت؛ اللهم إلا ان يكون هؤلاء الوقحين يرون في قذائف، بني صهيون، المدمرة ورودا تنثر فوق رؤوس اللبنانيين. ماذا بقي في لبنان لم تدمره إسرائيل؟ نعم بقي شيء واحد : إنه الشرف! بقيت المقاومة التي حتى الآن لم تستطع إسرائبل ان تصيبها في الصميم. عجزت إسرائيل إذن عن المواجهة الحقيقية. وهي في تدميرها الأحمق للبنى التحتية وقتل المدنيين، تريد فقط ان تضغط وتحدث شرخا داخل المجتمع اللبناني. . لا تريد الحرب بل تريد الفتنة.

تقول إسرائيل ان الحزب اختطف جنديها بتنسيق مع ايران؟ لا دليل على ذلك سوى ان إسرائيل يزعجها ان تعترف للعرب بأي عبقرية حربية وبأي مقدرة على الصمود. . لكن لنقل: حسنا فليكن. . لنفترض ان إيران حاضرة في المؤامرة. هذا لا يبرر تدمير بلد صغير كلبنان، هو بلا شك عملاق بعقل وقلب ومجد شعبه الكبير الكبير، حتى انه اليوم يبدو اكبر من كل العرب.

لماذا لا تضرب إسرائيل ـ الأسطورة إيران، وتظهر نبوغها العسكري الذي حدثتنا عنه قبل ان يكذبها حزب الله بصواريخه الصغيرة، لكنها الفاضحة للترسانة الاستشعارية الإسرائيلية الخرافية التي قتلتنا رعبا منذ ستين سنة من الاستكبار الإسرائيلي في المنطقة. كم استطاع الباتريوت الذي نصبت إسرائيل العشرات من بطارياته لمواجهة خطر صواريخ رعد المسددة؟.. تدرك إسرائيل ان توجيه ضربة إلى إيران، هي خطوة بائسة نحو نهايتها السيئة. فهي حينئذ ستكون في مواجهة أمة بحجم إيران، كلها حزب الله. أمة تملك قدرة صاروخية هائلة وأشياء أخرى، من يدري؟ لكنها قادرة على السقوط هذه المرة فوق تل أبيب وديمونا وفوق كل شيء نفيس في إسرائيل مع قدرة تدميرية هائلة. عليهم ان يدركوا بأن إسرائيل عاجزة عن ضرب إيران.

نقول للذين يتهمون المقاومة اللبنانية بالارهاب. إنكم تساهمون في تمييع مفهوم الارهاب، وتساهمون في محو المبادء الأساسية للعدالة في هذا العالم. كيف وتحت أي مبرر غدا يمكن أن يقاوم شعب ما من أجل حريته وتقرير مصيره وتحرير وطنه من الاستعمار. وعلى العالم الثالث الواقع تحت هيمنة الاحتمال، أن لا يقر بذلك، لأننا جميعا ذلك الضحية المفترض للاحتلال. حزب الله اليوم يقاتل عن شرف الأمة، وعن هيبتها. وهو بشكيمة مقاتليه يمسح عار النكسة والهزيمة وينظف الذاكرة العربية، ويبني مستقبل النصر وثقافة النصر، حيث شاءوا لنا ان نظل والى الأبد أمة مهزومة. حزب الله يصنع السلم المجتمعي ويؤسس لاستقرار عربي ومجد عربي، بقدر صموده ومواجهته لكيان غاصب عاث فسادا في الأرض ولا يزال، واستهان بالعالم العربي والإسلامي شعوبا ونظما، لم يفرق بيننا. حزب الله ليس منظمة إرهابية حتى لو طال "زمور" إسرائيل وحليفتها الكبرى بتأكيد ذلك. حزب الله ساهم في استقرار وأمن لبنان.. وساهم في سلمه المجتمعي ودعى غير ما مرة لمصالحة بين الشعوب العربية ونظمها على أساس مواجهة التحدي

الخارجي . حزب الله ليس إرهابيا كألمرت وشارون وبوش والزرقاوي وبن لادن، وكل الإرهابيين منا أو منهم ممن ملأ دنيانا البريئة دما حراما . حزب الله مقاومة مشروعة ومنظمة مناضلة تؤمن بحق لبنان في استقلال حقيقي واستقرار حقيقي ودولة لبنانية حقيقية . ولقد أدرك الجميع ذلك، لكنها حرب الشعارات الجوفاء .

أجل إن إسرائيل لا تحاربنا اليوم، بل هي تعبث بدموية فوق رؤوسنا لتصنع استحقاقا سياسيا . إنها تدرك أنها لن تستمر بشعب سجن اكثر من مليون ونصف منه تحت الارض ذرءا لخطر الكاتيوشا المقاومة، وملايين الدولارات التي تخسرها إسرائيل يوما بعد يوم . إنها تضغط من أجل تمرير مواقف سياسية، ومن أجل الخروج من حرب لا معنى لها بماء الوجه . من يخرج إسرائيل من ورطتها وفضيختها في لبنان؟ . . إنها لا تحاربنا اطمئنوا، وإن دمرت ودمرت، فهي تمارس السياسة بالدم الحرام .

فلا نامت أعين الجبناء

* * *

ليس الصمود طبعا عند العرب
أيها العرب غيروا ما بأنفسكم

«ويل للعرب من شر قد اقترب»
الإمام جعفر بن محمد الصادق

يعقد ابن خلدون فصلا مستطرفا من مقدمته، عنوانه: في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط.

وأرى من المفيد قراءة هذا النص، لأنني أدرك أن لا أحد استطاع أن يتعرف على وجدان العرب ويتعرف على سيكولوجيتهم الجماعية أكثر من ابن خلدون. لا، بل لا أجد عربيا يقرأ ابن خلدون إلا ويخرج بانطباع مفاده؛ كيف صمدت هذه الطباع فينا كل هذا الزمان أكثر مما صمد الإحساس فينا بالكرامة. يقول ابن خلدون: **' وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما اقتدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن ينقرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار ولا رب غيره'**.

يقدم هذا النص صورة وافية عن السيكولوجيا الحربية والجماعية للكائن العربي. وحتى لا يتيه بنا الوصف فلا نكاد نخرج منه إلا ونحن مستفظعين لهذه الطباع الغريبة ونقع في مجها، فلنقل إذن، دعنا نقرأ من خلال هذا النص الخلدوني سيكلوجيا الساسة العرب اتجاه إسرائيل.

حينما كانت إسرائيل تبني سياستها على أساس الإعداد لأسوأ الاحتمالات، كان العرب يتغنون بسلام لم يؤمن به أحد سواهم. لم يوجد من بينهم فرفر يعلق الجرس خلال تاريخ هزيمتنا الطويل. لم يكتف هؤلاء ببيع كل شرفنا وكرامتنا والأرض، فحسب، بل خوفونا وخوفونا، حتى بتنا أمة أشباح هاربة من ضوء النهار. لقد باعوا كل شيء، وواصلوا تخويفنا إلى حد المرض. فاق جيلنا على ثقافة انهزامية، لم يكن له يد فيها، ولا أعطي له حق التساؤل. لكنهم عبثا حاولوا أن يواصلوا مشوار التخويف، وإن كان العرب وحدهم في زمن الإستكبار، مطالبون بأن يصبحوا جبناء ومرضى و عبيد، حتى تحيى حفنة من قردة بني صهيون ـ حيث كل من تصهين كان قردا، ولا يخرج من قرديته إلا بمقدار خروجه من صهيونيته وتصهينه. يستوي في ذلك اليهودي والعربي نفسه، فلا هي عنصرية يا صناع العنصرية وكهنتها ـ في قلبنا وفي شرقنا الأوسط مهد الحضارات والديانات.

تطلب السياسة العربية السهل وتستبعد الوعر. بل إن ساستنا ينتظرون ذلك الزمان المستحيل في طوباويتهم الرثة، حينما تصبح فيه إسرائيل سهلا غير ممتنع، وتجرد من كل قوتها وبأسها، وأساطيرها، بقدرة قادر. حينها فقط تخرج الترسان العربية الصدئة، ليحاربوها فيهزموها. إنهم لا يركبون الخطر ولا يحاولونه، ولا يؤمنون بالمغامرة إلا برسم التآمر والخذلان. لقد كان الساسة العرب حمقى في كل شيء إلا في موقفهم من إسرائيل. حيث بارز بعضهم بعضا في لغة التعقل والاستسلام، وصاروا يقدمون دروسا في ضبط النفس وفنون الديبلوماسية لأغيارهم. فلم يزالوا ينظمون من شعر

الهزيمة ما اسودت به وجوهنا أمام العالم. بل لقد ساهموا في صنع وهم كبير، أكبر من واقع العدو نفسه، أسموه إسرائيل التي لا تقهر. والحقيقة أن جبن العرب هو الذي لا يقهر. هكذا حرسوا إسرائيل بخوفهم وجبنهم. وأنزلونا منازل الهزيمة المستدامة. كل جيل ينقل العدوى لمن يأتي بعده. أرادوا لجيل الهزيمة أن يصبح أجيال الهزيمة. لقد عادت طبائع العرب مجددا، وتجسدت في سياساتهم راسخة الجذور. فأصبح المرء لا يكاد يحسدهم على ما هم فيه، ويزهد فيه زهدا ليس له نظير. لم نعد نفكر في الثورة عليكم يا سادتي ؛ ليس لأنكم أعجزتم من في الأرض أيها الجبناء، بل تساميا وقلنا سلاما وتركنا التاريخ يمكر مكره، ليشطبكم من لوحه العريض كجملة غير مفيدة. ولأننا لم نعد نجد الشجاعة ولا الشرف ولا المتعة في الثورة على الجبناء ـ صدق نيتشه هذه المرة، فهاهنا فقط تصبح الثورة مفخرة العبيد ـ. إن الإنسان ليفضل أن يظل إسكافيا من هذا الشعب حتى يتسنى له على الأقل أن يلعن أبو أولمرت وبوش وكل المجرمين في حق الإنسانية وهو مطمئن لضميره النظيف، ولا يكون مسؤولا عربيا يعيش حالة من الرعب الاستباقي. إسرائيل هي ذلك الجبل الوعر الذي صوره لنا المسؤول السياسي العربي صعب التسلق. بل هو ذلك الخطر الذي لا ينبغي لنا كعرب أن نحاوله، في انتظار السهل غير الممتنع. وساستنا لا يريدون تسلق الجبال، ولا ركوب الخطر ولا المغامرة من أجل الشرف ولو مرة واحدة في تاريخ ذلنا الطويل. وفوق هذه المخملية العربية، أصبح جريمة أن يتحدث عربي عن شرف المواجهة. يقولون إن لإسرائيل ترسانة نووية، وإذن لم يعد ممكنا أن يلومها العرب أو يزعجوها بعد اليوم. ولما تطور مسار الملف النووي الإيراني ونازعته إسرائيل وواجهه المنتظمة الدولي نيابة عنها، كان بعض العرب يتحدثون بوقاحة عن ضرورة وجود شرق أوسط خالي من السلاح النووي. هذا في حين لا يزال الإنسان العربي الغاضب ينتظر هذا اليوم الذي ترمينا فيه إسرائيل أو أي دولة مجرمة أخرى بهذا النووي ؛ حيث بات جميعنا

في انتظار شرب هذا النووي واستساغته زلالا أفضل من ذل الوجود وبلاءه تحت سطوة ساسة لم يفكروا يوما أن يسوسوا دولهم على أساس الشرف والتحدي لإسرائيل. لقد باعوا فلسطين وسيبيعون لبنان وسيبيعوننا معهم كشعوب عربية في سوق النخاسة. لكن القائد العربي المهزوم الكسول الذي يأبى ركوب الصعاب، يجد أمامه سهلا آخر، فيه يمارسة العواضة النفسية، ويبدي صقريته المفقودة. إنها هذه الشعوب الممتدة التي يستأسد فيها ساساتنا العرب. ينقضوا ويفترسوا ويدوسوا على هامات شعوبهم المعذبة. فما قيمة ما يقع تحتكم من شعوب إن كانت هذه الأخيرة مجرد جماجم، وقطعان من عبيد. هل أنتم قادة لشعوب حرة، أم أنكم سادة للعبيد؟.

لقد أظهر العرب انزعاجا مما وقع في لبنان. انزعجوا من حق المقاومة أكثر من انزعاجهم من باطل إسرائيل. أرادت إسرائيل أن تجعل الساسة العرب يحسون هم بخطر المقاومة ويشاركونها العدوان. ليس بعيدا أن يكون العدو المقبل للمقاومة هم هؤلاء الأشباح المعمرين الجاثمين فوق رؤوسنا بقلة مروءة وبقلة حياء. وبينما كان الإنسان اللبناني يحاول صنع تاريخه على أساس الكرامة ومجد أمة صامدة، كان البعض يتحدث لغة لا تصلح لمكان ولا لزمان التحدي المفروض اليوم على لبنان. وحقا لقد جسدت المقاومة ذلك الاستثناء. وكان ذلك الرجل الطيب الشريف ابن الشرفاء، صانع مجد العرب المفقود، هو ما تبقى من صمودنا وهو عنوان شرفنا. لقد اعتدت إسرائيل على لبنان حارقة اليابس والأخضر. لكنها لم تفكر في أن تغيير اللعبة أيا كان شكلها الجديد، هو المغامرة، وهو على كل حال أفضل مما هو كائن. كل أشكال اللعبة هي في صالح العرب. وحتى لو أن إسرائيل قتلت منا النصف أو أكثر؛ فإنها ترسم نهايتها السئية لا محالة. إنه من الممكن أن تزول إسرائيل بل عليها أن تزول، ولا مستقبل للعرب إلا بزوالها. دعونا إذن نغامر باتجاه عزتنا وكرامتنا حينما تغامرون أنتم في اتجاه ذلتكم وخيانتكم.

ودعونا نركب الصعاب حينما تحلمون بالتغلب على البسائط. فإذا كانت مصلحتكم في أن تركعوا، فما هي مصلحتنا في أن تركعوا أو نركع معكم ؟! ولن ننتصر إلا إذا غيرنا طبائعنا في التغلب على البسائط، والدخول في عصر التحدي والتغلب على الصعاب. فلنكن عربا ينشدون تحررهم واستقلالهم المشروع لا أعرابا يمكرون ويلقون بالأوطان فتاتا تحت الموائد..

* * *

درس المقاومة للجيوش العربية

في التصريح الأخير للسيد حسني مبارك، يظهر أننا دخلنا مرحلة الدولة العربية ما بعد الهشة والمهزومة، أي مرحلة الدولة المهلوسة. يقول الرئيس مبارك بأن لا أحد سيجر مصر إلى معركة خالية من المنطق والعقل. وأن مصر تملك أن ترد عن نفسها أي عدوان. يا للفضيحة لما تعرقب الهزيمة عملاقا عربيا، فيصبح الأمر غاية في المهزلة. ولا أحد اليوم يستمع إلى تصريح الرئيس مبارك إلا ويتساءل: هل في وسع مصر مبارك أن تضع جيوشها على حدود سيناء.. وهل تملك أن تحملهم من أنواع السلاح ما يشاء لها قرارها الوطني، حيث تفرض إسرائيل ما يشبه حذر التجول على الجندي المصري في ترابه الوطني.. هل في مقدور مصر أن تبني تنميتها على غير مقاس الدولة الصهيونية.. وهل في وسع الرئيس المصري أن يلتزم بالحياد ولا يتحدث بالسلب عن المقاومة؟! الجواب يعرفه الجميع وفي مقدمتهم الشعب المصري الذي فرضت عليه الهزيمة بعد أن لقن الكيان الصهيوني درسا في القدرة القتالية للعرب.. ومع هذا لا أحد من العرب يشك في أن الشعب المصري هو عملاق سلبت إرادته بالحديد والنار. ومن هنا ليس لأحد من القيادات المهزومة في العالم العربي الحق في أن تتحدث بالنيابة عن الشعوب العربية ويخالفها رأيها في التعاطف والتضامن مع المقاومة، إلا أن يكون كاذبا. فما يمكن أن يدعيه مسؤول عربي، تفضحه الوقائع. والحق أن تصريح مبارك لا علاقة له بالوجدان والموقف المصري الشعبي. وهنا تكمن الخطورة. إن مبارك الذي بدا منزعجا من شيعة العراق ومن عمليتهم السياسية في تصريحه المشؤوم والمشكك في الولاء الوطني للشيعة العرب، ها هو يكرر الموقف المهووس نفسه من المقاومة اللبنانية. والناظر في هذا التصريح يكتشف هزال الموقف العربي الرسمي حيال ما يجري اليوم في الشرق الأوسط. إن مبارك ينبه إلى أن لا أحد يستطيع جر مصر إلى الحرب. هذا مع

أن هذا الأخير يدرك بأن المقاومة لم تطلب من المسؤولين العرب من أمثال مبارك إلا أن يكفوا ألسنتهم، ولينشروا جيوشهم على أسلاك الهزيمة، وليضعوها في براد إلى يوم يبعثون. . فمن سألك مبارك أن يدخل حربا. . مع أن إرادة الشعب المصري وبطولة أبنائه هي أكبر من أن يخدش في كرامتها هذا التصريح المذل. نعم، لا شك في أن حربا كهذه خالية من المنطق والعقل، وكأن مبارك يريد أن يقول ـ وما قاله حق لو أنه استكمل عبارته ووضح ـ أنها حرب خالية من منطق الاستسلام وعقل الهزيمة. وكان يفترض في مبارك وأمثاله أن يصمتوا ولا يتكلموا، حيث المقاومة تصنع مجد الشعوب العربية الحرة، وتضع سمعة المهزومين العرب في متاحف تاريخ الهزائم المنكرة. لذا كرهوا المقاومة ولعنوا اليوم الذي جعلتهم المقاومة لا يعرفون كوعهم من بوعهم في معركة الشرف. . ما الذي كان على مبارك وعلى أمثاله أن يستفيدونه من دروس المقاومة التي استغنت عن نصرهم واستحضرت يأس الشعوب العربية من أنظمتها في مواجهة الإحتلال الصهيوني؟

لم تكن المقاومة اللبنانية البطلة بديلا عن الجيوش العربية التي هزمتها إسرائيل بالقرارات السياسية الخاطئة للعرب. ولم تكن المقاومة سوى بنت هذا المجال لكن بثقافة أخرى وخارج شروط الهزيمة العربية. وقد أظهرت المقاومة اللبنانية أن الجيوش العربية لما تسند بثقافة قتالية وإرادة سياسية كتلك التي تتمتع بهما المقاومة هذه الأيام، لحطمت أسطورة ذلك الجيش الذي لا يقهر. هذا أمر أصبح اليوم واضحا بما فيه الكفاية. لقد تبين أن إسرائيل ليس وحدها من يصنع أساطير التفوق الذي شلت بها إرادتنا السياسية وأدخلت المنطقة في رعب كبير، قبل أن تبطلها المقاومة وتجعل منها خرافة ساذجة لا تجري إلا على أفواه المسؤولين الإسرائيليين وبعض المسؤولين العرب. بل ثمة من يساهم معها في صناعة أساطيرها. فالنظم العربية ساهمت اكثر من

إسرائيل في تأكيد الأسطورة المذكورة. اليوم تدرك إسرائيل كما صرح مسئولوها ان الحرب على لبنان هي مسألة نكون او لا نكون. يتعين على إسرائيل هذه الأيام ان تحافظ على أسطورتها القتالية. فلو هزمت، اصبح من الضروري ان تفكر في أساطير أخرى؛ لكنها بالتأكيد لن تكون أسطورة الجيش الذي لا يقهر. وبكل المقاييس كانت المقاومة تقدم دروسا في الثقافة القتالية والثقافة السياسية والاستراتيجية والأخلاقية للعرب وللعالم. إنها حقا حرب من اجل العالم. وسيذكر العالم للمقاومة اللبنانية إنها كانت مقاومة لحماية الأعراف الدولية من البلطجة الأمريكية والصهيونية وشذاذ الآفاق من ناهبي الأمم وسارقي الأرض.

الدرس الأول: وهو درس نفسي، على المحارب العربي ان يثق في ذكائه وقدراته. .

الدرس الثاني: ان لا مجال لهزم إسرائيل إلا إذا هزمنا أساطيرها في نفوسنا ومنها:

- إنها الجيش الذي لا يقهر
- إنها تضم أذكى البشر
- إنها قادرة على إبادة العرب في أربعة وعشرين ساعة.

أكدت المقاومة على ان الأسطورة الأولى هي من خيال العدو الذي يمارس حربا نفسية على العرب . . يخوفهم بالتكنولوجيا التي لا يملكونها، والممنوعة عنهم. . حطم الأسطورة الأولى بان فضح القدرة القتالية لإسرائيل على الميدان. . كما حطم الأسطورة الثانية المؤسسة للاستكبار الإسرائيلي في المنطقة بأن فاجأها بذكاء المقاومة وانتصارها على التكنولوجيا والخطط العسكرية الإسرائيلية وخطأ كل حساباتها. فقد يكون أحيانا هذا التهوين الإسرائيلي من العرب هو مكمن ضعفهم، حيث تشكلت عقيدتهم القتالية

على إننا مرعوبون وبأننا لا نقاتل بذكاء. كما حطمت المقاومة أسطورة القدرة الإسرائيلية على تدمير العرب قاطبة في ظرف وجيز. فلقد وصلت الحرب ضد لبنان حتى الحين اكثر من نصف شهر، لم تستطع إسرائيل خلالها النيل من منصة واحدة لإطلاق صواريخ المقاومة في حين تهاوى اكثر من رموز عسكريتها وعتادها العسكري أمام دفاعات المقاومة. وهي مدة من الصمود فاقت صمود الجيوش العربية، ومكنت إسرائيل من نصر سهل أتاها على طبق من فضة. وهي منذ ذلك الوقت وفي كل وقت لا تستطيع القيام بحروب طويلة الأمد. ولقد استطاعت المقاومة أن تسقط هذه العقيدة القتالية القائمة على الضربة السريعة والحروب الخاطفة. إن أياما من الصمود العربي لو أمكن الجيوش العربية أن تحارب بعد أن تطلق سراحها القرارات العربية، من شأنها ان تحيد حتى السلاح النووي، لأن ضعف إسرائيل في حجمها ووجودها داخل العرب. فقبل ان تستكمل إسرائيل لعبتها يكون العرب بمناوراتهم ودفاعاتهم وجيوشهم الكثيرة في قلب إسرائيل؛ وحينها لن تطلق إسرائيل على نفسها النووي. لو صمد العرب اقل مما صمدته المقاومة وقاتلوا بعقيدتها لدخلوا قلب إسرائيل قبل ان تكمل إسرائيل تدمير مدينة واحدة كبيروت.

وعليه، فإن المقاومة اللبنانية اليوم تخفف من الذاكرة العربية المهزومة. وتعيد صياغة ثقافة المقاومة وتعيد كتابة تاريخ العرب، على انه تاريخ صمود لا تاريخ هزيمة. بل من شأن ذلك ان يساعد حتى في المفاوضات أيا كانت الفلسفة التي تؤطر هذه المفاوضات؛ فان العرب كان أولى لهم ان يستفيدوا من ضربات المقاومة لا ليفرضوا شروطهم على إسرائيل، بل على الأقل حتى لا تستمر إسرائيل وأمريكا في إذلالهم وفرض شروط معجزة على العرب. وتشكيل شرق أوسط جديد مذل للعرب شعوبا وأنظمة..

كان على الجيوش العربية أن تعيد بناء استراتيجيتها تجاه إسرائيل..

حيث المقاومة اليوم تعري على الإمكانات والخطط الإسرائيلية الحربية وقدرة الجندي الإسرائيلي، حيث رأينا معظمهم محمولون على بطونهم إلى الإسعاف ما يؤكد على أنهم كانوا ودائما سيكونون في حالف فرار وإدبار في المعارك الحقيقية. أثبتت المقاومة أن الإنسان متى تحرر من قيود الهزيمة وآثار الحرب النفسية للحرب، كان أقوى من التكنولوجية، مهما بلغ بطشها.

ان المقاومة اليوم تخوض حرب الكرامة وحرب التحرر الوطني وحرب القيم الحضارية التي لا يمكن ان يستتب لها الأمر إلا إذا صمد العالم ضد إرادة الهيمنة الأمريكية. ان المقاومة تريد ان يكون شرقنا الأوسط شرقا للعرب والمسلمين لا شرقا لأمريكا وإسرائيل. فإذا لم يعر العالم اهتماما لذلك، فسيكون حتما العالم لهم، لا يشاركهم فيه أحد. لكن كل ما يمكن قوله، فان إسرائيل التي استدرجتها المقاومة للحرب قبل إكمال استعدادها التام، فرض زمان ومكان المعركة. وإسرائيل اليوم تحارب الجيوش العربية في حزب الله. وتدرك ان هزيمتها هي وسام شرف سيعلقه السيد نصر الله على أكتاف الجندي العربي، سواء قاتل أو لم يقاتل، فسيكون حينئذ مقاتلا بالقوة أم بالفعل! فهذا الغصن من تلك الشجرة!

* * *

محنة المقاومة اللبنانية مع خطاب الغدر..

على بسالتها وقوة شكيمة رجالها تبدو محنة المقاومة اللبنانية كبيرة متى تعلق الأمر بمواقف الداخل اللبناني السلبي على نشازها وغرابتها وغربتها على وجدان الشعبين اللبناني والعربي. وهي مواقف تتسم في هذا الظرف العصيب بقلة المروءة وفساد الضمير. حيث كل همز ولمز ضد المقاومة هذه الأيام سيكون لا محالة في خدمة إسرائيل ويبرر عدوانها الغاشم. إن المقاومة تواجه اليوم تحديا آخر غير كونها تواجه بطشة إسرائيل الكبرى. إنه تحدي كمية الخذلان و الكراهية واللؤم والغدر الذي تحمله بعض الأطراف سواء داخل لبنان و خارجه. لا يكاد يؤلم المقاومة كل هذا التحدي الذي تمثله إسرائيل، بقدرما يؤلمها مواقف الداخل اللبناني أو العربي، الذي يتفاوت في شدة هجاءه للمقاومة. طبعا عندما تستبد الكراهية بالنفوس وحينما لا يجد أعداء المقاومة مصلحة شخصية في المقاومة، فسيستندون إلى كل شيء، وسيصبحون بخيانتهم العظمى وطنيين شرفاء، يبررون كل شيء بالوطن، في حين لم يشهد لهم الوطن ـ الذي يلعنهم ـ بأي إنجاز منذ أن أصبح لبنان ضحية مؤامرات دولية، ومنذ جعلت منه إسرائيل ساحة اختبار لسياستها وعسكريتها. منطق المقاومة حينما يتلقاه الإنسان اللبناني والعربي بالوجدان، يدرك أنه أبعد مدى من أن يكون حتى خطابا فئويا ضيقا. بقدر ما هو خطاب مناضل ومشروع يستيقن حقيقته كل إنسان حر في هذا العالم. فما الذي يجعل البعض يستهين بعقول الناس حينما يشكك بشكل مباشر أو غير مباشر في صدق المقاومة ومشروعيتها؟! ومن تكون هذه الجهة حتى تستطيع إقناع الشعوب العربية وشعوب الدنيا بأنها على حق حينما تتهم المقاومة بأنها غير مشروعة وغير صادقة؟! يمكن لكل هؤلاء الذين نسميهم أبطال الوقاحة زمن الحرب، والغادرون الجبناء بشعوبهم وأوطانهم، بأنهم لا يمكنهم إقناع حتى حلفاءهم المتربصين بلبنان؛ حيث الغادر بالوطن هو مستقبح عند العدو،

وشخص لا يوثق به، حيث كيف يوثق بخائن لشعبه بعد أن استحكمت روابط الدم واللغة والإحساس والمصير والماء والهواء وكل شيء. من المؤسف أن الإعلام اللبناني ليس سواء في تعاطيه مع الحرب واستحقاقاتها. بعض اللبنانيين ـ والحمد لله أنهم معدودون على رؤوس الأصابع ولا وجود لهم إلا في الصالونات أو بعض وسائل الإعلام التي تستفز المشاهد العربي وتستهين بوجدانه النبيل وذكائه الوقاد ـ هم ذلك الاستثناء التعيس في المشهد اللبناني الجميل والمورق، الذي يصنع تاريخه وتاريخ شعوبنا، حيث أنجز بصمود شعبه ومقاومته من مظاهر النصر ومؤشراته ومفاجآته ما عجزت الجيوش العربية قاطبة عن إنجازه أو حتى الصمود ساعة أو التقدم قيد أنملة في العمق الإسرائيلي. لغة التشكيك وزرع اليأس في نفوس المواطنين اللبنانيين في ظرف يتطلب تعبئة نفسية عالية ـ تكاد تنحصر في إعلام المقاومة الذي لا يزال صامدا رغم محنته وتهديم بنيته التحتية ـ هو عمل الطابور الخامس في لبنان. وينضاف إليه كل تصريح رسمي من شأنه أن يمنح إسرائيل مبرر المضي في التدمير الوحشي أكثر مما يمكن في ظل تضامن عربي يتعين على ساسته الذين أشربوا في قلوبهم عجل الهزيمة وسكروا منه حتى الفحش، أن يوفروا محاسباتهم الساذجة للشرفاء، أو يؤجلوها ليوم، نتمنى أن يكون أليما على هؤلاء الذين استهانوا بالمقاومة حينما يجدون أن مغامرتها جلبت لهم الشرف ومكنت لهم أكثر مما مكنت لهم تصريحاتهم اللامسؤولة والتي تفيض حقدا واعتداءا وهزيمة. اليوم المقاومة تصنع مجد العالم العربي ومجد قادته أيضا. أفلا يكفي هذا أن يجعل هؤلاء العرب، إن كانوا حقا عربا، أن يسكتوا مادام أنهم غير قادرين على أن يقولوا خيرا. إنها الحرب التي تكشف عن المعدن النفيس وتجعل الخائن والغادر يطفوا على سطحها كالميتة في البحر. إن كان هؤلاء غير مستعدين لإبداء بعض الخجل تجاه شعبهم اللبناني الصامد وتجاه الدماء التي أريقت وأهلها لا زالوا يحيون المقاومة ويدعون لها بالنصر، وتجاه الشعوب العربية والإسلامية التي تتابع معظمها هذه الحرب وترى ما لا يراه

الخونة وأهل الخذلان.. إذا لم يخجل هؤلاء من كل هذا، فليصنعوا ما شاءوا. لكن لا مكان لهم في تاريخ لبنان والعرب ولا في وجدان شعوبهم؛ غدا سيحاسبهم التاريخ والإنسان في لبنان وغير لبنان.

* * *

اتهام المقاومة اللبنانية بالإرهاب مؤامرة على الأعراف الدولية..

أصبح واضحا للرأي العام العالمي بعد مرور تسعة أيام من التدمير الإسرائيلي الممنهج للبنان، وعلى إثر الصور والمشاهد التي تنقل عن ألوف المهجرين وضحايا القصف الإسرائيلي الوحشي، بأن لا أحد يملك بعد اليوم أن يتهم المقاومة في لبنان بأنها إرهابية، اللهم إلا أن يقال، أن كل هذه الأمواج من الشعب اللبناني من أطفال وشيوخ ونساء هم إرهابيون. فيكون الشعب اللبناني كله إرهابيا، وكذا جميع الشعوب العربية والإسلامية. والحق أن المجتمع الدولي يدرك أن عنوان الإرهاب يزداد تفاهة كلما اقتربنا من واقع المقاومة اللبنانية والفلسطينية. لعله من حسنات هذه الحرب ـ إن كان للحرب حسنات ـ أنها ستعري أكثر فأكثر على الوجه الوحشي لإسرائيل، وستظهر للعالم إرهاب الدولة كما تمارسه إسرائيل وكل من ساندها في هذه الحرب العدوانية على لبنان. كمية الرعب الذي تحاول أن تزرعه إسرائيل في المنطقة هو عقيدتها المؤسسة للكيان الغاصب نفسه منذ المجازر الأولى في حق الفلسطينيين من دير ياسين إلى مجزرة صبرا وشتيلا إلى مجزرة قانا إلى جنين إلى غزة إلى لبنان اليوم.. منطق الرعب وإرهاب الدولة الصهيوني يحطم الرقم القياسي، ولا أحد يملك حق الاحتجاج، طالما هنالك أمريكا تؤمن التغطية الدولية بامتياز. الحرب اليوم على لبنان هي منتهى هذا الإرهاب، لآلة حربية تملك وحدها أن تقصف الآمنين، وهي تقتلهم بدم بارد وتستعمل أسلحة ممنوعة دوليا، وإن كان كل ما تقذف به إسرائيل فوق رؤوس الآمنين هو محضور في الشرعة الدولية. من الإرهابي إذن يا عالم؟! ومن له الحق في أن يصف الآخرين بالإرهاب. ومع ذلك لابد من وضع فيصل حقيقي بين الإرهاب والمقاومة.

إذا كانت المقاومة اللبنانية إرهابية، كيف سولت لنفسها أعلى هيئة أممية

اللقاء يوما بقيادتها. فهل حقا قبلوا يومها التعاطي مع منظمة إرهابية ؟! وهذا يعني أن حزب الله الذي يشكل اليوم القوة الأولى في لبنان شعبيا وسياسيا حيث يشارك في الحكومة، لن يكون وحده إرهابيا. فمن له المصلحة في أن يشجع على ترسيخ هذه التهمة ونشر هذا البهتان العظيم. لن يكون حزب الله إرهابيا إلا إذا قبلنا بأن يقولوا إن الشعب والحكومة اللبنانية هي إرهابية، لان الشعب مؤيد للمقاومة والدولة أيضا. قيادة المقاومة التقت مع مسؤولين سياسيين دوليين وفعاليات فكرية معنية بالصراع الدولي من مختلف بقاع العالم أولهم كوفي عنان وآخرهم نعوم تشومسكي.

لم تدمر المقاومة اللبنانية سقفا فوق رؤوس الآمنين، ولم تصنع حمام دم للأبرياء حتى في إسرائيل. لقد تراجعت المقاومة عن تنفيذ الكثير من العمليات في الجنوب المحتل، بسبب تواجد لنساء أو أطفال عند نقطة الهدف، والعالم لا يكاد يعلم بتفاصيل ما يجري في الميدان من هذا القبيل. ليس في ذمة المقاومة دم حرام؛ فهي مقاومة نظيفة في أهدافها ووسائلها، حتى يمكن القول أن لا وجود لما هو اليوم أنظف من عمل المقاومة في لبنان. المقاومة اللبنانية تواجه العدو من داخل أرضها ولم تصوب سلاحها ضد الشعب ولا ضد أي جهة أخرى وليست لها أجندة خارج حدود الوطن. ولو أن قيادتها تنازلت وقبلت بالشروط الأمريكية والصهيونية في المنطقة لمنحوها جائزة نوبل للسلام، ولوصفوها حينئذ بالبطلة. لقد استهزأت الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل بالأعراف الدولية وبأخلاقيات الحرب، وباتوا اليوم يميعون المفاهيم ويحرفون المبادئ ويجهزون على الثقافة السياسية للحضارة المعاصرة، تلك التي تقوم على حق تقرير المصير وتصفية الاستعمار وشرعية المقاومة. ما وقع من دمار في لبنان اليوم هو أفظع مما جرى حين تدمير برجي التجارة العالمية في نيويورك. هذا يعني أن الإرهاب في قاموس هؤلاء الدخلاء على الثقافة السياسية للمنتظم الدولي، هو لما تقوم

جماعة ما بقصف أو تفجير مبنى هنا أو هناك. لكن التدمير مهما بلغت قوته يظل مشروعا ما دام أن الذي يقوم به هو الدولة أو الجيش والطائرات الحربية؟! هذه الازدواجية في المعايير بين إدانة إرهاب الأفراد والجماعات والصمت حيال إرهاب الدولة، أو بين إدانة الإرهاب لما يتم بوسائل بسيطة وعدم الإدانة لما يكون الإرهاب بواسطة الصواريخ والطائرات، يكشف عن أن الأعراف الدولية تتجه إلى منحدر التمييع الأكبر للمفاهيم ومرحلة الفوضى. إن المقاومة اليوم ليست فقط هي دفاع عن شرف لبنان أو العرب أو المسلمين أو حتى العالم الثالث، بل هي حرب من أجل شرف الإنسان المعاصر، ومن أجل حماية ما تبقى من مبادئ أساسية للنظام الدولي، ومن أجل الحضارة الإنسانية المعاصرة. على العالم اليوم أن يدرك بأن حرب المقاومة اليوم هي من أجل البشرية ومستقبلها. وانتصارها هو انتصار لهذه المبادئ والأعراف. ومن هنا فإن العالم الثالث والمجتمع الدولي يتحمل مسئوليته اليوم. فلو انهزمت المقاومة لا سمح الله فإن آثار الهزيمة سيصيب كل من هو خارج الفلك الأمريكي. بهذا المعنى سيكون في ضرب المقاومة وانتصار الغطرسة، ضرر على روسيا وعلى الصين وعلى اليابان وعلى الاتحاد الأوربي نفسه. . إن المقاومة تؤجل صراعا آتيا لا محالة بين الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية على خلفية تناقض المصالح داخل الجبهة الغربية، متى أصبحا وجها لوجه وهدأ ما دون ذلك فيما وراء البحار. يخطئ من يعتقد بأن العدوان الأمريكي والصهيوني سيقف عند حد ما أو أنه لن يبرح حدود الشرق الأوسط. إنها حرب الإنسانية الكبرى. واليوم على العالم التواق إلى العدالة والحرية أن يدرك بأن الحرب اليوم هي برسم أن نكون أو لا نكون. طبعا من الممكن أن نكون بل من الواجب أن نكون، ولكن بأي ثمن ووفق أي شروط جهنمية سنكون!

* * *

حذار أن تزعجوا حزب الله

أبانت الحرب الأخيرة على لبنان، بأن لا خطر على مشاريع التحرر الوطني في البلاد العربية أكثر من غدر الداخل. ومع أن كل شذوذ سياسي في لبنان يمكن أن يصرف تحت عنوان حفظ شرعية الدولة، إلا أن المقاومة عرت على فضيحة هذا الشذوذ بحيث ليس من المناسب أن نبحث له في قاموس السياسة إلا على عنوان الغدر والخيانة. إن للخيانة وجوها وتعبيرات شتى، ومثل هذه الوجوه حصلت في لبنان قبل المقاومة وحين المقاومة وبعد المقاومة. وإذا كان الكثير من هؤلاء الخونة استطاعوا أن يمرروا مكرهم ومبادراتهم من تحت الطاولة، فإننا نجد بعضهم لم يعد يملك سوى تصعيد الوقاحة إلى منتهاها. قد يبدوا الأمر صعبا لما يتعلق الأمر بلبنان، حيث أي تحليل من هذا القبيل يمكن أن يؤدي إلى نتائج غير محسوبة. فضعف الدولة اللبنانية والوضع الفسيفسائي للمجتمع اللبناني وتحكم الطائفية السياسية يجعل التحليل لا يتجاوز السقف. وأن الخيانة في لبنان تغطي عليها الطائفية السياسية. لكننا نستطيع فعل ذلك من الخارج حيث لا ننصح فعاليات المقاومة من السقوط في فخ ردود الفعل الجنبلاطية التي لم تعد تملك إلا هذا القدر من تصعيد الوقاحة إلى أقصاه. فجنبلاط الذي يتباكى على الدولة اللبنانية وعلى الشرعية اللبنانية ويتغنى بالتيار الديمقراطي، كان عليه أن يحمد الله على أن لا وجود حقيقي للدولة اللبنانية، حيث وجودها لن يكون متسامحا مع غدره وتآمره كما فعلت معه المقاومة دائما. غير أن ما يؤسف له أن وليد جنبلاط الدرزي، كان قد أساء برعونته إلى مجد الطائفة الدرزية التي تعيش اليوم في لبنان تحت شطط الجنبلاطية، ومحاولة استئثاره بمصير هذه الطائفة التي عبرت عن مواقفها وشجاعتها ودعمها المعنوي للمقاومة. كان وليد جنبلاط من بين أكثر المستفيدين من الوجود السوري في لبنان. وكان يمثل جزءا من الطبقة السياسية الفاسدة التي استغلت الوجود السوري في لبنان

لمزيد من النهب والشطط في ممارسة السلطة. البكاء على الدولة في لبنان أصبح كذبة سياسية مفضوحة حيث الجميع يدرك أن لبنان قوي اليوم بإرادته الشعبية لا بالدولة التي تتشكل اليوم مما سمي بالأغلبية المزيفة التي استغلت التواجد السوري وانشغال المقاومة في أجندتها الأمنية، حيث سمحت المقاومة لهذه الأغلبية بمزيد من الأصوات والدعم، قبل أن ينقلب بعض هؤلاء ليطعنوا في المقاومة التي زادت في أسهمهم الانتخابية. ومن هنا بات واضحا أن ما يسمى زورا بالأغلبية، لن يستمر، ومن هنا أصبحت الطبقة السياسية الفاسدة تناور بكل ما لديها لتحقيق تحول كبير في المنطقة حيث ظنت أن الحرب على لبنان التي كانوا طرفا في التآمر عليه، من شأنها أن تزيل المقاومة و وتنزع سلاح حزب الله، قبل أن تخيب آمالهم أكبر قوة عسكرية في المنطقة مدعومة بالولايات المتحدة الأمريكية. أمام خيبة الأمل الكبيرة وأمام سقوط خيار الطبقة السياسية الفاسدة التي استغلت حركة الرابع عشر من آذار، لم يعد أمام وليد جنبلاط إلا الهروب إلى الأمام والعناد بمزيد من الجنون، تحضيرا لمغادرة المشهد السياسي اللبناني، بعد أن أفلس سياسيا ولم يعد أمامه إلا أن يجد له مكانا في الولايات المتحدة الأمريكية. الحرب على لبنان لم تكشف عن خيارات مزعجة فقط بل كشفت عن الخيانة العظمى. جزء من الدولة اللبنانية قدموا تسهيلات كثيرة لقوات العدو سواء لانجاء مائة ضابط في مقر قوات الأمن اللبناني بمرج عيون التي تورط فيها كل من سعد الحرير الوسيط والسنيورة وأحمد فتفت ووزير الداخلية، أو في إعطاء معلومات جزافية عن تواجد أمين عام السيد نصر الله في الضاحية والتي أعقبتها عملية قذف مخيم شتيلا بأطنان من المتفجرات. .

كان على الشارع اللبناني أن يتسائل والحق انه اليوم يتساءل وبقوة عمن كان المستفيد الأول من الوجود السوري في لبنان. أجل، لقد استفادت المقاومة من الوجود السوري بالاستعداد لمواجهة الاعتداء الإسرائيلي على

المنطقة وأظهرت أن لا مصلحة كانت لديها أكبر من التحضير لصنع معجزة النصر التي جعلت كل صوت في لبنان غير صوت المقاومة مرفوض من كل اللبنانيين والعرب وكل شرفاء العالم. ازداد سهم الوليد جنبلاط سياسيا وماديا، كما استطاعت شركة الحريري أن ترهن الشعب والدولة اللبنانيين لسنوات لأكثر من ٤٠مليون دولار من الديون، القسم الأهم منها مدفوع لشركة الحريري المحتكرة لإعادة إعمار لبنان. اللبنانيون يعرفون أن الدولة الحقيقية والقوية في لبنان لم تكن في صالح الجنبلاطية والحريرية، لأن هذه الطبقة السياسية والمالية الفاسدة في لبنان لا يمكنها التمدد أكثر في ظل دولة قوية، وإذا حصل مثل ذلك فلن يطلبوا اكثر من دولة مفتوحة على الاستغلال المالي للحريري، واستثماره المالي في التجارة والسياسية. إن شرط قيام الدولة القوية اللبنانية هو فتح ملف الشطط والتجاوزات وجرائم وليد جنبلاط والفساد المالي والنهب والتوريط المالي للدولة اللبنانية.. ثمة الكثير من الملفات يجب ان تفتح وأهم من ذلك نهج سياسة من أين لك هذا.. إن الدولة اللبنانية القوية هي دولة قوية من كل الجهات. يعتقد جنبلاط بأن المقاومة غبية حتى تستشير خائن أحمق لا يدري ما يقول، بأنها ستقوم باختطاف الجنديين. هكذا يظن المخرف السياسي أنه يملك الوزن الحقيقي والوطني الذي يجعله يستحق شرف أن يكون له دور في أجندة المقاومة. ولعل جنبلاط اليوم منزعج أيما انزعاج لأنه يحس بأنه خيب آمال كوندوليزا رايس، وبأنه لم يستطع ان يكشف أن يكون عينا على المقاومة، بعد ان اظهر بؤس أداءه ووفاءه وأمانته في تسريب مضامين الحوار الوطني بنسخة مزيفة. وبعد أن ظهر أنهما لا يصلحان عملاء حقيقيين للولايات المتحدة الامريكية ولإسرائيل. ليس أمام جنبلاط والحريري إلا أن ينتحرا سياسيا ويغادرا لبنان إلى الجحيم، حيث لا مكان في لبنان المستقبل للخونة والغادرين. ستتحقق دولة لبنان القوية، لكنها الدولة التي ستحاسب أولا هذه الطبقة الفاسدة التي لا تؤتمن لغدرها، وهي عنوان لبنان وذاكرته المفارقة وليس عنوان مستقبل

لبنان، حيث سيظهر أن الأغلبية التي ستنشئ الدولة الحقيقية لن تكون إلا أغلبية المقاومة ومحبيها، وهم في كل الأحوال أشرف من الجنبلاطية والحريرية التي جلبت للبنان الذل والعار والتفاهة، لولا شرف المقاومة ومواقف الشرفاء. غير أن سؤالا كان لا بد أن يطرح: ماذا لو صمم هؤلاء على تصعيد الوقاحة إلى نهايتها؟

لعل سبب صبر و حلم المقاومة وعدم ردها على حفنة المجانين وخيار الذل في لبنان أنها قوية في لبنان ومتجذرة في وجدان الشعب اللبناني. ويتجاهل هؤلاء بوقاحة أن ما يسمونه أغلبية حتى برسم الانتخابوية اللبنانية القائمة على جملة التوازنات والحسابات، لا تغير من واقع الأغلبية الحقيقية التي تنتظر المحطة الانتخابية القادمة لكي ترمي بالأغلبية المزيفة إلى مزبلة التاريخ اللبناني. إذا كان الوجود السوري يسمح بمثل تلك التوازنات، فاليوم لن يزهد أحد في العملية الانتخابية، ولن يجد مكر جنبلاط ولا مال الحريري من يصدق أكذوبتهما أو تشترى ذمتهم. لقد أدرك هؤلاء حقا وكما أكد الجميع بمن فيهم وزيرة خارجية إسرائيل بأن أقوى جيوش العالم لن تستطيع نزع سلاح حزب الله. وإذا كان الأمر كذلك، فأي مهزلة بعدها أن يتحدث سعد الحريري أو جنبلاط أو أي قزم صغير في لبنان عن ضرورة نزع هذا السلاح. إن المقاومة اللبنانية هي بنت هذا الشعب الممتد من الضاحية حتى الجنوب. . وقد رأى العالم وأدرك ذلك القدر من الوفاء الشعبي الجنوبي للمقاومة الذي بلغ حد الأسطورة. حزب الله هو الجنوب كله. والحديث عن مواجهة حزب الله في لبنان، معناه مواجهة الضاحية والجنوب كله. إنما يظل السؤال قائما: ماذا لو طلب حزب الله وشعب الضاحية والجنوب حقهم في تقرير المصير وأعلنوا الانفصال وتشكيل دولتهم، من يملك أن يمانع في الداخل والخارج؟ غير أن مثل هذا الخيار، على إمكانه، ليس في وارد مقاومة قدمت نصرها الذي صنعته بدمها ودم أبنائها إلى كل لبنان وكل العرب

وكل المسلمين وكل الأحرار في العالم.. بل إن مثل هذا القرار الخطير لن يرضي أمريكا ولا إسرائيل إطلاقا.. فهلا أدركت الجنبلاطية والحريرية أن لإزعاج حزب الله خطا أحمر، لن يقدرا على بلوغه ولو مكروا بالليل والنهار؟!

* * *

بعد شهر من الصمود..
العرب يتوافدون على مطار بيروت بعد إذن!؟..

كان العنوان الأبرز للحرب المفتوحة التي أعلنها الكيان الصهيوني المحتل على لبنان، هو المفاجأة والذهول. حيث لم يكن في وارد الحربية الإسرائيلية ولا وارد النظم العربية ولا حتى بعض الأقطاب السياسية اللبنانية، أن الحرب ستطول حتى اليوم على خلفية صمود لم يحطم أسطورة الجيش الذي لا يقهر فحسب، بل بات هو نفسه ينحت ملحمته الأسطورية في مشهد جعل المقاومة نموذجا لا يمكن التعاطي معه بالمفاهيم الساذجة ولا المواقف السطحية كما كانت ولا زالت إلى حد ما تفعل بعض الأطراف العربية وبعض الفعاليات السياسية اللبنانية. الحروب الإسرائيلية لها نمط واحد لا يمكن أن تتجاوزه بحكم الشروط التي تتحكم بها جغرافيا وسيكولوجيا ولوجيستيكيا، وهو نمط الحرب السريعة والخاطفة. إن العقيدة القتالية والتربية العسكرية والسيكولوجيا الحربية التي يتمتع بها المقاتل الصهيوني، لا تسمح له بأن يخوض الحروب الطويلة الأمد من دون ضمانات التفوق التكنولوجي الكبير ـ وهي في الأصل ضمانات سيكولوجية ـ الذي يجعله يخوض نوعا من الحروب النظيفة التي بقدر ما تحصد من أرواح في الطرف الآخر ـ لا يهم أن يكون معظمهم بل يجب ان يكون معظمهم أبرياء ـ تكون حصيلة ضحاياه الصفر أو ما هو قريب منه. هذا الشكل من الحروب النظيفة لم يعد له وجود على خلفية حجم الدمار ومنسوب ضحايا الاعتداء الإسرائيلي على لبنان في صفوف العدو. إن اكتساحا بريا مهما كان الجنود الإسرائيليين مدججين بالأسلحة والمعدات والعدد الكبير من الحُشود العسكرية سيكون على مرمى قناص المقاومة الذي يستطيع متى اقترب العدو من العمق اللبناني أن يخوض معه حرب استنزاف، مما يجعل حصيلة القتلى أكبر. الحرب على لبنان خطأت كل الحسابات وقلبت مفهوم الحرب النظيفة وغيرت من مسلمات

تفوق التكنولوجيا الحربية على مهارات الإنسان القتالية. اليوم أصبح واضحا أن كلاشينكوف واحدة متموقعة في المكان المناسب يمكنها إسقاط كتيبة أو أكثر. لقد انهزمت إسرائيل. هذا ما يتعين اليوم قوله بالفم "المليان". لأن بعض الأطراف حتى اليوم لا تكاد تصدق أن المقاومة انتصرت في ادارة المعركة وأنها أربكت العدو وهزمته نفسيا وعسكريا. بل يبدو أن بعض الأطراف العربية لم يعد من مصلحتها أن ينتصر خيار المقاومة، لأن في ذلك فضيحة تفوق قبولها بذل الهزيمة التقليدية للعرب.

كل هذا يقال، حيث تقاطرت الوفود العربية على بيروت بعد أن أذنت لهم في ذلك إسرائيل التي تسيطر على الجو والبحر والبر هذه الأيام. وذلك لحضور اجتماع وزراء الخارجية العرب بعد أن شارفت المقاومة على شهر من الصمود ضد التدمير الممنهج للإنسان والبنى التحتية اللبنانيين. بالتأكيد ليس في جعبة العرب ما يقدمونه للقضية اللبنانية، والمناخ المخيم على أكثرهم هو الهزيمة وعدم الثقة في النفس. ولا نخالهم قادرين على دعم لبنان في ما عرف بالنقاط السبع، والوقوف ضد مشروع القرار الفرنسي ـ الأمريكي الذي يقطر تآمرا وتحيزا لإسرائيل التي أقدمت بدورها على تقديم مشروع تعديل للقرار المذكور، وحيث يتوقع أن تلغي البند الخاص بمزارع شبعا وغيرها من البنود التي مع فرض وجودها، ستدخل لبنان في أتون حرب أهلية وتجعله تحت الوصاية الدولية وأمام احتمال العدوان الاسرائيلي في أي وقت، ناهيك عن حجم الخسائر التي سيدفع لبنان فاتورتها من دون أي مكسب وطني. العرب اليوم يتصرفون كما لو أن لبنان انهزم. وهم لا يكادون يميزون بين التدمير الإسرائيلي للبنى التحتية وحصد أرواح المدنيين ـ وهو عمل جرمي جبان ـ وبين النصر بمفهومه العسكري. لقد حاول وزير الخارجية السوري وليد المعلم، أن يرفع من إيقاع التحدي، ويرفع معنويات العرب، بإعلانه جهوزية القوات المسلحة السورية في الرد على أي اعتدار إسرائيلي على سوريا، والاستعداد لحرب اقليمية. هذا في حين يحاول البعض أن يتجه

بمسار الاجتماع إلى أقل من دعم الصمود اللبناني، بل بمحاولة الضغط واقناع اللبنانيين بقبول الهدنة بلا شروط حقيقية تعيد للبنان سيادته الكاملة على أراضيه وتجعله يفاوض كمنتصر لا كمهزوم. الحراك الديبلوماسي يسعى اليوم إلى فرض قرارات لا تكاد تختلف عن أي وثيقة للهزيمة يجب أن يمضي عليها طرف مهزوم. وهذا هو الانتصار الوحيد والممكن لاسرائيل، يمكن أن يقدمه العرب إن لم يستفيدوا من دروس تاريخهم. تعتبر بعض الصحف الاسرائيلية أن هذا الفرار سيجعل اسرائيل تحقق بالسياسة ما عجزت عن تحقيقه بالحرب. مثل هذا حدث بالفعل بعد الانتصار الجزئي لمصر والعرب على اسرائيل قبل ان يوقف السادات الحرب ويتحول النصر إلى تسوية كامب ديفيد الانهزامية. بذلك ستحقق اسرائيل بالسياسة ما عجزت ان تحققه بالحرب. التاريخ يعيد نفسه، لكن العرب قلما يعتبرون من التاريخ. وهذا ما تدركه اسرائيل من شأن العرب. ملامح انقسام الموقف العربي بدأت منذ البداية، والتحالفات العربية البينية بدأت تطفو على السطح. . ففي قبال حلف لبناني ضمني يصطف فيه كل من الرئيس إميل لحود ونبيه بري وحزب الله، بانضمام فعاليات أخرى، حيث يمكن اعتبار عون جزءا من وجهة النظر الأخيرة، إن لم تكن كاملة بل هي الأقرب في الخطوط العريضة. . بالإضافة إلى إيران وسوريا. . بالمقابل هناك حلف يتشكل من السعودية ومصر والأردن ويجد له حليفا في الداخل فؤاد السنيورة ومن حوله. . هي حرب على السطح دامية مدمرة. . لكنها حرب تحت السطح من نوع آخر. . فقبل أن نتحدث عن أنها هي حرب إيران وسوريا ضد إسرائيل تجري في لبنان كما يحب بعض المحللين القول فيريحون أنفسهم من عناء الحديث عن مشروع الشرق اوسط الجديد وتداعياته على المنطقة، فهي حرب بين مواقف ورهانات وأجندات عربية ـ عربية. السعودية تدرك أنها في نهاية المطاف غير قادرة على ان تقول في حق حزب الله اكثر مما قالته، حيث أيا كان الأمر فحزب الله جزء من المشهد السياسي اللبناني إن لم نقل الفاعل الأقوى والمعادلة الصعبة

في لبنان. ومهما كان الموقف، فحزب الله هو اليوم وغدا الشعب الجنوبي وشعب الضاحية أي الجزء المهم من تركيبة لبنان السكانية. فالموقف السلبي الصريح والمعلن والمسيء، سيؤثر على أي وجود مستقبلي للمصالح السعودية في لبنان. هذا ناهيك عن أن موقفا صريحا كهذا من شأنه أن يعزل السعودية شعبيا من قبل الجماهير العربية والمسلمة.. لكن مع ذلك لنقل إنها حرب سعودية ضد إيران من خلال الموقف السعودي من الحرب الدائرة اليوم.. وهناك حرب باردة أخرى كما أظهرتها التصريحات المتبادلة من فعاليات محسوبة على قطر وأخرى على السعودية. فقطر تقف موقفا مناقضا للموقف السعودي من الحرب على لبنان. بل تستغرب من موقف بعض الدول المتسرع بشأن لبنان بما يخدم الموقف الاسرائيلي. الحرب الباردة بين السعودية وقطر تجد في الحرب الاسرائيلية على لبنان مجالا للتعبير عن نفسها..

لا ندري ما الذي يمكن أن تقدمه قافلة العرب إلى لبنان بعد كل التصريحات الصادرة من قادتهم ومسؤوليهم.. فالاردن كالسعودية تحتج على مغامرة حزب الله.. مصر أعلنت من دون سؤال أنها لن تنجر إلى حرب إقليمية على أساس مغامرات غير عقلانية حفاظا على البنى التحتية.. في الداخل اللبناني وليد جنبلاط لم ير في كل ذلك الحراك الديبلوماسي سوى محاولة سوريا لاستعمار لبنان مجددا.. وهو الموقف الذي لم نسمعه حتى من العماد ميشيل عون الذي لم يدخل لبنان إلا بعد الانسحاب السوري.. السنيورة يتهم إيران بأنها تجاوزت حدودها ليس إلا لأنها تمسكت بنفس المطالب اللبنانية.. لن يكون العرب خارج لعبة المصالح الممكن جنيها من هذه الحرب. وحتى الآن ليس إلا المقاومة التي تواجه التحدي وتصمد وتحمي المطالب اللبنانية. فإذا لم يكن العرب في مستوى النصر الذي صنعته المقاومة، فلن يكون لوجودهم اليوم ببيروت أي معنى..

المقاومة اللبنانية
وفتاوى الجهل والذل

ليس المطلوب من سفهاء العرب وهم يرقصون رقصة البهلوان الأخيرة هذه الأيام، أن يكونوا أحرارا وأشرافا كما يجب أو يتوقع أن يكونوا على الأقل، بقدر ما أن المطلوب منهم كف ألسنتهم الطولى بالبهتان والجهل، وبأن لا يذلوا أنفسهم قبل أن تذلهم الأمم قاطبة ويبسق في وجوههم لكع بن لكع. فقبل أن يقضي كاهن الإرهاب المدعو الزرقاوي، الذي قتل من أطفال العراق ونسائهم وشيوخهم ما لم تقتله إسرائيل في عدوانها الغاشم على لبنان، صرح بوقاحة وجهل وسوقية، بأن حزب الله، هو حليف لإسرائيل. إنها أشبه ما بدت للإرهابي التكفيري الأرعن بمسرحية طالت فصولها بثمن دم المقاومة والشعب اللبناني. "العما" ؛ أين أبصار هؤلاء من كل ما يحدث بالأمس واليوم؟! غير أن الحقيقة الكامنة خلف هذا التهريج أن المقاومة فضحت ظلا ميتهم ودمويتهم وجبنهم بنظافة أهدافها ووسائلها ونباهة خطابها وشجاعة رجالها. وأمام هؤلاء البله يحتاج الإنسان أن يقلب الطاولة في وجه ثقافته السياسية، لأنهم يفاجئونك بحقائق لا تقل سخفا عن حماقاتهم العار والمذلة للأمة. لا يحتاج الإنسان أن يكشف عن بؤس هذا الموقف الذي يشاركهم فيه كل من الظواهري وبن لادن وكل الحاقدين على هؤلاء الذين أفنوا حياتهم دفاعا عن الأمة دون أن يعترف لهم هؤلاء بالفضل. ومع ذلك أين هو بن لادن مما يجري اليوم في لبنان، وهل يملك الشجاعة للاعتراف لحزب الله بفضل الصمود والتحدي. ماذا قدم هؤلاء الذين بهدلونا أمام الأمم، للقضية الفلسطينية سوى أن جلبوا لنا العار وجعلوا الشعوب تنظر إلينا كإرهابيين لا يميزون بين اليابس والأخضر في لعبة الموت العبثي. كان على بن لادن ومن يفري فريه أن يتعلموا السياسة وفن المقاومة النظيفة من المقاومة اللبنانية. بأن يكفوا عن قتل المدنيين وأن يغيروا خطابهم الجهنمي، ليقولوا

شيئا يفهمه العالم والناس. وبأن لا تأخذهم العزة بالإثم إن كانوا حقا مؤمنين! كم قتل الزرقاوي من الأبرياء في العراق وكم قتل من الأمريكان أو من الصهاينة. ولا حديث عن شلال التكفير الذي بلغ حافة اللامعنى! من يحق له أن يشكك اليوم في صدق وشرعية المقاومة؟ ومن يحق له اتهام من؟

سيضرب ستار من الصمت على ألسنة القاعدة هذه الأيام. لأنها ترى الصمود الذي لم تعرفه، وترى نظافة الجهاد الحقيقي الذي يحدد أهدافه بدقة ويتحرك وفق خطاب عقلاني يضع الأشياء في مواضعها. لن يفعلوا أكثر من التحريض، حيث قدر المقاومة اللبنانية أنها شيعية؛ والشيعة في رأي هؤلاء خارجون عن الأمة ولا قيمة لكل إنجازاتهم حتى لو جلبت لهم الشرف والاستقلال وأخرجتهم من ذلهم وتفاهتهم، وحتى لو ضحى هؤلاء بدمائهم وحياتهم من أجل الأمة كل الأمة!

فحينما تمثل شاعرهم وهو يشيد بإنجاز من دمر من أفراد جماعتهم برجي التجارة العالمية، بقصيدة لرأس الخوارج عمران بن حطان يمدح فيها ابن ملجم قاتل الإمام علي بن أبى طالب مطلعها :

يا ضربة من تقي ما أراد بها
إلا ليبلغ عند ذي العرش رضوانا

كان المقاومون يتمثلون قصيدة العباس وقصيدة الحسين ولم يقولوا يوما ما يجرح في هذا الطرف أو ذاك. فكيف ينصركم الله يا بقايا الحرورية، وأنتم تتغنون بقصائد الخوارج التي تمدح قاتل سيد الأوصياء وأشرف صحابة رسول الله ـص ـ؟

قبل أيام طالعنا كبير مفتي التكفير، الشيخ الوهابي السعودي عبد الله بن جبرين حسب وكالة الأنباء السعودية الرسمية ـ واسم ـ بفتوى تقول : " لا يجوز نصرة هذا الحزب الرافضي ـ يقصد حزب الله ـ، ولا يجوز الإنضواء

تحت إمرتهم، ولا يجوز الدعاء لهم بالنصر والتمكين".

وقال المفتي الأرعن "ونصيحتنا لأهل السنة أن يتبرؤا منهم، وأن يخذلوا من ينضموا اليهم، وأن يبينوا عداوتهم للإسلام والمسلمين. ".

ليس الإفتاء ضد الشيعة بدعا في تاريخ هذه الطغمة التكفيرية الحاقدة والعنصرية. وليس غريبا أن ينطق من أعمى الله بصره وبصيرته هذه الأيام بفتاوى الذل والبهتان، مختزلا المقاومة في شيعيتها، وإن كانت شيعيتها ـ وحق الذي انتزع منكم نعمة العقل و القبول ـ هي عنوان شرفها. لكن الغريب هو هل إن مثل هذه الفتاوى لا زال لها مكان في زماننا ومكاننا؟ أجل؛ فمادام أن من فتاوى هؤلاء الحمقى التي لا زالت بين ظهرانينا القول بكفر من قال بدوران الأرض وكرويتها، فحتما يجوز أن يفتوا بواجب خذلان من أسموهم بالرافضة.

لقد قدم بن جبرين فتوى مطابقة لآراء القاعدة، على مرأى ومسمع من مسؤوليها. . ألا بئس فتاواكم يا حرورية آخر الزمان. .

* * *

وضعت الحرب أوزارها.. فانطلق خيار الذل..

لن نهنئ المقاومة بنصرها المعجز . . فلقد هنأناها منذ بداية العدوان الصهيوني على لبنان، حيث ظلت ثقتنا في ما ستجلبه سواعد فوارس المقاومة إلى لبنان وليس في كل ذلك التمسرح السياسي الرديء للطبقة السياسية الفاسدة في لبنان. قلنا لها حينئذ : هنيئا لك. واليوم نرى ما حدث تحصيل حاصل. لا سيما وأن ثمة من بدا يشغلنا عن الإحساس بالنصر ونشوة عودة النازحين إلى ديارهم ويتحرك ليستكمل ما لم تحققه الآلية الحربية الإسرائيلية، بجلب مزيد من الإحساس بالصغار والهزيمة للمجتمع اللبناني وللشعوب العربية التي باتت تلعن هذه الطغمة الفاسدة من وراء الحدود.

الآن وضعت الحرب أوزارها، وإن ظلت اليد على الزناد. ففي منطقة الشرق الأوسط لا وجود لضمانات دولية، طالما هنالك إسرائيل لها جدول أعمال يتجاوز كونها الدولة التي تقامر من اجل وجود دولتي صهيوني ممنوح، اتضح أن العم سام اليوم يرهن وجود ه بوجود رزنامة محددة يجب على الكيان الصهيوني الوفاء بها. والحرب على لبنان هي جزء من جملة الأهداف الأمريكية في المنطقة والذي يجب على الكيان الصهيوني القيام بها وكالة. وحيث كما قيل أن إسرائيل خيبت آمال الولايات المتحدة الامريكية في لبنان، كان متوقعا أن تتحرك الولايات المتحدة لاستصدار قرار أممي في أسرع ما يكون. الحديث عن ضمانات دولية في لبنان وفي عموم الشرق الأوسط حديث ساذج، مادام القرار الدولي اليوم رهن بالنفوذ الأمريكي، ومادام في نية الأمريكان تصعيد الفوضى الخلاقة، حيث من مراميها جرف كل القوانين والاتفاقات والأعراف الدولية. وضعت الحرب أوزارها، لكن الحراك التآمري على المنطقة لم يقف بعد. والحرب على لبنان تعقبها حروب في لبنان وعلى النفوذ في لبنان بين المنافس الفرنسي والمنافس الأمريكي. وطبيعي حينما تغيب الدولة، تظل الارتباطات قائمة مع الخارج. غير ان المنطق اليوم في

لبنان، ليس مع من تقف، بل ماذا تستطيع ان تقدم للبنان وللدولة اللبنانية من خلال مع من ترتبط. ليس في لبنان فئة سياسية لا تراهن على أو لا تستقوي بأي جهة خارجية. فما سماه بشار الأسد بالكوميديا السياسية، وأحسبه تحدث عن أقل ما يوصف به المشهد السياسي اللبناني مجسدا فيمن اسماهم مجموعة ١٧ أيار، ليست الطبقة المستقلة كما تدعي في كل مرة تحاول أن تصفي حسابها السياسي مع من يقف في وجه خياراتها اللامسؤولة في لبنان. فلن يكون قلباه وعقلها على الدولة اللبنانية القوية اكثر من غيرها. لكن ثمة الكثير من السفسطة السياسية تنطق على لسان هؤلاء الذين غادروا لبنان كسعد الحريري، بمجرد ما بدأت الحرب التي ليس مصادفة أنها لم تقترب من السوليدير، حيث أظهرت الحرب من هو المستهدف في لبنان من قبل أمريكا وإسرائيل اكثر من غيره. القرار الأممي رقم ١٧٠١، فرضته المقاومة بقوة صمودها وبالدرس الكبير الذي لقنته للمعتدي. ومهما اعتور القرار من نقائص وحتى لو كان القرار المذكور هو محاولة لإنقاذ ماء الوجه الإسرائيلي وأيضا المصالح الإسرائيلية التي باتت في وضع جد حساس بفعل الضربات المتتالية للمقاومة، فإنه يظل انتصارا غير مباشر للمقاومة وليس لغيرها إلا للأسباب التي ذكرنا. بعض السياسيين يتحدثون عن ان القرار الأممي هو ثمرة للمساعي التي قام بها فؤاد السينيورة والى حد ما يتحدثون عن الرحلة المكوكية لسعد الحريري. وكلها تنتمي حقا للكوميديا السياسية اللبنانية اذا أحببنا الاستعارة من بشار الأسد. الانتصار كان كبيرا. وجميع الدوائر المعنية بما فيها إسرائيل اعترفت بالهزيمة، بدأ من بيريز ونيتينياهو وموفاز وانتهاء بتصريحات الحكومة الحالية، وكبرى الصحف الإسرائيلية مثل يديعوت احرونوت، إلا الطبقة السياسية ل١٤ آذار في لبنان لا تريد ان ترى الواقع، لأنها غير معنية بتاريخ الصراع العربي الإسرائيلي. وقد يملكون ان يقولوا كل شيء إلا انهم غير قادرين على إقناع الشارع اللبناني والعربي والإسلامي. خطاب السيد نصر الله الذي رد عليه كل من وليد جمبلاط، كان خطابا

مسؤولا وفي صالح الدولة اللبنانية. مجموعة ١٤ آذار تريد الدولة اللبنانية أولا، غير ان هذه الدعوة الطوباوية الرثة التي تخفي وراءها قانونا سافرا لتغيير اللعبة وإدخال لبنان في معادلة الفوضى البناءة لصالح شرق أوسط جديد، هو ما يخفيه هؤلاء الذين لا يزالون يمتلكون بعض الوقاحة ان لم نقل كل الوقاحة بعد ان ظن العقلاء بأن جنون هؤلاء ستقهره الحرب والصمود وقوة المقاومة التي جلبت لتاريخ لبنان عزا شاء ان يستهين به هؤلاء الذين هم في الحقيقة يستهينون بلبنان. الدولة ليست هي ما كان في البدء. بل الأمة والشعب والخيارات الصحيحة تسبق الدولة وتحدد هويتها. وما يبدوا حتى الآن لا يحدد هوية الدولة الممانعة القوية التي تستطيع أن تحمي لبنان وتحمي كرامته. ولم يكن السيد خاتمي ولا الشيخ مهدي شمس الدين الذين قرأ لهما جنبلاط مقطعين من مقالتيهما في مؤتمره الصحفي الأخير، حيث اعتبر الأخير نبيا، سوى مراوغة جنبلاطية مكشوفة. درس جنبلاط إلى شيعة لبنان درس سفسطي مرفوض. حتى وإن حاول بسذاجة شرخ الموقف الشيعي في لبنان، فلا خاتمي ولا شمس الدين كانا يقفان موقفا سلبيا جنبلاطيا أو حريريا من المقاومة المشروعة. فلئن كان ثمة من يعطي أو لعله قد أعطى من الذرائع ما يكفي للعدوان الإسرائيلي على لبنان، فهو مجموعة ١٤ آذار. نعم سوريا لم تحارب، لكنها دعمت اكبر مقاومة ضد إسرائيل حينما تخلى عنها الجميع. فالمسألة لا تتعلق بلبنان كبديل عن الجولان، بل للحرب والسلم ظروف مختلفة. فإذا أمكن المقاومة من لبنان، فلتكن. سوريا دولة كبيرة في المنطقة. والمقاومة في الجولان لن تكون لها ظروف المقاومة اللبنانية. الحديث عن المقاومة وإمكانها أمر مبدئي. لم تطلب سورية من الدول الأخرى ان تقاوم كما يقاوم حزب الله في لبنان، بل طلب منها مساندة المقاومة مبدئيا على الأقل. ليس حزب الله صنيعة سورية، ولا المقاومة صنيعة إيرانية. ان المقاومة مدينة في تكوينها الأول لمن زرع بدرتها الأولى مع إمام حركة المحرومين السيد موسى الصدر قبل قيام الثورة الايرانيةنفسها.

وتاريخ جبل عامل والجنوب عموما تاريخ مقاوم منذ السيد شرف الدين الموسوي. سوريا اختارت المقاومة اللبنانية. وقد قدمت ما يسندها نظرا لالتقاء المصالح. والأمر سيان بالنسبة لإيران. ومن هنا فإن خطاب بشار الأسد الأخير لم يكن فيه ما هو مخالف لقناعات الشعوب العربية والإسلامية التي تابعت يوميات المقاومة للعدو الصهيوني، وهي اليوم ليست مستعدة بعد كل الذي حصل بأن تستمع لسفسطة جنبلاط ولا سعد الحرير الذي دخل السياسة بالوراثة والمال، وهو يدافع عن الديمقراطية. نعم سؤال السيد حسن عن : ولكن أي دولة؟ ليس المقصود دولة الطائف في النطاق النظري، بل دولة تمكنت منها الطبقة السياسية الفاسدة في لبنان بالمال والارتباط بأجندة العدو في ضرب لبنان، واليوم بالاستهانة من نصره الذي لا يحتاج إلى كثير كلام. كان على جنبلاط وغيره ان يتحدوا عن واقع جديد صنعته المقاومة، حيث من الخطأ أن نحاسبها بهذا المنطق الساذج. قبول المقاومة بالقرار هو موقف سياسي مطلوب لأسباب تتعلق بوقف العدوان على المدنيين. وهذا هدف حقيقي. حيث المقاوم اثبت جدارتها القتالية على الأرض، كما أثبتت جدارتها السياسية في إدارة الأزمة. غير ان ثمة أمرا مهما وهو ان قبول المقاومة بالقرار هو تعبير عن احترام الدولة والجيش اللبنانيين. حيث كانت المقاومة في مواقفها وتصريحاتها تذكر بذلك. كانت الطبقة السياسية الفاسدة في لبنان تراهن على رفض المقاومة للقرار وللإرادة اللبنانية ممثلة في الدولة اللبنانية، لكنهم فوجئوا وسلبت منهم ورقة التذرع بالانصياع للقرار الأممي، فوجدوا أنفسهم خارج اللعبة بشقيها العسكري والسياسي. يتحدث جنبلاط عن الأغلبية اللبنانية، وهو بتحدث عن أغلبية سياسية ستظهر الأيام أنها أقلية، وبأنها تمثل خط الرداءة السياسية في لبنان مدعومة بمال الحريري الذي استثمر في السياسة اكثر مما استثمر في العقار. . ومع ذلك لا ينبغي لهذا الخطاب أن يصرف الرأي العام عن أن موقف كبرى الفعاليات السياسية في لبنان كان مع المقاومة. إن دولة الرئيس لحود ودولة الرئيس بري، مع

المقاومة حتى النخاع. والشارع المسيحي كان مع المقاومة، كما أكدت فعاليات سياسية مهمة في الشارع المسيحي اللبناني، مثل رئيس حزب المردة سليمان فرنجية ورئيس حزب الكتائب باقرادوني بالإضافة إلى العميد مشيل عون..

التهديد الذي يستشرفه وليد جنبلاط لقاء مواقف الذل والكراهية التي يقوم بها في لبنان لن يأتي من سوريا ولا من أي طرف آخر، بل هو تهديد سيولد داخل الطائفة الدرزية التي جلب لها جنبلاط المهانة بمواقفه الرعناء. ومن حق الدروز ان يدافعوا عن تاريخهم المشرف في النضال العربي قبل ان تجرفه الجرافة الجنبلاطية الحمقاء.

* * *

من له المصلحة في اغتيال بيير الجميل؟..

لا زال المشهد السياسي اللبناني يواجه تحدي التصعيد على إيقاع من الاحتقان السياسي، في ظرف دولي هو الأسوأ من نوعه . . إذ يجري ما يجري اليوم في لبنان على بعد أميال فقط من وجود عدو لا يزال لم يتجرع بعد، هزيمته المنكرة بعد انسحاب مخزي وتراجع مذل أمام ضربات المقاومة اللبنانية. . كما يجري ما يجري في لبنان على بعد أميال فقط من وجود قواة اليونيفيل الدولية التي عجزت عن أن تؤمن سيادة لبنان على بحره وجوه كما وعد المنتظم الدولي ولم يف. . وفي مناخ من الحصار والعدوان الإسرائيلي المتكرر فوق الأجواء اللبنانية. . كأن المقاومة التي ناهضت أكبر قوة عسكرية في المنطقة تجد نفسها اليوم في مواجهة أكبر تحدي مع الرداءة السياسية التي تفوق كل سلاح ممكن أن يفتك بلبنان ومكتسباته الوطنية. . لكن على الأرض اللبنانية وفي المشهد السياسي اللبناني تخاض اليوم حرب ضروس بحساسية تتنامى على خلفية الفشل الكبير الذي منيت به جولات الحوار الوطني بين الأغلبية والمعارضة تجوزا، حيث ليس ثمة في الحقيقة ما يؤشر على أن المعارضة هي بالفعل أقلية خارج منطق التوزيع الأغلبي والأقلي البرلماني المحكوم بمعادلة كانت فيها المعارضة اليوم أخلاقية أكثر مما كانت سياسية، ولا هناك ما يؤشر على أن الأغلبية المزعومة هي حقيقية بعد أن ارتدت عن وفائها للشروط الذي بموجبها أهديت امتياز الأغلبية لتكون ظهرا للمقاومة لا خنجرا مسموما في ظهرها كما أكدت التجربة مع تيار الغدر الذي مثله الألعبان السياسي لجماعة ١٤ آذار. . الغدر السياسي الذي جعل الحكومة اليوم في وضعية من الهشاشة، لا يخولها النهوض بتحديات لبنان ما بعد الحرب. فإذا كانت الحكومة الحالية وهي تتحول تدريجيا إلى مشروع مجموعة سياسة مرتدة عن كل ما هو وطني وتفكر من خلال إفساد الوضع اللبناني لبلوغ مصالحها السياسوية المحدودة، كانت قد لعبت أسوأ دور يمكن

ان تلعبه حكومة تواجه العدوان وتعيش أهوال الحرب، فإنها اليوم في زمن السلم أسفرت عن حقيقتها بوصفها حكومة تطبخ قراراتها داخل السفارة الأمريكية في بيروت.. حكومة لا تستطيع أن تمنح الثقة للشعب اللبناني.. فليس غريبا أن يقال عن الحكومة الحالية : يجب أن تسقط ويعاد تأسيس سلطة جديدة تستطيع أن تمنح الثقة لجميع الأطراف، ولن تكون تلك الدولة إلا دولة حكومة وحدة وطنية.. بل الغريب ان تستمر هذه الحكومة، وكل ما يصدر عنها وما تستطيع ان تقدمه للبنان هو صفقات قاتلة للبنان، صفقات تكون فيها المصلحة اللبنانية هي آخر ما تحرص عليه جماعة ١٤ آذار.. كنا ننتظر من فؤاد السنيورة أن يتباكى هذه المرة على لبنان في زمن الحرب القذرة كما تباكا في زمن الحرب، لما جلب الذل والعار على لبنان الصامد في وجه الاعتداء الصهيوني.. يبدو أن حزب الله والقوى اللبنانية المناصرة للمقاومة وللاختيار اللبناني الصحيح، صبرت بما فيه الكفاية على رعونة الألعبان السياسي.. فما الذي يمنع الحكومة الحالية أن تعجل بانتخابات أو تقيم حكومة وحدة وطنية لاجتياز الطريق المسدود .. قد يقول الألعبان السياسي بأن ذلك يقع بخلاف الدستور.. والحق ان المجموعة التي أعطت لنفسها حق التظاهر لإسقاط حكومة كرامي، وجب عليها القبول بالحل الديمقراطي.. يجب ان تسقط الحكومة التي باعت لبنان في الحرب وباعته اليوم في السلم.. إن الوطنية اليوم فوق كل اعتبار دستوري أو قانوني.. حالة الاستثناء تقضي بأن يعيد لبنان بناء سلطته وفق دستور الطائف المجمع عليه.. فالدعوة إلى انتخابات عاجلة أو حكومة وحدة وطنية مخرج دستوري وقانوني وأخلاقي ووطني.. بالتأكيد لا وجود لمن يعارض قصة المحكمة الدولية التي تحولت إلى اسطوانة ركيكة بل إلى أشبه ما يكون بقميص عثمان.. لكن أيا كان الأمر، فدم الشهيد الحريري ليس أهم من لبنان ومن الوطن.. كما أنه دم أكبر من أن يتاجر من خلاله الألعبان السياسي أو يسمح بذلك سعد الحريري إلا أن يكون ممن يرضى بأن يستغل

دم والده ضمن صفقة سياسوية.

إن العملية التي جرت بالأمس وراح ضحيتها وزير الصناعة بيير الجميل، تؤكد على أن حكومة الأغلبية المزعومة أفلست سياسيا، وبأن لغة الدم هي الرصيد الوحيد الذي بقيت تراهن عليه الطغمة الفاسدة، في محاولة لربح مزيد من الوقت. . والحق، ومن دون أن ننتظر ما ستسفر عنه التحقيقات، فإن خبر اغتيال الوزير بيير كان متوقعا، حيث تحدث سمير جعجع عن احتمال حدوث اغتيالات في صفوف أعضاء من الحكومة. . كان على الحكومة حينئذ ان تشدد الحماية على وزرائها. . وكان عليها ان تأخذ الأمر بجدية. . وكان على الجهات المسؤولة ان تحقق مع سمير جعجع وغيره إن كان ما توقعه مبني على معلومات حقيقية أم أن الأمر مجرد تكهنات ساحر. . لا سيما حينما ندرك الطريقة التي تمت بها عملية الاغتيال. . طريقة أقل تقليدية مما كان عليه اغتيال الحريري. . القاتل هذه المرة يدرك أنه ينفذ مطلبا يدرك أن المتهم هو كل جهة تمتد إليها أصابع الحكومة إلا المنفذ الحقيقي للجريمة. . مرة أخرى يعود السؤال: من له الحق في اغتيال الوزير بيير. . ومن له المصلحة في حدوث شرخ في الشارع المسيحي. . ولفائدة من يجري كل هذا في لبنان. . ومن في مصلحته تأزيم الوضع عبر ما يمكن أن نسميه بالفوضى البناءة في لبنان اليوم. . إن الجريمة تحمل معها أثر هذه الفوضى التي تعم لبنان، والتي تبدو في صالح أطراف محددة، بدء من إسرائيل ومرورا بالولايات المتحدة الأمريكية وانتهاء بحكومة الأغلبية المزعومة والمتلاعبة بمصير وطن بكامله. . اغتيال بيير الجميل خيط رفيع يمكن أن يقودنا إلى من قتل السيد رفيق الحريري. . فلغة الاغتيال والمتاجرة بالاغتيال وخلق حالة الفوضى في لبنان هو سياسة شقية للطغمة السياسية المفلسة في لبنان. . وحتى اكتشاف من وراء هذا الفعل الغادر سيكون لبنان مسرحا لتحديات مهما كبرت، فلن تكون إلا فصلا من فصول التحدي الذي

يدرك تيار المقاومة اللبنانية كيف يجيب عليه بالصمود والصدق ذاته . . فالذي وعد وعدا صادقا في الحروب الكبرى لقادر أن يعد وعده الصادق ضد الفساد السياسي في لبنان . .

الذين لم يعد في جعبتهم ما يقدمونه للسياسة اللبنانية سوى التلاعب بمصير الوطن من أمثال جنبلاط سيجدون في لعبة الاغتيالات الوسيلة الناجعة لترسيخ عبثية المشهد السياسي اللبناني . . مرة أخرى يتقدم خطوات ليحفر بين الفرقاء محاولا إيجاد شرخ بين حزب الله وأمل تارة وبين الصف المسيحي مرة أخرى . . وليد جنبلاط هو آخر ممثلي العبثية الدموية في المشهد اللبناني، وهو آخر سفاح الحروب الأهلية . . وليس غريبا أنه اليوم يسعى لأن يوقع بلبنان في جولة مستحيلة من حرب أهلية لم يعد يقبل بها أي أحمق في لبنان بالأحرى العقلاء . . والمصيبة العظمة تكمن اليوم في أن أولياء الدم يسمحون بهذا النوع من الإهانة، والاستغلال لدماء ذويهم . . نتمنى أن يكون موقف الرئيس الجميل إزاء حدث اغتيال ابنه على الأقل، قدوة لسعد الحريري . . فإذا كان لبنان قد أعطاكم الكثير بالحق والباطل . . فارحموه هذه المرة . . ولا تحولوه إلى سهم كبير في أسهم شركة الحريري التي يبدو أنها بصدد تحويل كل شيء في لبنان إلى صفقات تجارية . . فلبنان الصامد بشرفائه لن يقبل أن يصغر . . حتى لو تطاول عليه الصغار . . والصغار اليوم في لبنان هم الذين نسجوا أحلامهم خارج منطق الصمود اللبناني، وصغروا حيث كبر لبنان في وجدان اللبنانيين والعرب والمسلمين والعالم . .

* * *

خطاب السيد نصر الله
يئد الفتنة الطائفية والمذهبية في المهد

أسبوع كامل من الاعتصام في ساحتي الشهداء ورياض الصلح، ولا يزال في جعبة المعارضة مزيد من التحدي ولا يزال في جعبة الحكومة كثير من الوقاحة، لعدم اتخاذ أي قرار شجاع للدخول في تسوية حقيقية لإخراج البلاد من حالة الانسداد السياسي. . علما أن زمان الجلوس على طاولة الحوار لم تعد مجدية بعد أن بلغ الاحتقان مبلغه وفقدان الثقة بألاعيب جماعة ١٤ شباط، ومناورات حكومة لم تعد تمثل أدنى مصداقية للبقاء في إدارة الشأن اللبناني من دون ثلث ضامن كما هو اقتراح المعارضة. . أسبوع كامل والشعب في العراء لم يزود إلا بحماسه وإرادته ووفائه وإصراره على إسقاط حكومة لم يكن أداؤها سيئا في زمن الحرب فحسب، بل كان أداؤها دائما سيئا قبل الحرب وبعد الحرب. . فقبل الحرب، لم تقدم الحكومة سوى ما يعمق أزمة لبنان عبر إغراقه في الديون وفوضى الامتيازات وانتهاء بالتحريض على انتزاع سلاح المقاومة الوطنية ولو بفرض الحرب على لبنان كما كان واضحا من سيرورة النقاش الذي جرى يومها حول سلاح المقاومة وكما سيفضحه الأمين العام لحزب الله أثناء خطابه ليلة أمس. . وفي الحرب، ازداد الأداء السيئ إلى حد التآمر وتقديم الدعم للعدو بصورة فاضحة. . فالسنيورة الذي بكى أثناء اللقاء العربي أيام الحرب واستقبل كوندوليزا رايس لتعبر له ومجموعته على ارتياحها لمشروع شرق أوسط جديد بات وشيكا ويتشكل من أنغام الحرب على لبنان، ويبنى بدماء وأرواح الشعب اللبناني. . هو نفسه ومجموعته الذين حاولوا جهدهم تحويل النصر إلى هزيمة. . خطاب الأمين العام السيد حسن نصر الله بالأمس في الجموع الغفيرة التي امتلأت بها ساحتي الشهداء ورياض الصلح، لم يكن خطابا عاديا، بقدر ما كان نداءا مسؤولا وحاسما، بمقدار ما جاء مفعما بالغضب كان يستدعي معاني كبيرة

للتسامح، ليجسد بذلك نموذجا للخطاب الوطني الذي يصلح نموذجا ليس للبنان بل للعالم العربي الذي بات في الفترة الأخيرة يعيش أزمة في الحس الوطني.. لا يحتاج السيد نصر الله أن يذكر بعدالة قضيته ولا بنظافة المقاومة ومصداقيتها.. فالمقاومة كانت ولا زالت أكبر من أن ينال منها حفنة من الخونة تساما خطاب المقاومة على أن يفضحهم بالاسم وإن كان المراقبون يعرفونهم بالاسم.. ولا يحتاج السيد الأمين العام أن يقدم أدلة أخرى عن تورط هذه المجموعة في رهانات غير وطنية بعد أن رأى المراقبون أن المسألة لا تعدوا أن تكون محاولة فاشلة لبيع لبنان بثمن شخصي لصالح استراتيجيا الفوضى البناءة.. لكن حضور السيد وحده بات أكبر من أن يكون مطابا بالثلث الضامن، بل هو كله ما تبقى من ضمان الدولة اللبنانية في وجه الأفاعي الرقطاء التي اعتادت تبديل جلدها والميل مع رياح القوى الغالبة في المنطقة.. حتى بدا أنهم اليوم يعيشون حالة من الإحباط، على إثر الضربة التي وجهت للحزب الجمهوري في انتخابات الكونغرس الأمريكي واستقالة ديك تشيني وانتهاء بتقرير بيكار ـ هاملتون، ليؤكد بأن حسابات الدول مهما بلغت فلن تزهد في الاختيار الحقيقي وهو التعامل مع دول أقوى وليس مع المخربين الصغار.. كان على وليد جنبلاط الذي جعل من معركته مع سوريا مسألة شخصية عندما دعى إلى طرد هذه الأخيرة من الأمم المتحدة.. وبذلك يكون قد عبر عن درجة من الجنون، وحالة من البارانويا السياسية التي جعلته يضع نفسه مقابل دولة في حجم سورية، وهو أصغر من أن يقود حتى طائفته الصغيرة في لبنان، التي هي من أكثر الطوائف تضررا من تصريحاته الحمقاء.. لكن تقرير بيكار ـ هاملتون يتضمن ضرورة إشراك سورية وإيران في سيرورة الحل في العراق.. وهذا لا بد له من ثمن، بل لا بد أن يوقف شطط السياسة الخارجية الأمريكية وتحرشها بسوريا وإيران، فهذه أقل تدابير يجب أن تسبق محاولات التسوية.. ليس فقط من العار أن لا يبقى في جعبة الحكومة الحالية من سند سوى تمسك بوش وأولمارت بهذه الحكومة، في

مقابل رفض الشعب اللبناني وكل القوى التي ساندت لبنان في كفاحه ضد الغطرسة الصهيونية، بل إن هذه الحكومة سوف تجد نفسها في أحضان مزبلة التاريخ، لأن تطورات الأحداث في المنطقة سوف يجرفها إلى وضعها الطبيعي، وحيث حينئذ لن يصبح الحديث عن أقلية برسم الثلث الضامن مع بقاء هذه الحكومة، بل إنها ستصبح أقلية فيما المعارضة اليوم تعد بنصر لن يكون فقط مآلها حكومة وحدة وطنية، بل حكومة أغلبية مع ثلث ضامن من ممثلي خبار الحكومة اليوم لكن هل سيسمح التاريخ السياسي في لبنان أن تظل هذه العصبة الخائنة للوطن تملك أن تظهر في المشهد السياسي حتى برسم الثلث الضامن والأقلية المرتقبة؟!

لقد ركز السيد الأمين العام على خطورة المقاربة الطائفية والمذهبية لما يحصل اليوم في لبنان . . وتحتاج القوى اللبنانية أن تذكر بين الفينة والأخرى بأن ما يجري لا علاقة له بصراع طائفي ما دام أن الحكومة والمعارضة معا يتقاسمان الفسيفساء اللبناني طائفيا ومذهبيا . . لكن المسألة تتعلق بدرجة عالية من الحساسية، لا سيما بعد أن أقدم تيار الغدر على التحرش بالمعتصمين ومحاولة زرع الفتنة الطائفية والمذهبية . . واللبنانيون يدركون أن المقاومة هي بنت فكر على درجة كبيرة من النباهة حتى يقع في فخ الطائفية والمذهبية . . وإذا كانت الحرب الأهلية سيئة السمعة لا زالت تشهد بأن الجنبلاطية كانت الاكثر انتفاعا وتحمسا لهذا النوع من الحروب، فإن ذاكرة المقاومة تفيض وترشح بمنظري الوحدة والتعايش والتسامح بين الطوائف، حيث يأتي في طليعة أولئك السيد المغيب موسى الصدر . . فليس غريبا أن يؤم اليوم كل هذه الحشود داعية من الطائفة السنية، يكفيه فخرا أنه د . فتحي يكن، طود فكري وإسلامي في الساحة السنية اللبنانية والعربية ورمز من رموز الصحوة الاسلامية في العالم العربي . . ويكفي فخرا أن يكون إلى جانب المعارضة الوطنية رمز كالسيد سليم الحص الذي ظل طودا كفاحيا صامدا في وجه

العدوان على لبنان وضد خيارات الذل العاصفة بالمنطقة.. ولا ندري من أين ستنجح محاولات المتآمرين على لبنان أن يجروا البلد إلى الطائفية والمذهبية ومثل هذه القيادات تحرس لبنان من حرب هم أكثر دراية بمساوئها وهم أكثر معرفة بخطرها ولا معناها.. فالذي يسعى لإشعال حرب طائفية في لبنان اليوم هو ذلك الذي يدرك أنه لم يعد يملك في لبنان مستقبلا سياسيا ولا في وجدان الشعب اللبناني مجدا.. فالحرب الأهلية تفرز تجارا وقراصنة في السياسة والمال، وهي البيئة الوحيدة التي يمكن أن يضمن فيها سراق لبنان وخونة الوطن مصالحهم الفئوية والشخصية.. وأحسب أن اللذين خرجوا إلى الشارع يملكون من إرادة التحدي الحضاري ما ملكوه زمن التحدي المقاوم.. لبنان أكبر من يرهن مصيره سراق المال العام وتجار الحروب الأهلية.. وإن كان ثمة من ضامن، فهي المعارضة الوطنية بقواها الحية وفي طليعتها سيد المقاومة، كبيرها في الحرب والسلم!

* * *

فارس قصير القامة .. سقط حكومة السنيورة ضرورة وطنية

يقولون إن لبنان بلد صغير، لكنه عظيم بمواقفه وإنجازاته الوطنية والقومية . . عظيم بنموذجه على الرغم من هشاشة الدولة اللبنانية التي تكبر بشعبها ومؤسساته المدنية ومقاومته التي كبرت فاتسعت لتجعل من لبنان الصغير أكبر دولة في العالم، حتى وإن كانت الحكومة الغادرة قد حاولت أن تسيء إلى هذا الإنجاز الحضاري الكبير . . انتصر لبنان الصغير وكبر في الوقت الذي هزل فيه أداء الحكومة . . بل في الوقت الذي صغرت فيه الدولة لتحول نصرا كبيرا تحقق على الأرض إلى هزيمة منكرة في الخطاب السياسي السيئ لحكومة السنيورة البكاءة . . وفي تصوري أن لبنان هو أكبر من أن يوصف بحساب الجغرافيا، لأنه امتد في جغرافيا الوجدان العربي والإسلامي والإنساني، وإن صغرت الحكومة حتى تقوقعت في جغرافيا السفارة الأمريكية وعلى مقاس فيلدمان . . وجب إذن أن لا نقول إن لبنان صغير، بل أحب أن أقول إنه البلد القصير القامة . . وليس القصير بالضرورة صغيرا . . وليس القصير بالضرورة ضعيف . . فليس غريبا أن يكون أول بطل الجنوب الشهيد "قصير" الذي فجر نفسه وسط قوات الاحتلال ذات يوم بالجنوب اللبناني . . وليس غريبا أن يكون السيد نصر الله قصير القامة لكنه عملاق مقاوم . . ولا غرابة في أن يكون علي بن أبي طالب قصير القامة وهو فارس العرب الذي ملأ صيته الدنيا . . لكن بالمقابل هناك طوال القامة . . وطول القامة أحيانا يكون مرضا . . والزائد في الطول عرضة للتورم أكثر . . والطويل أحيانا يكون جبانا . . ونقول عندنا في المغرب : متى رأيت طويل هاربا فاعلم أن ثمة قصير يطارده . . وأحيانا يكون الطول الزائد اضطرابا في إفرازات الغدة الدرقية . . في وطننا العربي ما أجمل أن يكون البلد قصيرا، حيث للطول ضريبة يؤديها، أن يكون عرضة للتورم والتقطيع . . فلبنان كما قال بعضهم

أصغر من أن يجزء لكنه أيضا أكبر من أن يستسلم أو تفرض عليه قرارات الهزيمة.. لبنان هو ذلك الأنزع البطين.. هو أنزع ورأسه مكشوف.. مكشوف تستطيع أن تحلق فوقه طائرات العدو دون أن تتمكن قواه من منازلته على الأرض.. تستطيع أن تحلق فوقه طائرات الكيان الصهيوني كما تستطيع أن تحلق فوقه سياسات الغدر والمال الحرام دون أن تتمكن منه على الأرض.. وبطين ليس من دسم زائد بل بطين من وجع وقلق وإحساس بالكرامة.. بطين يحبل بغد مشرق للبنان والعرب.. فالويل للعرب إن هزم لبنان أو ارتهن لخيار التبعية والذل. فلبنان قصير القامة لكنه كبير..

أجل ؛ لقد امتلأت ساحة رياض الصلح بجماهير قوى المعارضة اللبنانية في مشهد وصف بأنه الأول من نوعه في تاريخ لبنان.. وفي مناخ سلمي وتنظيم محكم وخطاب مسؤول، توج بالكلمة التي ألقاها نيابة عن قوى المعارضة الوطنية زعيم التيار الوطني الحر، الجينرال ميشيل عون.. ويبدو أن المعارضة اليوم قررت الاعتصام حتى سقوط الحكومة هذه المرة.. لا يحتاج المراقب أن يقوم بعملية حساب لعدد المتوافدين على ساحة رياض الصلح بقلب بيروت، حيث الفارق بين حجم جماهير ١٤ آذار وطبيعة خطابهم السياسي وطريقة تظاهرهم تختلف ١٨٠ درجة عن جماهير ٨ آذار المنضبطة بأهداف وطنية حقيقية وأيضا بقيم التسامح التي جعلت شارع المعارضة يتجاوز كل أشكال الخطاب الفئوي والطائفي والتحريضي وأيضا الاستفزازي كما حصل أثناء جنازة الوزير بيير الجميل.. ويكفي هذا القدر من الفارق الفلكي بين القوة والخطاب والاهداف ليفضح لعبة الاغلبية البرلمانية التي ظلت هي الورقة الوحيدة التي حاول أن يتلاعب بها رباعي الذل في لبنان: فؤاد السنيورة وسعد الحريري ووليد جنبلاط وسمير جعجع.. هؤلاء الذين لعبوا أسوأ دور في المشهد السياسي اللبناني وأدوا أسوأ أداء حكومي في تاريخ لبنان.. ولعل وصف السيد طلال أرسلان كان

في محله لما قال بأن أسوأ من وضع الحكومة لا يوجد. فهذا إنما يعني أن توقع ما هو أسوأ من خلال حملة التخويف من نزول المعارضة إلى الشارع، لن يكون حتى في أسوأ الاحتمالات أسوأ من هكذا حكومة. وهل هناك ما هو أسوأ من الخيانة والانزياح بلبنان إلى حافة التبعية ورهن وطن بكامله إلى الارادة الاجنبية. . إفلاس حكومة السنيورة ومناورات قوى ١٤ من آذار أمر بات واضحا لم يعد بالامكان العودة معه إلى الحوار. . ما هو أساسي في الحراك السياسي في لبنان، وهو مدعات للتفاؤل أنه حراك واعي بكل المآزق التي من شأنها أن تحرف الأهداف الحقيقية لمطالب المعارضة. . نعني أن المعارضة استطاعت من خلال خطابها وممثليها أن تستوعب أطياف الشعب اللبناني. . إن أهم كلمة تضمنها خطاب ميشيل عون، أن المعارضة لا تهدف إلى مصالح شخصية وفئوية. . وليس المستهدف هو فؤاد السنيورة من حيث هو الرئيس السني، بل المستهدف رئيس الوزراء من حيث هو رئيس الحكومة اللبنانية، وذلك من أجل أن يحل محله رئيس سني يرتضيه الشارع اللبناني. . المسألة إذن سياسية وليست طائفية أو مذهبية. . وهو حقيقة لم يستطع أن ينكرها حتى وليد جنبلاط وهو يتهم نزول المعارضة إلى الشارع بأنها محاولة انقلابية. . فالمعارضة مثل الحكومة تستوعب كل أطياف لبنان . . فكما في الحكومة يوجد دروز وسنة وشيعة وموارنة، أيضا يوجد في المعارضة الطيف السياسي نفسه. . لكن حينما تصبح المسألة سياسية، ندرك أن حكومة السنيورة ستواجه حتما الباب المسدود، لأنها لن تبقى ممثلا حقيقيا لإرادة الشعب اللبناني، بل إن أي يوم جديد ستحاول أن تمارس به حكومة الذل صمودها الغبي، سيكون يوما زائدا في هزيمتها ستحاسب عليه. . بمعنى آخر، كل يوم زائد من عمر حكومة متوارية خلف الأسلاك الشائكة، هو فضيحة زائدة قد تجعل الاستقالة بماء الوجه أمرا متعذرا.

لقد كبر لبنان بمقاومته التي أسكتت منطق القوة والغرور. . كما كبرت

بنزولها إلى الشارع الذي سيسكت عناد المتلاعبين بمصير لبنان.. فالذي قهر الكيان الصهيوني ومشروع الشرق أوسط جديد، لقادر أن يرمي بالحكومة البكاءة الغادرة إلى أقصى مزبلة التاريخ.. هما وعدان.. الأكبر منهما تحقق.. والأصغر قريب.. فانتظر..

المحتويات

الفصل الأول: السياق الاستراتيجي لحتمية المقاومة ١٥

(١) نحو استراتيجيا للأمن العربي والإسلامي ١٧

العالم الإسلامي في ظل صعود الإمبراطورية الأمريكية ١٩

الأمن العربي والإسلامي ومستقبل الأمة ٢٠

الأمن العربي والإسلامي و فقدان الرادع الاستراتيجي ٢٤

من أجل مخطط استراتيجي لأمن عربي و إسلامي فعال ٢٦

(٢) من تداعيات الانتصار نهاية عهد استراتيجيا المغامرة بالحرب.. ..... ٢٩

تفكيك النموذج الإرشادي لسياسة التدخل الأمريكي ٣١

المسوغ السياسي ٣٤

الإرهاب ٣٦

أسلحة الدمار الشامل ٤٠

الديمقراطية ٤٢

المار كوتين الديمقراطي والاستثمار في البؤس ٤٣

المسوغ الأخلاقي ٤٦

المسوغ الأيديولوجي ٤٩

صدام الحضارات ونهاية التاريخ: أيديولوجيا الإنسداد أم انسداد أيديولوجيا ... ٥١

هل أطروحة صدام الحضارات مع أو ضد المقاومة؟ ٥٣
استكبار نموذج وليس نهاية للتاريخ ٥٨
الأيديولوجيا المحافظة ٦٢
أدلوجة مركبة ٦٥
المفاومة توجد في الثقافة الامريكية بالعرض لا بالذات ٦٧
(٣) الإرهاب الاستباقي أو الإرهاب كصناع مسؤولية المفكر في زمن التباس المفاهيم ٧٣
الإرهاب الاستباقي والإرهاب كصناعة ٨١
عولمة الأمركة أو أمركة العولمة؛ ابدأ من حيث شئت، فالنتيجة واحدة! ٨٧
أي مسؤولية للمفكر؟ ٨٨
(٤) نهاية تاريخ و نهاية أيديولوجيات نهاية التاريخ بعد مرور أكثر من عقد على إعلانها في لقاء مع فرنسيس فوكوياما ٩٣
نص الحوار ٩٥
(٥) آفاق المقاومة والتحدي المزدوج مصير المقاومة بين حسابات الإمبريالية الجديدة وحسابات الإرهاب الدخيل ١٠١
هل نجحت الامبريالية في تحقيق أحلامها في المنطقة؟ ١١١
إذن هل نجحت أمريكا وإسرائيل في المنطقة؟ ١١٤
إننا في تحدي . . إذن حذاري من الهزيمة النفسية. ١١٦
الخلط بين الإرهاب والمقاومة؛ مغالطة أمريكية ١١٧
الإرهاب خطير، لكنه عارض ١١٨
منطق المقاومة ١٢٠

وإذن لا بد من مبادرة للتعريف ١٢٤

الفصل الثاني : مقالات في يوميات العدوان على لبنان ١٢٧

الحرب الجبانة على لبنان آخر الفرص لمصالحة النظم العربية مع شعوبها . . ١٢٩

إسرائيل لا تحاربنا ١٣٦

ليس الصمود طبعا عند العرب أيها العرب غيروا ما بأنفسكم ١٤١

درس المقاومة للجيوش العربية ١٤٦

محنة المقاومة اللبنانية مع خطاب الغدر ١٥١

اتهام المقاومة اللبنانية بالإرهاب مؤامرة على الأعراف الدولية . . ١٥٤

حذار أن تزعجوا حزب الله ١٥٧

بعد شهر من الصمود . . العرب يتوافدون على مطار بيروت بعد إذن!؟ ١٦٢

المقاومة اللبنانية وفتاوى الجهل والذل ١٦٦

وضعت الحرب أوزارها . . فانطلق خيار الذل ١٦٩

من له المصلحة في اغتيال بيير الجميل؟ . . ١٧٤

خطاب السيد نصر الله يئد الفتنة الطائفية والمذهبية في المهد ١٧٨

فارس قصير القامة . . سقوط حكومة السنيورة ضرورة وطنية ١٨٢